سلسلة شروحات الشيخ

(١٤)

شرح
تجريد التوحيد المفيد

تأليف الإمام
أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي
المتوفى سنة (٨٤٥) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ
أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي
أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

شرح تجريد التوحيد المفيد

شرح

تجريد التوحيد المفيد

سلسلة شروحات الشيخ

(١٤)

شرح

تجريد التوحيد المفيد

تأليف الإمام

أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي

المتوفى سنة (٨٤٥) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا.

من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، اللَّهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.

أما بعد:

فنبدأ - بعون الله سبحانه - في هذه الليلة منتصف شوال سنة وثلاثين وأربعمائة بعد الألف من هجرة النبي ﷺ، مُدارسةَ رسالةٍ قيمة ومُفيدة ونافعة، وهي: **تجريد التوحيد المفيد؛ لتقي الدين المقريزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذه الرسالة موضوعها: توحيدُ الإلوهية، وما يتعلق بذلك من مباحث العبادةِ والشرك وما إلى ذلك، وهي رسالةٌ من اطلع عليها عَلِمَ حجم فائدتها، لا سيما وهي منتخبةٌ من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جُلها.

فهذه الرسالة كلها إلا أسطرٌ قليلة مُنتخبة من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا سيما من كتابيه: «المدارج» «والداء والدواء».

ولعل العُذر للمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عدم ذِكره المرجعَ الذي استقى منه هذه الرسالة أنَّ العصر الذي كان فيه كان عصرًا اجتمع فيه أهل البدع والضلال على أهل السنة ومؤلفات أهل السنة، فعادَوها، وشددوا النكير على أهلها، بل خوفوهم وأوقعوا بهم، ومن أهم تلك الكتب في ذاك العصر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، وأنتَ تستشف شيئًا من هذا من خلال ترجمة المؤلف لشيخ الإسلام في كتابه «الخِطط» حيث ذكر ما تعرض له رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم أشار إلى أنَّ الذين يأخذون بما قال ابن تيمية قلة قليلة في الشام ومصر، كأنه يُشير إلى أنَّ تلك الهجمة الشرسة على دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية قد أثمرت بانجفال الناس عن تداول كتب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعن الأخذ بدعوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فلعل مصلحة الدعوة اقتضت منه أن يُخفيَ المصدر الذي استقى منه هذه الرسالة.

وهذا تلحظه في غير هذا المؤلَّف أيضًا مما أُلِّف في تلك الفترة، فهو قد مشى على ما مشى عليه غيره، كابن أبي العز في شرحه على «**العقيدة الطحاوية**» فجُلُّ ما في شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز إنما هو كلام شيخ الإسلام وكلام ابن القيم مع أنه لم يُصرح بذلك، وربما صرح في موضع أو في موضعين باسم

ابن القيم، وما عدا ذلك فالكلامُ كلامهما، ولكنَّه لم يُصرح بذلك؛ لأنَّ المصلحة كانت تقتضي ذلك. فالمقصود هو العلم، والمقصود حصول الفائدة.

وأضف إلى هذا أنَّ قضية النسبة نسبة الأقوال إلى قائليها كان الأمر فيه تسامح في الماضي بخلاف ما تواضع عليه العلماء والباحثون في هذا العصر، من ضرورة نسبة الأقوال إلى قائليها، وأن خلاف ذلك يُعتبرُ خلافًا للمنهجية العلمية، وما إلى ذلك.

المقصود أنَّ هذه الرسالة في الجملة رسالةٌ قيمة نافعة حريٌ بطالب العلم، بل بالمسلم أن يُطالعها، وأن يُفيد منها.

المؤلف: هو تقي الدين أحمد بن علي المِقريزي، البعلبكي الأصل، المصري ولادةً ونشأةً، ووفاةً.

وُلد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سنة ستٍ وستين وسبعمائة.

وتوفي: سنة خمس وأربعين وثمانمائة، يعني عاش ثمانين سنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والناظر في تراجم العلماء له يجد أنَّ هذا العالم وُصف بصفاتٍ حسنة في علمه وطول باعه فيه، لا سيما في علم التاريخ، كما أنه وُصف بحسنِ الأخلاق، والتعبُد، واتّباع السنة، وكان أول أمره حنفيًا ثمَّ انتقل إلى المذهب الشافعي، مع أنه كان ميَّالًا إلى اتّباع الدليل، ووصفه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو معاصرٌ له بأنَّه كان مُتبعًا للحديث حتى إنَّه نُسب إلى مذهب أهل الظاهر، وهذا ليس بصحيح، لكن إنَّما كان ذلك وصفًا له من بعض الناس لمَّا رأوا أنه يخرج عن المذهب اتباعًا للدليل.

وهذه الرسالة ستكون مدارستُنا لها بعون الله عَزَّ وَجَلَّ بالتعليق عليها تعليقًا مُتراوحًا بين الاختصار والتوسط إن شاء الله تعالى بحيث أننا نُنجز مدارستها في أقصر وقتٍ بعون الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبةُ للمتقين، وصلى الله على نبينا محمد، خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا كتابٌ جم الفوائد، بديعُ الفرائد، ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة، سميته «تجريد التوحيد المفيد» والله أسأل العونَ على العمل به بمنه.

اعلم أن الله سبحانه هو ربُّ كل شيءْ ومالكه وإلهُهُ.

فالرَّب: مصدر ربَّ يرُبُّ ربًّا فهو رابٌّ، فمعنى: ﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] راب العالمين، فإنَّ الرب سبحانه وتعالى: هو الخالقُ الموجد لعباده، القائمُ بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفل بصلاحهم من خَلقٍ ورزقٍ وعافيةٍ وإصلاح دين ودنيا.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بالتنبيه على أهمية هذه الرسالة**، وما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصفٌ صادقٌ إن شاء الله، **فهي رسالةٌ جمة الفوائد، بديعةُ الفرائد.**

ثم بدأ بعد ذلك بقضية الربوبية، وقد أحسنَ في ذلك، فإنَّ الإيمان بربوبية الله سبحانه وتعالى هي الأصل، فأولُ ما يقعُ في القلب: الإيمان بربوبية الله سبحانه وتعالى، ثم يُرتقى إلى عبودته جل وعلا، فالسُّلم الذي يوصلُ به إلى عبادة الله سبحانه هو الإيمانُ بربوبية الله جل وعلا، بل ولا يُخطئ في توحيد العبادة إلا من لم يُعطِ هذا التوحيد -أعني توحيد الربوبية حقه- فالمشركون ما أشركوا إلا لأنهم ما قدروا الله حق قدره، ولم يُعظموا الله عَزَّوَجَلَّ حق تعظيمه، ولم يكن إيمانهم بربوبية الله سبحانه إيمانًا كاملًا تامًا، فلأجل هذا أخطأوا، ووقع ما وقع عندهم من خللٍ في توحيد الألوهية.

وتوحيدُ الربوبية: يعني الاعتقاد بانفراد الله سبحانه بالخلق والمُلك والتدبير.

هذه أصول الأفعال التي ترجعُ إلى معنى ربوبية الله سبحانه على خلقه.

وهذا الإيمان بربوبية الله جل وعلا دلَّ عليه كثيرٌ من الأدلة، ويُمكن إرجاعُها إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: **الفطرة**. فالعبادُ مفطورون ومجبولون على الإيمان بربوبية الله سبحانه وتعالى، فلو أنَّ الناس تُركوا وفطرَتهم التي فطرهم الله عليها، فإنهم سينشأون مُعتقدين بوجود الله سبحانه، بل وأنَّه ربُّ كل شيء وخالقُ كل شيء، والذي يفتقر إليه جميع العباد في وجودهم وفي تدبير أحوالهم.

النوع الثاني من الأدلة: **دليل العقل**. فالعقل الصريح السليم من الأهواء يعتقدُ جازمًا بأنَّ هذا الكونَ له مُوجِدٌ عظيم، ومُدبرٌ حكيم هو الله سبحانه وتعالى، فالبعرةُ تدلُ على البعير، وأثرُ السير يدلُ على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذاتُ فجاج ألا تدلُ على الحكيم الخبير سبحانه وتعالى، فالعقلُ يقتضي قطعًا ربوبية الله سبحانه وتعالى، وهذه القضية لا تقبل الاشتباه بوجهٍ من الوجوه.

النوع الثالث من الأدلة: **الأدلة الشرعية التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ**. ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [فاطر:٣] . كتابُ الله وسنة رسوله ﷺ طافحةٌ بالأدلة التي دلت على أنَّ الله ﷻ هو الذي ينفرد بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والتصرف في شؤون هذا الكون بمشيئته وحكمته سبحانه وتعالى.

النوع الرابع: الحِس. فما يُحِسُه الإنسان ويشعر به ويراه شاهدٌ ودليلٌ قاطع على وجود الرب وانفراده بتدبير هذا الكون سبحانه وتعالى، ومن ذلك ما يُرى ويُشاهد ويُعلم من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذه براهينُ قطعية على ربوبية الله سبحانه حينما يأتي نبيٌ فيقول: إنَّه رسول من عند الله، ويأتي بآية خارقة للعادة هي آيةٌ عظيمة لا يستطيعُ الخلائق أجمعون على أن يأتوا بمثلها تدل على صدق هذا النبي الكريم، فحينما يُشير النبي ﷺ إلى القمر، ويُخبرهم بانشقاقه، ثم يرونه بأعينهم، يُصبح قطعتين، هذا دليل على أنَّ هناك من هو قادر على فعل كل شيء والتصرفِ في كل شيء.

حينما يستدل نبيٌ على أن الله أرسله بأنه هو القادر على كل شي، فيرمي عصًا تنقلب حيةً حقيقية، بل وتلقف ما أمامها، أو تخرج ناقةٌ من صخرة إلى غير ذلك من آيات وبراهين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هذا دليلٌ على أنَّ ثمة ربٌ خالقٌ مدبرٌ مُتصرفٌ في هذا الكون وحده بلا مُشارك.

كذلك **كراماتُ الأولياء**، والكلامُ فيها على وزانِ الكلام في المعجزات.

كذلك **إجابة الدعاء**، فالناس تعرف في نفسها وفي غيرها أنَّه أُجيبت دعواتها، كم من الناس من كان مُضطرًا فدعا الله جل وعلا فأتاه الفرج من حيث لا يحتسب، وهذا يُحِسُ به ويعرفه الإنسانُ في نفسه وفي غيره، وهذه قضيةٌ مشاهدةٌ محسوسة، إلى غير ذلك من الأدلة الحسية المُشاهدة كهذه السماوات وهذه الأرض، وما فيها من بدائع، وما فيها من عجائب وغرائب أدلةٌ محسوسة مشاهدة على الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

إذن: هذا هو الإيمان بربوبية الله سبحانه وتعالى.

أشار المؤلف بعد ذلك إلى أصلِّ الكلمة. قال: (**فالرَّب: مصدَر ربَّ يرُبُّ ربًّا فهو رابٌّ**).

هكذا ذكر طائفةٌ من اللغويين أنَّ كلمة (رَب) أصلُها على وزن فاعل رابٌّ، ثم حُذفت الألِف لكثرة الاستعمال، وهذا على نحو قولهم: (بارٌ وبرٌ). (ربٌ ورابٌّ) كـ(بَر وبار)، وهذا ذكره كثير، ونازع فيه بعضهم كالسمين الحلبي في «الدُر المصون» بأنَّ هاتين الكلمتين: (بَار، وبَر) كلمتان منفصلتان ليستا أصلًا وفرعًا، وبعضهم قال: إنَّ هذه الكلمة على ما هي عليه (رَبٌّ) على وزن (فَعْل) وهذا قالوا كما تقول: نَمَّ، ينمُّ فهو نمٌّ يعني نمَّام، كذلك تقول: ربَّ يربُّ فهو ربٌّ.

وقيل: إنَّ هذه الكلمة هي مصدرٌ في معنى الفاعل، كما تقول: رجلٌ عدلٌ وخصمٌ، كذلك تقول: ربٌ، وعلى كل حال البحث اللُغوي الأمر فيه يسير.

المقصود أنَّ الله ﷻ (**هو الخالق الموجدُ لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفل بصلاحهم من خلقٍ ورزقٍ وعافيةٍ وإصلاح دينٍ ودُنيا**).

الرَّب في اللغة:

يُطلق على **المالك**.

ويُطلق على **السيد**.

ويُطلق على **المُصلح**.

ويُطلق على **المربي**.

وكلُّ هذه المعاني ثابتةٌ في حق الله سبحانه وتعالى، وما هو أعظمُ منها وهو الخلق والإنشاء من العدم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والإلهيةُ: كَونُ العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا، ويُفردونه بالحُب، والخوفِ، والرجاء، والإخبات والتوبة، والنذر، والطاعة، والطلب، والتوكل، ونحو هذه الأشياء.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

انتقل بعد الربوبية إلى ما ينشأ عنها وما هو ملزومٌ لها، ألا وهي: **الأُلوهية**.

الألوهية مصدر أَلَه، يألَهُ، ألوهةً، وإلهةً، وإلهيةً، وأُلوهيةً، كُلُّ هذه المصادر لكلمة (أَله) و(أَله) بإجماع أهل اللغة بمعنى: عَبَدَ. أَله إلهةً كعبد عبادةً، فالعربُ إنَّما تعرف من لغتها: (أَله: بمعنى عبد) هذا هو الأصل في كلامهم، ومنه قول رؤبة:

لله در الغانيات المُدَّهِي ... سبَّحْنَ واسترْجَعْنَ من تألُّهِ

يعني: تعبُّدِ، يعني لمَّا رآه النسوة تعبَّد واستقام سبَّحن واسترجعن؛ لأنَّه سيترك اللهو معهنَّ.

إذن **الإلوهية يعني العبادة، وتوحيد الإلوهية يعني توحيد العبادة.**

يقول: (**والإلهيةُ كَونُ العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا، ويُفردونه بالحُب، والخوفِ ..**) إلى آخر ما ذكر، فهذا هو توحيد الإلوهية لله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإنَّ التوحيد حقيقته أن تَرى الأمور كُلَها من الله تعالى رؤيةً تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط، فلا تَرَى الخيرَ والشر إلا منه تعالى، وهذا المقام يُثمر التوكل وترك شكاية الخلق، وترك لومِهم، والرضا عن الله تعالى، والتسليم لحكمه.

﮸ ◈ ﮸

قال الشَّارح وفَّقه الله:

التوحيد: مصدرُ وحَّد يوحِّدُ توحيدًا، وهو جعلُ الشيء واحدً، أو اعتقادُ الشيء واحدًا.

والتوحيدُ في الاصطلاح الشرعي: عرَّفه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «التدمرية» بتعريفٍ حسن جامع حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حقيقة التوحيد ألا يشركه تعالى شيءٌ فيما هو من خصائصه»، فالله جل وعلا اختص بأمورٍ لا يجوز أن يُشارك فيها.

وما اختص الله عَزَّوَجَلَّ **به هو انفراده بالربوبية** فهو الخالق وحده دون مُشارك، وهو الرازق وحده دون مُشارك، وهو المالك لكل شيء وحده دون مُشارك، وهو المدبر لكل ما في هذا الكون وحده دون مُشارك.

كذلك اختص سبحانه وتعالى بأسماء وصفات لا يشركه فيها أحد: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] . ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤] . ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] .

كما أنَّه اختص جل علا بأنَّ العبادة لا يجوز أن تُؤدى إلا إليه، ولا تُصْرف إلا له سبحانه وتعالى، فالعبادة حقٌ له جل وعلا، حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، فمن جعل مع الله عَزَّوَجَلَّ معبودًا غيره ولو في عبادةٍ واحدة فإنَّه جعل لله مُشاركًا فيما اختص به سبحانه وتعالى، وهذا منافٍ للتوحيد، وهذا هو حقيقةُ الشرك.

إذن حقيقةُ التوحيد: عدمُ إشراك غير الله جل وعلا معه فيما يختص به سبحانه وتعالى.

وهذا التوحيد دلَّ استقراء الكتاب والسنة على أنه ينقسم إلى **هذه الأقسام الثلاثة** -التي ذكرتها لك-، هي

التي يجب أن يوحد الله سبحانه وتعالى فيها:

❁ **توحيد الربوبية.**

❁ **وتوحيد الإلوهية.**

❁ **وتوحيد الأسماء والصفات.**

وبعضُ العلماء يُقسم هذا التوحيد إلى قسمين:

❁ **إلى توحيد المعرفة والإثبات.**

❁ **وإلى توحيد القصد والطلب.**

توحيد المعرفة والإثبات: هو توحيد الربوبية، وتوحيد الاسماء والصفات.

وتوحيد القصد والطلب: هو توحيد الألوهية.

وجمعَ الله جل وعلا هذه الأنواع الثلاثة السابقة في قوله تعالى: ﴿**رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٦٥]

فقوله: ﴿**رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [مريم:٦٥] هو توحيد الربوبية.

وقوله: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ**﴾ [مريم:٦٥] هو توحيد الألوهية.

وقوله: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٦٥] هو توحيد الأسماء والصفات.

قال المؤلف رحمه الله: (**فإنَّ التوحيد حقيقته**) الجملة من هذه الكلمة إلى ما جاء في صحيفة أربعين من قوله: (**الصديقين**) هذه القطعة مأخوذ من كتاب «الإحياء» للغزالي في أوائله الجزء الأول في صحيفة ثلاثٍ وثلاثين.

قال: (**فإنَّ التوحيد حقيقته: أن تَرى الأمور كُلَها من الله تعالى رؤيةً تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط**). مُراده أن يُقطع عن النَّفس الالتفاتُ إلى الأسباب والوسائط، قال: (فلا ترى الخيرَ والشر إلا منه تعالى، وهذا المقام يُثمر التوكل وترك شكاية الخلق، وترك لومِهم، والرضا عن الله تعالى، والتسليم لحكمه). هذا التعريف فيه نقص، هذا القدْر وحده لا يكفي، بل لابدَّ أن يكون بعد ذلك تعبُّد وقصد تألـه، ومحبة، وخوف، ورجاء، وإلا فمن وقف عند هذا القدر، فإنَّه لم يتجاوز الإيمانَ بتوحيد المعرفة

والإثبات. وهو قد كرر قريبًا من هذه الجملة في الصفحة التي بعدها، وأضاف إليها العبادة لله سبحانه وتعالى، وهذا هو الصواب.

هذا الذي ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو **توحيد المعرفة والإثبات**، ولا شك أنه **يُثمر** هذه الأمور التي ذكرها، ذكر خمسة أمور:

الأمر الأول: التوكل على الله جل وعلا. فمن آمن بربوبية الله حقًا، فإنه سوف يتوكل على الله، ويفوض الأمر إليه، ويثق به سبحانه وتعالى في كل شيء.

الأمر الثاني: ترك شكاية الخلق. فإذا لم يُحَصِّلْ الإنسان مطلوبه من الناس، أو من غيرهم، فإن الموحد حقًا يترك شكايتهم، وتضييع العُمر في التلهف على ما فاته من الحظِّ منهم؛ لأنَّه يعلم أن هؤلاء الخلق ليس منهم شيء، ولا إليهم شيء، إنما الأمر كله من الله جل وعلا، وما فاته إنَّما فاته لأن الله جل وعلا لم يُقدر له ذلك، فهو يقطع التعلق بالخلائق تمامًا؛ لأنَّه على يقين من أن الأمر كله لله، وأنَّ الجن والإنس جميعًا لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه بشيء لم يكتبه الله ﷻ له، إذن لماذا يشتغل بهذا الأمر الذي لا طائل له.

الأمر الثالث: قال: (**وترك لومهم**). أيضًا يتركُ لومهم، وينشغل بأن قلبه يمتلئ من الحُزن وربما الغيظ منهم، ويبدأ باللوم والعتاب لكونه لم يُحصِّل الشيء الذي كان يرومه منهم، وهذا أيضًا نقصٌ في تحقيق توحيد الربوبية.

الأمر الرابع: قال: (**والرضا عن الله تعالى**). الرضا عن الله سبحانه أمرٌ واجب، فيجبُ أن يرضى العبد عن ربه سبحانه وتعالى، فيرضى عنه لكونه خالقًا له، ويرضى عنه لكونه متصفًا بنعوت الجلال والجمال الكاملة التي لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه، ويرضى عنه؛ لأنه حقيقٌ بالعبادة وحده لا شريك له سبحانه وتعالى، ويرضى عنه لأنَّه المُقدر للأشياء بحكمته، وأنَّ تقديره تقديرٌ حكيم يتضمن غاية العدل فلا ظُلم فيه ولا عبث، أمَّا المقدور الشيء الذي قدره الله سبحانه وتعالى فهذا الرضا به إن كان في غير ما حرم الله سبحانه وتعالى فإنَّه يُستحبُ الرضا به ولا يجب، هذا هو الصحيح من كلام أهل العلم.

الصبر على هذا الذي قدره الله ﷻ هذا قدْرٌ واجب، أما الرضا بهذا المقدور فالصحيح من كلام أهل العلم أنه مُستحب لا واجب.

إذن: النظر في مسألة الرضا بالقدر يُلاحظ فيه أمران، وهذا هو التحقيق في هذا المقام: **هل الرضا بالقدر واجب أو ليس بواجب؟ الصواب أن يُقال**: الرضا عن فعل الله ﷻ الذي هو تقديره هذا واجب، أما الرضا عن الشيء الذي قدره الله وخلقه، فهذا إن كان معصية فإنه لا يجوز الرضا به، وأما إن كان غير معصية فإنَّ الصواب أنه يُستحب الرضا به ولا يجب.

الأمر الخامس: قال: (**والتسليم لحكمه**) يجب على العبد أن يُسلِّمَ لله ﷻ تسليمًا تامًا لحكمه تبارك وتعالى.

وحُكم الله سبحانه **نوعان**:

النوع الأول: حُكمٌ شرعي.

والنوع الثاني: حُكمٌ قدري.

وكلاهما مما يجبُ على العبد أن يُسلم به له تبارك وتعالى، فيتركَ التسخط والمعاندة ويُذعن ويَثق بحكم الله سبحانه وتعالى الذي حكمه شرعًا كان أو قدَرًا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تعالى لعباده، والتَّأَلُّهَ من عباده له سبحانه، كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه ﷻ.

ﻮﻭ◊ﻮﻭ

قال الشَّارح وفَّقه الله:

إذا عرفت ما سبق من هذين الشقين العظيمين اللذين بهما نهض الإيمان:

المعرفةُ والإثبات، والقصدُ والطلب.

الربوبية، والإلوهية.

قال: (**فاعلم أنَّ الربوبية منه تعالى لعباده، والتَّأَلُّهَ**) يعني: التعبد (**من عبادِه لَهُ سبحانه**) وهذا صحيح، **ولذا عرّف بعض أهل العلم توحيد الربوبية: بأنه توحيد الله بأفعاله، وأما توحيد الإلهية: فهو توحيد الله بأفعال العباد.**

فالربوبية قائمةٌ به سبحانه وتعالى؛ لأنه الرب جل وعلا، وأما التألُّه والعبادة؛ فإنها فعل العباد هي أقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم التي يتوجهون بها إلى الله سبحانه وتعالى، فهي قائمةٌ بهم متوجهةٌ إليه سبحانه وتعالى.

قال: (**كما أنَّ الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه ﷻ**). وصدق، فبرحمة الله ﷻ خلقهم لعبادته، وبرحمته أعطاهم القلوب والعقول والأسماع والأبصار، ومكّنهم من الهداية، ولم يَحُل بينهم وبين الوصول إلى الحق، وبرحمته أرسل الرسل، وبرحمته أنزل الكتب، وبرحمته أقام الدلائل والبراهين على توحيده والإيمان به حسًا ومعنىً، فكلُّ ذلك من رحمته التي وسعت كل شيء: ﴿رَبَّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن أنفسَ الأعمال وأجلَّها قدرًا توحيد الله تعالى.

ﮋﮋ◈ﮊﮊ

قال الشَّارح وفّقه الله:

وصدق توحيد الله جل وعلا أجلُّ الأمور وأعظمها على الإطلاق التوحيد لله، فكيف لا يكون أعظم الأشياء، فالله أكبرُ من كل شيء، فتوحيده أكبر من كل شيء، والله أعظم من كل شيء، فتوحيده أعظم من كل شيء. توحيد الله هو الذي لأجله خلق الله الخلق، ما خلقك الله إلا لكي توحده: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦] يعني: ليوحدون. التوحيد هو الذي لأجله خلق الله هذه الدنيا، ولأجله خلق الله الجنة والنار، ولأجله شرع الله الشرائع، ولأجله انقسم النَّاس إلى أهل سعادةٍ وإلى أهل شقاوة.

إذن هو أجلُّ الأمور، وهو أعظم الأمور، وهو أوجب الواجبات، وهو أول الأوليات، وإذا كان ذلك كذلك كان تعلمه، وكانت المُدارسةُ فيه أعظمَ أنواع العلوم، وأهمَّ ما يكون من المُدارسة، وهذا مما ينبغي أن نتواصى به، وأن نتعاونَ عليه أن تكونَ الهمَّة مُنْصَرِفة في العلم إلى تعلُّم التوحيد، ولا سيما في هذا العصر، تعلُّم التوحيد أمرٌ مُهم بل واجبٌ في كل زمان، وفي كل مكان، ولكنَّه في هذا العصر الذي نعيشه أوجب وأهم وأعظمُ أهميةً وقدْرًا، وذلك لأنه عصرٌ مليءٌ بالشبهات التي قدح في التوحيد، والتي تشوش على التوحيد، والتي تُشَغِّبُ على التوحيد، وعلى أهل التوحيد، ومتى ما كان الأمر فيه خطرٌ يكتنفه، كانت العناية به أهمَّ وأوجب، ولذا إبراهيم عليه السلام لجأ إلى الله سبحانه بهذا الدعاء العظيم: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: ٣٥] ، ما السبب؟ قال: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ**﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، فالخطر عظيم، وأسباب الإضلال عن هذا التوحيد كثيرة لا سيما في هذا العصر، ولا سيما بعد انتشار هذه الوسائل، أعداء التوحيد يصطادون المسلمين من خلال شباك الشبكة، أو من خلال فضاء الفضائيات، أو من غيرها من الوسائل، فكانَ الاهتمامُ بالتوحيد والعنايةُ به، وتحقيق مسائله،

ومعرفةُ ضده حتى يُجتنب من أهم الأشياء، لو أخطأت في غير التوحيد فالأمر يُرجى أن يكونَ إلى خير، لكنَّك إذا أخطأت في التوحيد لا سيما الأخطاء التي تقدح وتنقض أصله، فالأمر حينئذٍ عظيم، ولذا ينبغي على الإنسان أن يتنبه: ربَّ إنسان يعيش ستين أو سبعين أو ثمانين سنة، كلها يقضيها في طاعة الله في ذكر ودعاء، في صلاة وصيام، في حج وعمرة، ولكنَّه ربما إذا وصل إلى آخر لحظة من حياته؛ لنفرض أن رجلًا عاش هذه الحياة، ثم في آخر دقيقة من حياته دعا غير الله قال: يا سيدي فلان المدد المدد. ومات على هذا ما مصيره يا قوم؟ هذا آخر ما مات عليه، ما مصيره؟ إلى النار، خالدً مُخلدًا فيها عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدْلًا، وكل ما مضى من هذه الأعمال تُصبح هباءً منثورًا.

هذا ما أخبرنا الله ﷻ به: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، إذا كان الله جل وعلا خاطب نبيه ﷺ بهذا الخطاب العظيم فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني من الأنبياء ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] هذا الخطاب يوجه إلى النبي ﷺ الذي هو سيد الخلائق، الذي هو أحب الخلق إلى الله، الذي هو أعظم الناس عبوديةً وتوحيدًا، بل الذي هو معصومٌ وإخوانه من الأنبياء من الشرك، الأنبياء معصومون من الشرك، ومع ذلك يُحذرهم الله ﷻ من الوقوع في الشرك، وأنَّ أعمالهم ستُحبط، فكيف بنا يا معشر المسلمين، إذن هذا الأمر يا إخواني ينبغي أن نتنبه له، وما وقع كثيرٌ من المنتسبين إلى الإسلام في نواقض الإسلام، وفي الشرك بالله جل وعلا إلا لضعف همتهم وعنايتهم بتعلم التوحيد مع الأسف الشديد، فهذا التنبيه من المؤلف رحمه الله تنبيهٌ هو في محله، ألا وهو: (**أنَّ أنفسَ الأعمال وأجلّها قدرًا توحيد الله تعالى**). وهذا الأمر ينبغي أن يكونَ له أثرٌ في واقع الإنسان. إذا كان التوحيد شيئًا نفيسًا إذن حافظ عليه، وضَع الأسباب والأسوار والاحتياطات التي تحوطه وتحفظه، لو كان عندك جوهرةٌ ثمينة اشتريتها بغال الأثمان، فإنك لا يُمكن أن تضعها على قارعة الطريق لتكون نهبًا لكل أحد، توحيد الله أعظم من كل جوهرة على وجه الأرض لذا عليك أن تُحافظ عليه، ومن المحافظة عليه أن تتعلمه، وأن تعرف ضده حتى تجتنبه.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

غير أن التوحيد له قشران:

القشر الأول: أن تقول بلسانك لا إله إلا الله، ويسمى هذا القول توحيدًا، وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارى، وهذا التوحيد يصدر أيضاً من المنافق الذي يُخالف سرُّه جهره.

القشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب على اعتقاده ذلك والتصديق به، وهذا هو توحيد عامة الناس.

࿇

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يقول: (**غير أن التوحيد له قشران**) قوله: (**قشران**) مثنى قِشر، هذه الجملة جاءت في «الإحياء» بنصها يقول الغزالي: «والتوحيد جوهرٌ نفيسٌ له قشران».

والحقيقة أنَّ التعبير بهذين الأمرين اللذين ذكرهما بأنهما قشران تعبيرٌ فيه ما فيه، لأن القِشر عند الناس مُمتهن، ولا قيمة له في الغالب، فالتعبير عن النطق بلا إله إلا الله، وعن التصديق بذلك بأنه قِشر فيه تجوُّزٌ في العبارة، وكان الأولى ألا يكون ذلك كذلك، إنما يُقال: توحيد عامة الناس هو الذي يجب أن يجتمع فيه هذان الأمران. أما التعبير بالقشر، فالحقيقة أنه كان ينبغي ألا يكون.

مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنَّ الناس في التوحيد على طبقات، وعلى درجات، قسمهم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **إلى هذين القسمين:**

القسم الأول: توحيد عامة الناس.

القسم الثاني: توحيد الصديقين.

أما توحيد العامة: فهو الذي اجتمع فيه هذان الأمران اللذان ذكرهما.

قال: أولًا: (**أن تقول بلسانك لا إله إلا الله، ويسمى هذا القول توحيدًا**) ولاشك أنَّ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح، فلا إله إلا الله توحيد، ولذا في «الصحيحين» من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله**». جاء في رواية عند مسلم: «**على أن يُوحَّد الله**» إذن لا إله إلا الله توحيد. كذلك في حديث ابن عباس في «الصحيحين» لمَّا بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله».

وجاء في رواية أيضًا في «الصحيحين» قال: «**إلى أن يوحدوا الله**» إذن شهادة أن لا إله إلا الله توحيد، وهذا القدْرُ متفقٌ عليه بين المسلمين، بل هو من المعلوم من الإسلام بالضرورة، فإنه لا يُمكن أن يكون توحيد، ولا إيمان ولا إسلام إلا لمن جاء بلا إله إلا الله لابد من أن ينطق بها مع القُدرة على النطق.

أما من كان غير قادرٍ على النطق فإنه يسقط عنه واجب النطق، ويبقى عليه واجب الاعتقاد.

أما القادر على النطق: فإنه يجب عليه أن يتلفظ بلا إله إلا الله، فلو قدرنا إنسانًا يقول: أنا هذه الكلمة لا أريد أن أنطق بها، لكن في قلبي معتقد بها، ولكن لا يُمكن أن أتلفظ بها ما رأيكم؟ ليس بمسلم قطعًا بالإجماع: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**». **إذن** لابد من النطق بلا إله إلا الله، وهذا هو الذي يدخل به الإنسان في الإسلام مفتاح الإسلام هو هذه الشهادة الشهادة بلا إله إلا الله، ولكن انتبه ليست لا إله إلا الله كلمة تُقال باللسان فحسب، وإلا لو كان الأمر كذلك لكان المنافقون مسلمين؛ لأنهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله كما ذكر الشيخ هاهنا قال: (**وهذا التوحيد يصدر أيضًا من المنافق الذي يُخالف سره جهره**) ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ**﴾ [المنافقون:١] والشهادة بأنَّ محمدًا رسول الله قرينةُ الشهادة بلا إله إلا الله، ولا تُغني إحداهما عن الأخرى: ﴿**قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [المنافقون:١] . إذن لا تنفعهم لا إله إلا الله التي كانوا يلهجون بها، بل هم في الدرك الأسفل من النار.

إذن لا إله إلا الله نُطقًا لا تكفي، إنما هي كلمة لها مُقتضى كلمة لها لوازم، فمن لم يأت بها المقتضى وهذه اللوازم؛ فإنها لا تنفعه لا إله إلا الله. قيل للحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: يقول ناسٌ: إنَّ من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، قال: من قال لا إله إلا الله وأدّى حقها وفرضها دخل الجنة. قيل لوهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ يقولون: إن لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: نعم ولكن لكل مفتاح أسنان، فإذا أتيت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لم يُفتح لك.

هذه اللوازم والمقتضيَات للانتفاع بلا إله إلا الله تشمل:

أولًا: فعلًا -يعني أمرًا وجوديًا.

ثانيًا: كفًّا.

أما الفعل فيشتمل على:

أولًا: فعل باطن.

ثانيًا: فعل ظاهر.

أما الفعل الباطن؛ فإنه يشتملُ على أمرين:

الأمر الأول: على الإتيان بشروط لا إله إلا الله. يعني أن تقوم بقلبك، وأن تعتقدها، وهذه الشروط جمعها أهل العلم باستقراء الكتاب والسنة فبلغت سبعة شروط:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقك مَعْ　　　محبةٍ وانقيادٍ والقَبول لها

هذه الشروط السبعة لابد من أن تقوم بقلب الموحد حتى ينتفع بلا إله إلا الله.

إذن هي شروطٌ للانتفاع بلا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله ولم يأتِ بهذه الشروط، أو لم يأتِ بواحدٍ منها، فإنه لا تنفعه لا إله إلا الله.

الأمر الثاني: أن يؤمن بأركان الإيمان الستة، وبكلِّ ما أخبر به النبي ﷺ، لابد أن يحصل منه إيمانٌ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر.

ثم أن يؤمن بكل كلمة، بل كل حرف بلغه وثبت عنده عن النبي ﷺ، فمن لم يُصدق النبي ﷺ في حديثٍ واحد، بل في كلمة واحدة، وكذبه فيها عليه الصلاة والسلام، فإنه لا ينتفع بلا إله إلا الله بل هو كافرٌ بإجماع المسلمين.

إذن هذا هو الفعل الباطن الذي عليه أن يأتي به.

أما الفعل الظاهر: فلابد أن تنبعث جوارحه بطاعة الله ﷻ في الجملة، وذلك الامتناع أن يكون هناك إيمانٌ في القلب لا يتبعه حركة البدن يمتنع: «**ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

ولذا المُتقرر عند أهل السنة والجماعة: أنَّه لا ينفع إسلام إلا بقدرٍ من الإيمان يُصححه كما أنه لا ينفع إيمان إلا بقدرٍ من الإسلام يُصححه، ولأجل هذا فقد اتفق أهل السنة على أنَّ الإيمان لا يكون إلا باجتماع هذه الأمور الثلاثة: أن يكون هناك قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح.

وهذا معلومٌ بوضوح في أدلة الكتاب والسنة، الله جل وعلا إنما أرسل الرسل لأجل أن يُطاع سبحانه وتعالى بإذنه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾ [النساء:٦٤] فمن قال: أنا آمنت بلساني وصدقت

واعتقدتُ بقلبي ثم جلس، ولم يفعل لله ﷻ طاعةً ببدنه البتة، فأيُّ إيمانٍ هذا عنده، بل هذا هو حقيقة التولي المُكفِّر: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ قال الله: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧] .يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «هؤلاء أتوا بالقول، ولكنهم ما أتوا بالطاعة، فنفى الله ﷻ عنهم الإيمان وهذا هو حال المنافقين».

أما الكف قلنا: إن المقتضى واللازم لقول: لا إله إلا الله فعلٌ وكف.

أما الكف: يعني أن يترك الإنسان ويتجنب. فالمطلوب أن يتجنب نواقض التوحيد يعني الأمور التي إذا قامت بالإنسان انتقض عليه توحيده وزال؛ كنواقض الطهارة، لو تطهر الإنسان أحسن طهارة، ثم أتى بناقضٍ من نواقض الطهارة؛ كبول أو غائط، فإنه لا تنفعه الطهارة انتقضت عليه وأصبحت كلاشيء، أصبحت عدم الآن.

كذلك التوحيد له نواقض، **هذه النواقض تنقسم إلى: قول، وفعل، واعتقاد، وشك**، جميع النواقض وهي كثيرة حتى قال بعض أهل العلم: إنها تبلغ نحو أربعمائة ناقض، ترجع إلى هذه الأقسام الأربعة: قول -مُخرج من التوحيد- واعتقاد، وفعل، وشك.

هذه الأمور الأربعة إليها ترجع نواقض الإسلام، وأشهرها وأكثرها وقوعًا -عافاني الله وإياكم من ذلك- نواقض الإسلام العشرة المعروفة:

شركٌ دعاء ترك إكفارٍ وإعراضٌ ... سحرٌ مظاهرةٌ تفضيلُ بغضاء

كذا اعتقاد خروج المرء عن سنن ... هُزؤٌ وهذه لعقد المرء إقصاءُ

فهذه النواقض العشرة هذه سيأتي إن شاء الله فرصة للحديث عنها بالتفصيل إن شاء الله.

إذن من أتى بهذا التوحيد قال: لا إله إلا الله وصاحبَ ذلك -ما ذكرته من- لازم النطق بلا إله إلا الله من الفعل الباطن والظاهر، والكف عن نواقض التوحيد فإن هذا قد أتى بما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنه توحيد عامة الناس. مُراده أنه أصل التوحيد، لكن هناك قدرٌ آخر هو كمالُ التوحيد سيأتي الحديث عنه.

أصل التوحيد يُنجي برحمة الله ﷻ من الخلود في النار، وكمال التوحيد يُنجي من دخول النار، أهل أصل التوحيد يشملهم وصف أهل الوعيد الذين هم تحت مشيئة الله جل وعلا إن شاء عذبهم وكان عذابهم عذابًا مؤقتًا، وإن شاء عفا عنهم من أول وهلة، وأدخلهم الجنة.

أما أهل كمال التوحيد فهُم أهل الوعد، فإنَّهم موعودون بأن الله جل وعلا لا يُعذبهم، ولا يُعاقبهم، بل هم

إلى الجنة من أول وهلة، ولهم فيها الدرجات العُلى.

هذا هو كمال التوحيد، وهو الذي سيتحدث عنه الشيخ بعد قليل.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولُبابُ التوحيد: أن يَرى الأمور كلها لله تعالى، ثم يَقطع الالتفاف عن الوسائط، وأن يعبده سبحانه عبادةً يفرده بها، ولا يعبد غيره.

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذا الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو: **كمال التوحيد.**

وهو منقسمٌ عند أهل العلم إلى قسمين:

القسم الأول: كمال التوحيد الواجب.

القسم الثاني: كمال التوحيد المستحب.

كمال التوحيد الواجب؛ هو: أن يأتي بأصل التوحيد، ثم يزيد عليه فعل الواجبات والكف عن المحرمات، والمبادرة إلى التوبة النصوح عند التقصير، فلا أحد يكاد يخلو من تقصير في أداء الواجبات والكف عن المحرمات، لكن أهل هذا التوحيد هم مبادرون إلى التوبة إذا زلت بهم القدم مباشرة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠١]. «**والتائب من الذنب كمن لا ذنب له**».

إذن: هؤلاء هم أهل كمال التوحيد الواجب، أتوا بأصل التوحيد السابق، وزادوا عليه بأن فعلوا كل ما أوجب الله عليهم، وكفوا عن كل ما حرم الله عليهم من الكبائر أو من الإصرار على الصغائر، وهذا هو مقتضى توحيد الله ﷻ: ﴿**أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ [فصلت:٦]، توحيدك الله جل وعلا ينبغي أن يتبعه الاستقامة على طاعة الله ﷻ بفعلِ ما أمر والكفِّ ما نهى عنه، من فعل هذا فليبشر بالخير، هو من أهل السعادة، هو من أهل النجاة، هو من أهل التوفيق، قال ﷺ كما أخرج الإمام أحمد بإسنادٍ صحيح قال: «**من عبد الله لا يُشرك به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، واجتنب الكبائر فله الجنة**» أو قال: «دخل الجنة» لاحظ معي أنَّ هذا أتى بأصل التوحيد عبد الله ولم يُشرك به، وزاد على هذا بفعل

الواجبات، وذكر أهمها الصلاة والصيام؛ لأنَّ الزكاة لا تجب على كل أحد، تجب على القادر، وعلى الغني، فاقتصر على الصلاة والصيام، وربما يكون هذا مثالًا لغير ذلك من الواجبات.

قال: «**واجتنب الكبائر**» اجتنب ما حرم الله سبحانه وتعالى، والإصرار على الصغائر يُصيرها كبائر كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «دخل الجنة» وهذا وعد، إذن هؤلاء هم أهل وعد الله سبحانه وتعالى.

ويقدح في كمال التوحيد الواجب ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الشرك الأصغر.

الأمر الثاني: البدع.

الأمر الثالث: الكبائر أو الإصرار على الصغائر.

أما الصغائر التي تكون على نُدرة، ولا إصرار فيها فإنها لا يكاد يخلو منها أحد، ولا تقدح في كمال التوحيد الواجب، لكن المُهم ألا يقع في كبيرة، ولا يُدْمِنَ على صغيرة، من أتى هذا فقد أتى بكمال التوحيد الواجب.

أما كمال التوحيد المستحب، فأشار إلى أنَّه: (**أن يَرى الأمور كلها لله تعالى، ثم يَقطع الالتفاف عن الوسائط، وأن يعبده سبحانه عبادةً يفرده بها، ولا يعبد غيره**).

كمالُ التوحيد المُستحب: درجةٌ سامية رفيعة لا يصلُ إليها إلا الأفراد، ونستغفر الله من أن نتحدث عن شيء ما ذُقناه ولا شممنا له رائحة، لكن ما ذكر العلماء نذكره.

كمال التوحيد المستحب يعني: انجذاب الروح إلى الله سبحانه وتعالى محبةً وتعظيمًا ورجاءً، وخوفًا وإخباتًا، وقصدًا.

والله تَعَالَى أَعلَم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولباب التوحيد: أن يرى الأمور كلها من الله تعالى، ثم يقطع الالتفات عن الوسائط، وأن يعبدوه سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره، ويخرج عن هذا التوحيد: اتباع الهوى، فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[الجاثية:٢٣].

وإذا تأملت عرفتَ أن عابد الصنم لم يعبده، إنما عبد هواه، وهو ميلُ نفسه إلى دين آبائه، فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعَبَّرُ عنها بالهوى.

قال الشّارح وفّقه الله:

توقفَ بَنَا الحديث في الدَّرس الماضي عند الكلام عن تحقيق كمال التوحيد، وذُكِر فيه أنَّ **تحقيق كمال التوحيد يكون على درجتين:**

الأولى: هي تحقيق كمال التوحيد الواجب.

والثانية: هي تحقيق كمال التوحيد المستحب.

وبدأ الحديثُ في بيانِ كمال التوحيد المستحب، وذكرتُ أنَّ كمال التوحيد المستحب هو: **انجذابُ القلب إلى الله تعالى محبةً وقصداً وتعظيمًا ومخافة ورجاءً وإخباتًا**، بحيثُ يكون الله جل وعلا أعظم في قلب العبد من كل شيء وأكبر من كل شيء، ومحبته أعظم من كل محبة، فيكون لله وبالله وفي الله، فلا يحبُ إلا ما أحب الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يخافُ إلا من الله، ولا يقْصُد في حوائجه جميعًا إلا الله، فيعطي لله ويمنع لله، ويوالي لله ويعادي لله، ويأمر لله وينهى لله، فيتحقق بقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾[النجم:٤٢]. وهذا القَدْرُ العظيم من تحقيق التوحيد لا يُدرك -كما أسلفت- بالدعاوى، وإنما ببذل الجهد في التجريد والتفريد والتوحيد، ولا شك أنَّ هذا الأمر لا يصل إليه إلا الأفراد من أهل الإيمان، وأعظم الناس تحقيقًا لهذا التوحيد هم أنبياءُ الله ورسله، وأعظمهم تحقيقًا منهم هم أولوا

العزم من الرسل، وأعظم أولئك تحقيقاً له: الخليلان عليهما الصلاة والسلام إبراهيم ومحمدٌ صلى الله عليهما وسلم.

إذن: خلاصةُ هذا القَدْر الشريف من التوحيد أن يتجافى الموحِّد عن أدنى ما يخدشُ كمال الأدب مع مقام الربوبية وكمال التعلق بمقام العبودية، فإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة فإنَّ الله جل وعلا يجازيه على ذلك بأن يوفقه بأن لا تنبعث جوارحه ولا قلبه إلا في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

تأمل ما جاء في «الصحيحين» من الحديث القدسي الذي يقول فيه ربنا جل وعلا: «**وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه**»، لاحظ أنَّ هذا القَدْر فيه تحقيق كمال التوحيد الواجب، ثم ذكر كمال التوحيد المستحب: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**».

فجمع هذا الحديث الشريف بين المقامين: مقام تحقيق كمال التوحيد الواجب، وتحقيق كمال التوحيد المستحب.

والوصول إلى هذه الرتبة يكون:

أولًا: بفعلٍ.

ثانيًا: وكف.

أما الفعل فهو أن يأتي:

أولًا: بأصل التوحيد.

ثانيًا: وكماله الواجب.

ثالثًا: ثم يزيد على هذا فعل المستحبات.

فيفعل المستحبات التي أمر الله بها ورسوله ﷺ، «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**».

أما الكف فإنه:

أولًا: **ترْك المكروهات**.

ثانيًا: والورع عن المشتبهات.

ثالثًا: والتجافي عن فضول المباحات.

فمن كفَّ عن هذه الأمور فإنه يرتقي -بتوفيق الله- إلى هذه الرتبة السامقة.

يدل على هذا ما جاء في الصحيحين من حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وصفهم النبي ﷺ بأربعة أوصاف، قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**»، وهذا الحديث فيه -أيضًا- ذِكْرُ ما يشير إلى المرتبتين: كمال التوحيد الواجب والمستحب، ففيه فِعْل الواجب وترك المحرم، وذلك في قوله: «**يتوكلون**» وفي قوله: «**لا يتطيرون**»، فالتطير محرم، وتركه من كمال التوحيد الواجب.

وأما ترك المكروه فذلك في قوله: «**ولا يسترقون ولا يكتوون**» فالاسترقاء -يعني: طلب الرقية من الغير- والاكتواء هذا مكروه وإن كان جائزاً لكن تركه أفضل، فأهل هذه المرتبة الذين جمعوا بين كمال التوحيد الواجب والمستحب جزاؤهم أنهم يكونون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. نسأل الله أن يحشرنا في زمرتهم.

إذن: هذا هو ما أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يعبِّر عنه بقوله: (**ولبابُ التوحيد**) يعني: هذا الذي وصل إليه الصديقون، وصلوا إلى هذه المرتبة العظيمة من التوحيد.

قال: (**ولُباب التوحيد أن يرى الأمور كلها من الله تعالى**) لأنَّه هو الخالق، وهو المدبر، وهو الذي له هذا الملكوت، فلا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بتقديره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بل وخلْقه.

(**ثم يقطع الالتفات عن الوسائط**) يعني: لا يلتفت إلى الوسائط المخلوقة التي يخلق الله عز وجل بها ويوصل المقادير من خلالها، وذلك بعدَ بذل الأسباب، فليس المقصود هنا أن يترك الإنسان الأسباب جملة، بل فِعْلُ الأسباب من حقيقة التوكل، فالتوكل والاعتماد على الله والثقة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تقتضي ترك الالتفات إلى هذه الوسائط والأسباب بعد فعلها، فيفعلها ثم يتخلى قلبه عن التعلق بها، ويتعلق القلب بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده (**وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره**).

قال: (**ويُخْرِّجُ عن هذا التوحيد: اتباع الهوى**).

الهوى هو: اتباع غير الحق، هذا الوصف الذي يشمل جميع صور الهوى، **وللهوى صور كثيرة يجمعها أنه اتباع غير الحق**، فكل من اتبع غير الحق فإنه يكون متبعًا لهواه، كل من اتبع غير الحق عن قصد، عن إرادة فلا شك أنَّه متبعٌ لهواه، والحق منحصرٌ فيما جاء به نبينا محمدٌ ﷺ عن ربه.

إذن: فما ثَمَّ إلا الاستجابةَ للنبي ﷺ واتباعه أو اتباع الهوى، قال جل وعلا: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ [القصص:٥٠].

وهل اتباع الهوى مذمومٌ أو ممدوح؟ لا شك أنَّه مذموم، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ**﴾ [القصص:٥٠]، لا شك أنَّه أعظم الضلال أن يكون الإنسان متبعًا هواه، متجافيًا عن الاستجابة لرسول الله ﷺ.

والهوى مصيره الهوان، قالوا: إنَّ الهوى هو الهوان، لكن نقصت النون، ذهبت عنه النون، وإلا فالهوى مصيره إلى الهوان. فينبغي على الإنسان أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم، وهو أن تكون همته منصرفةً إلى اتباع الحق، مهما وجده أقبل عليه.

قال: (**فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[الجاثية:٢٣]**)، لا شك أنَّ من حقق التوحيد خَرَجَ من قلبه التألُّه لما سواه من كل وجه، وبالتالي فإنه يكون ممن بَعُد عن الهوى ولم يتبع الهوى.

ولا شك أنَّ اتباع الهوى فيه شوبٌ من التعبد لغير الله عز وجل، وهذا التعبُّد قد يكونُ شركًا أصغر وقد يكون شركًا أكبر، لكن يجمع هذا وذاك أنه اتباعٌ لما يُستحسن ولما يُظنُّ نفعه بغير هدىً من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فهذا حال المشركين، عبدوا ما يظنون أنه ينفعهم ولم يستضيئوا بنور الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، إنَّما ظنوا أنَّ هذه العبادة تنفعهم فضلوا عن الحق، فكانت عبادتهم اتباعًا للهوى.

وهكذا من كان دون ذلك كأهل البدع، فإنهم اتبعوا أهواءهم وفيهم شوبٌ من هذه الآية، ولهم حظٌ ونصيب منها، وذلك لأنهم تعبَّدوا لا بأمر الله ولا بأمر رسوله ﷺ، إنما تعبَّدوا وِفْق أهواءهم، فكان لهم نصيبهم من هذه الآية.

كذلك أهل الكبائر ما استجابوا لأمر الله ولا اتبعوا أمر الله، وبالتالي اتبعوا أهواءهم، فكان لهم -أيضاً- نصيبٌ من هذه الآية، ولكنَّ ذلك التعبُّد الذي وقعوا فيه أخرجهم إلى نوعٍ من الشرك الأصغر لا إلى الشرك الأكبر، أمَّا من عَظُمَ تعلُّقه بغير الله عز وجل حتى صرف له شيئاً من العبادة التي يجب أن تكون خالصة لله فلا شك أنَّه أشرك مع الله الشرك الأكبر، وسيأتي الكلام -إن شاء الله- لاحقاً عن موضوع الشرك الأصغر.

قال: (**وإذا تأملتَ عرفت أن عابد الصنم لم يعبده، إنما عبد هواه**)، الحق أنَّه عبده وعبد هواه معاً، فهو عابدٌ للصنم بوضوح، وعابدٌ لهواه من حيث أنه اتَّبع هواه في عبادة الصنم، فعادت العبادة لهواه، فهو جامعٌ بين **الأمرين**:

عبد الصنم، وعبد هواه وعبد -أيضاً- الشيطان الذي زيَّن له عبادة غير الله عز وجل، ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾[يس:٦٠]، فالشيطان هو السبب الدافع إلى كل عبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (**إنَّما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه، فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعبَّر عنها بالهوى**).

على كل حال، الناس في الجملة في هذا المقام ينقسمون إلى أربعة أقسام:

أما القسم الأول: فهم الذين يعبدون الله ويتبعون أوامر الله عز وجل، وهؤلاء هم المؤمنون المتقون.

القسم الثاني: هم الذين يتبعون أهواءهم واتخذوا أهواءهم إلهاً، فلا يفعلون إلا ما تمليه عليه أهواؤهم، ولا يتركون إلا ما تمليه عليه أهواؤهم، فهم دائماً متبعون لأهوائهم، وهذا حال المشركين والمنافقين، حقيقة حالهم أنهم اتبعوا أهواءهم، ولو أصابوا الحق فإن هذه الإصابة لا تنفعهم؛ لأن هذه الإصابة للحق حصلت اتفاقاً لا قصداً.

ولذا تأمل حال رجلين، أبو طالب وأبو بكر رضي الله عنه، كلاهما نصر النبي ﷺ، لكن نصْرُ أبي طالب ليس كنصر أبي بكر رضي الله عنه، فأبو طالب نصر النبي ﷺ اتباعًا لهواه، لأنه يحبه، فهو ابن أخيه يحبه محبة طبيعية، ولأجل كلام الناس، فهو ابن أخيه ولا يمكن أن يتخلى عنه، فهل نفعته هذه النصرة في إجارته من عذاب الله سبحانه ودخوله الجنة؟ الجواب: لا، هو من أهل النار ولم ينفعه ما فعل مع النبي ﷺ، وإن كان النبي ﷺ قد شفع فيه في تخفيف العذاب فحسب وليس في الإخراج من النار.

ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «**أخف أهل النار عذابًا أبو طالب**» يعني: من المشركين، «**ينتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه**» نسأل الله العافية والسلامة! هذا أخفُّ أهل النار عذابًا. «**ويظن أنه أشدهم عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا**».

أما أبو بكر رضي الله عنه فإنَّه نصر النبي ﷺ اتباعًا لأمر الله لا اتباعًا لهواه، ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى**﴾ [الليل:١٧-٢١].

إذن: فعل ما فعل إرادة لوجه الله سبحانه واتباعًا لأمره فوعده الله جل وعلا أن يرضيه، ﴿**وَلَسَوْفَ يَرْضَى**﴾ [الليل:٢١].

القسم الثالث: هم الذين يتبعون أَمْرَ الله تارة ويتبعون أهواءهم تارة أخرى، وهذا حال فُسَّاق المسلمين، أهل الكبائر هؤلاء العصاة جمعوا بين **الأمرين**:

- تارة يطيعون ويعبدون ويتألهون لله جل وعلا.

- وتارة يتبعون أهواءهم فيقعون في المعاصي، فهؤلاء مسلمون عصاة، هم من أهل الوعيد، في الآخرة تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إن شاء عذَّبهم بقدر ذنوبهم ثم كان مآلهم إلى الجنة، وإن شاء عفا عنهم فأدخلهم الجنة من أول وهلة.

أما القسم الرابع: فهم الذين لم يتبعوا أمر الله ولم يتبعوا أهواءهم، وهذه الحال لا يمكن أن تكون حالاً مستمرة، لكن يمكن أن تكون حالاً لبعض الناس مؤقتة، يعني: في أحوال مؤقتة وفي وقت معين يكون غير

متبعٍ لأمر الله وغير متبعٍ لهواه، وغالباً ما يكون سبب ذلك: نقص العلم، ما يكون عنده علم بأنَّ هذا الفعل مما يحبه الله ومما أمر الله به، فتجد أنه لا يفعله لا اتباعاً للهوى، لكن لنقص علمه أن هذا ليس من أمر الله سبحانه وليس من طاعته، لكنَّها -كما ذكرت لك- حالٌ مؤقتة، لا يمكن أن يكون الإنسان دائماً غير متَّبعٍ لأمر الله ولا متبعٍ لهواه.

إذن: هذه هي الأحوال التي يرجع إليها الناس في هذا المقام.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويخرج عن هذا التوحيد: السخط على الخلق، والالتفات إليهم، فإن من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه. وهذا التوحيد مقام الصديقين.

قال الشارح وفقه الله:

كما سبق، إلى هنا نهاية النقل عن إحياء علوم الدين.

وهذا مضى الحديث فيه، وأن التطلع إلى ما في أيدي الناس رغبةً، أو لومهم على عدم حصول الحظ منهم كل هذا يتنافى مع كمال التوحيد، من حقق التوحيد فإنه لا يلتفت إلى المخلوقين؛ لأن قلبه معلَّقٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، متيقنٌ بقوله جل وعلا: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾[الذاريات:٢٢]، فما أتى فهو من الله، وما لم يأته فالله عز وجل لم يشأ وصوله.

إذن: التعلق أو السخط واللوم كل هذا فعلٌ لا فائدة من ورائه، إنما فيه تضييع العمر وتشتيت الهمة والقلب، وهذا مما يأنف منه أهل تحقيق التوحيد.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا ريب أنَّ توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذه قضية مهمة نبَّه إليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي أنَّ المشركين الأولين الذين بُعِث فيهم النبي ﷺ لمن يكونوا منكرين لربوبية الله عز وجل، بل كانوا مقرين بها في الجملة، في الجملة هم مقرون بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس المقصود أنهم يحققون توحيد الربوبية كحال المسلمين، كلا، بل عندهم نقص، وعندهم تقصير، وعندهم خلل، وعندهم شرك في بعض الربوبية، كما يعبِّر عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عندهم شركٌ في بعض الربوبية، لكن في الجملة يُقِرُّون بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الأصول العامة في باب الربوبية يُقِرُّون بها، يُقِرُّون أنَّ الله خالقهم، يُقِرُّون أن الله رازقهم، يُقِرُّون أن الله يدبِّر شؤون هذا العالم، هذا القَدْر لا إشكال فيه عندهم، ومع ذلك لم ينفعهم، هذا القَدْر من الإقرار لم ينفعهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل حكم الله عليهم ورسوله ﷺ بالكفر والخسران وبالخلود في النيران.

فدل هذا على أنَّ توحيد الربوبية وحده لا ينفع، بل لابد أن يُضم إليه توحيدُ العبادة، توحيد الألوهية، توحيد القصد والطلب.

يقول: (**لا ريب أنَّ توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله**)، **وهذا عليه أدلة كثيرة:**

أولاً: الأدلة التي فيها التصريح بهذا الاعتقاد منهم، صرَّحوا بألسنتهم بهذا الأمر، وأخبرنا الله عز وجل بهذا عنهم فقال سبحانه: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ**

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[لقمان:٢٥]، ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾[يونس: ٣١]، ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥].

إذن: هذا القَدْر كانوا مقرين به، وهذا تصريحهم بأنفسهم.

قد يقول قائل: ألا يمكن أن يكونوا كاذبين؟ أخبروا بخلاف اعتقادهم؟

الجواب: أن هذا غير صحيح، بدليل ما سيأتي، الله عز وجل ما أخبر عنهم أنهم كانوا يعتقدون أن مع الله خالقين غيره ولا نهاهم عن هذا الاعتقاد، فدل هذا على أن هذا القَدْر صحيح، وكان هذا هو اعتقادهم.

الأمر الآخر: لو كان هذا الاعتقاد باطلاً لبيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك، الله جل وعلا إذا حكى عنهم قولاً باطلاً غير صحيح فإنه يأتي التعقيب عقيبه بأن هذا باطل.

وتأمل معي –مثلاً– في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]، عللوا فعل الفاحشة، ما هي هذه الفاحشة؟ أنَّهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، إذا لم يكن الرجل منهم من قريش أو ممن والى قريشًا ولم يُعْطِه أحدٌ من قريش أو من والاها ثيابه فإنه يطوف عاريًا، وإن طاف بثيابه وخالف فلابد أن يترك هذه الثياب ويرميها بعد طوافه.

إذن: كانوا يفعلون هذا، يطوفون بالبيت عراة رجالاً ونساءً، هذه فاحشة، وسماها الله عز وجل فاحشة؛ لأنه أمرٌ يفحش في النفوس والعقول السليمة، قبيح.

قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾[الأعراف:٢٨] هذا الأمر الأول، الله عز وجل أقرهم على هذا لأن هذا حق، هم فعلوا ما وجدوا عليه آباءهم، ثم قال: ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[الأعراف:٢٨] هذا صحيح أو غير صحيح؟ غير صحيح، ولذا جاء التعقيب: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٢٨]، فإذا كانوا يقولون قولاً باطلاً فإن الله جل وعلا يبين بطلان قولهم ويكذبهم في قولهم.

فدل هذا على أن الآيات الكثيرة التي جاءت في القرآن وفيها تصريحهم باعتقاد أن الله هو الخالق الرازق أن هذا كان اعتقادهم حقًا ومع ذلك ما نفعهم.

أيضاً من الأدلة التي تدل على أنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية في الجملة: أنهم كانوا يفزعون في الشدائد إلى الله وحده، إذا كانوا في شدة وكرب لا يلجؤون إلا إلى الله وحده، ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[العنكبوت:٦٥] يعني: مخلصين له الدعاء، لكن إذا وصلوا إلى البَر انتهت هذه الكربة قال الله عنهم: ﴿**إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾[العنكبوت:٦٥] رجعوا إلى الشرك.

كونهم لا يلجؤون في حال الشدة والكرب إلا إلى الله جل وعلا وهم يحبون الأصنام، قلوبهم متعلقة بها، بدليل أنهم منذ أن تطأ أقدامهم البَر يرجعون إلى الشرك، قلوبهم معلقة بهذه الأصنام، لكنَّ السؤال: لماذا ما لجأوا في حال الكرب إلى هذه الأصنام؟ الجواب: لأنهم يعتقدون أنها لا تنفع ولا تضر، وأن الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي يدبر الأمر، والذي إليه مقاليد الأمور، والذي يقدر على أن ينقذهم هو الله وحده. فدل هذا على أنهم يُقرون بتوحيد الله عز وجل في الربوبية في الجملة.

الأمر الثالث الذي يدلك على هذا الأمر: أنهم صرحوا بأنفسهم أن هؤلاء المعبودات من دون الله سبحانه لا يعدو أمرهم ولا يعدو اعتقادهم فيهم إلا أنهم شفعاء عند الله ويقرِّبون العابدين إلى الله، قال الله عنهم: ﴿**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ**﴾ [يونس:١٨] يعني: الأصنام، ماذا؟ ﴿**شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**﴾ [يونس:١٨].

وقال الله عنهم أيضاً: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر:٣]، ولو كانوا يعتقدون شيئاً أكثر من هذا من أنهم يخلقون ويرزقون ويعطون ويحيون ويميتون لفعلوا، لقالوا: هذه أصنامنا تفعل كذا وكذا، لكن القَدْر الذي اعتقدوه في هذه الأصنام لا يتجاوز هذا الأمر، ولذا كانت تلبيتهم -كما في حديث ابن عباس في صحيح مسلم- كانت تلبية المشركين إذا حجُّوا: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما مَلك. هذا الشريك صغير ما عنده شيء، لا يملك شيء، أنت المالك له لكنَّه مجرد موصل لنا إليك، يقربنا إليك زلفى، لا يتجاوز الأمر ذلك.

فهذا دليل على أنهم كانوا يقرون بتوحيد الربوبية لله جل وعلا في الجملة.

أضف إلى هذا أمراً رابعاً وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[يوسف:١٠٦] فسر هذا ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «**من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلقهم ومن**

خلق السماوات والأرض والجبال؟ قالوا: الله، وهم يشركون»، فدل هذا على أن الله جل وعلا أثبت لهم هذا الإيمان بربوبيته، لكنه ما نفعهم لأنهم كانوا يشركون.

الأمر الخامس: أنك لو تتبعت القرآن لوجدت أن الله جل وعلا إذا خاطبهم أمراً أو نهياً وجدت ذلك متعلقاً بالعبادة وإفراد الله عز وجل بها، لا تجد أنَّ الله جل وعلا يأمرهم بأن يؤمنوا بأن الله خالقهم، ولا تجد أنه ينهاهم عن أن يتخذوا مع الله عز وجل خالقين، لكنك تجد الأمر متعلقاً بالعبادة، قال جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾[البقرة:٢١]، ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:٢٢].

إذن: دار الخلل عندهم على قضية الألوهية.

هذا الأمر ينبغي أن نتنبه له يا إخوان، لأن من أهل البدع والضلال في هذا الزمان من يقول: خلل المشركين الأولين، خلل أبي جهل وأبي لهب وأضرابهما إنما هو في كونهم اعتقدوا مع الله عز وجل خالقاً غيره ورازقاً غيره لا في قضية العبادة فقط، يعني لمجرد فقط أنهم أصبحوا ينادون اللات ومناة ويدعونها من دون الله صاروا مشركين ودخلوا النار؟ لا، القضية إنما تعلقت بقضية الربوبية. فلا شك أن هذا القول باطل ومصادم للنصوص الصريحة القطعية. وتدري لماذا يقولون هذا؟ ليسوغوا حال المشركين المعاصرين، وبالتالي فإن الإنسان إذا دعا غير الله عز وجل أو ذبح لغيره أو نذر لغيره أو خاف خوف السر من غيره.. إلى غير ذلك من أنواع الشرك، عندهم ليس بمشرك إذا كان يعتقد أن الله خالق ورازق ومحيي ومميت، أعط هذا القَدْر من الاعتقاد لربك ثم بعد ذلك افعل ما تشاء، هذه هي عقيدتهم.

ولا شك أن هذا منكر وباطل، ومن فعل هذا لم يكن فرقٌ بينه وبين أبي جهل وأبي لهب، كلهم اشتركوا في اعتقاد أن الله خالقٌ ورازق ولكنهم عبدوا غير الله، توجهوا لغير الله عز وجل بالعبادة، بل -مع الأسف الشديد- المشركون المعاصرون أغلظ شركاً من المشركين الأولين، وهذا أمر يشهد به الواقع ولا ينكره عاقل.

تأمل في حال الأولين وقد سمعت ما كانوا عليه إذا كانوا في كرب وشدة لجأوا إلى الله وما أصبحت قلوبهم تلتفت إلى هذه المخلوقات، اضمحل قدرها في نفوسهم، بعكس المشركين المعاصرين، أشد ما

يكونون شركًا في حال الكُربة والشدة، سبحان الله العظيم! عكس القضية تمامًا، ولذا ذكرت لكم بعض كلامهم منثوراً ومنظومًا في بعض الدروس الماضية، قارن بين هذه الحال وحال الذين قالوا: القضية فقط شفاعة، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨] فقط ما في شيء آخر.

حينما يقول قائلهم:

رحماك أرجو يا أبا الفتيان.

يخاطب مقبوراً في قبره، ولي يدَّعيه وإلهًا يعبده من دون الله، يقول:

رحماك أرجو يا أبا الفتيان ... في خطبٍ أهاج القلب من حسراته

ما لي سواك أرومه في كشفه ... أو أرتجي إن ضقت من وثباته

عارٌ عليك إذا تردُّ خويدماً ... قصر الفؤاد عليك في حاجاته

رحماك: (أرجو رحمتك).

هذا الخطاب ما وُجِّه إلى الله، هذا وُجِّه إلى من هو في قبره.

عارٌ عليك إذا تردُّ خويدماً ... قصر الفؤاد عليك في حاجاته

في حال الكرب ما عرف إلا هذا المقبور، بالله أي الحالين أشد: أهؤلاء أم الذين قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[يونس:١٨]، أيهم أشد؟ أيهم أشد: هؤلاء أم الذي يقول مخاطبًا النبي ﷺ:

ما جئت بابك مادحاً بل داعياً

قصيدة مشهورة، وربما لُقِّب صاحبها بأمير الشعراء ويتناقلها الناس انظر ما فيها من الشرك.

ما جئت بابك مادحاً بل داعياً ... ومن المديح تضرُّعٌ ودعاء

أدعوك عن قومي الضعاف لفتنة ... في مثلها يُلقى عليك رجاء

في الفتنة التي نزلت وهذه الذلة وهذا الحال البئيس الذي وصل إليه المسلمون الرجاء مُعلَّق بمن؟ ليس إلى الله وليس معلقاً بالله، إنما بالنبي ﷺ وهو في قبره. أهذه الحال خير أم تلك التي يقول أصحابها: تملكه وما ملك، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[يونس:١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٣].

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر في ردّه على البكري أنه لما هجم التتار على الشام ماذا قال هؤلاء الذين ما قدروا الله حق قدره، ولا آمنوا به الإيمان الذي يجب له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟ قال قائلهم وهو يصيح:

يا خائفين من التتر ... لوذوا بقبر أبي عمر

لوذوا بقبر أبي عمر ... ينجيكم من التتر

أبو عمر الذي في قبره هذا الولي هو الذي بيده الإنقاذ من التتر، سبحان الله! والله يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢].

في كُتيِّب صغير أوصيك بقراءته، لا يأخذ منك إلا وقتًا يسيراً في قراءته ولكنه مفيد، اسمه: كيف نفهم التوحيد؟ ذكر فيه المؤلف حادثة حصلت له وهو شاب صغير، يقول: ركبت البحر في سفر، فهاج بنا البحر وكدنا أن نغرق، فتنادى الناس: ادعوا العيدروس، ادعوا العيدروس. هذا ولي في اليمن يدعونه من دون الله، في هذا الكرب وفي هذه الشدة فتجاوبوا فيما بينهم وتآمروا فيما بينهم أن يدعوا العيدروس وليس رب العيدروس. يقول: فصحت فيهم: ادعوا الله وحده، يقول: فاجتمعوا عليَّ حتى كادوا يرمونني في البحر، حتى حال بيني وبينهم أحد العقلاء فتركوني. كادوا يقتلونه لأنه أمرهم أن يوحدوا الله عز وجل في الدعاء.

فهذا يدلُّك على أن كلام علماء التوحيد حق وصدق، والواقع يشهد له أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من المشركين الأولين، نسأل الله السلامة والعافية!

قال: (**وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، فلما سووا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]**) أي: يسوون غيره به.

المشركون هم الذين عناهم الله عز وجل في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، يحبون أندادهم كحب الله، هذا هو الصحيح في تفسير الآية. فما أخلصوا حبهم

لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل يحبون هذه الآلهة كحبِّ الله عز وجل، لكنَّ أهل الإيمان حبهم لله أعظم من حب المشركين لله؛ لأن قلبهم يتوجه إلى جهة واحدة ولا يتفرق إلى جهات، ولذا أهل التوحيد أهل طمأنينة وأهل سكينة وأهل حبٍّ عظيم لله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنهم لا يحبون غيره، أما المشرك فقلبه موزَّع، في كل وادٍ مُزْعة، مع كل معبود قطعة، أما أهل التوحيد فقلبهم ليس فيه إلا معبودٌ واحد، إليه يتوجهون، وهو الذي يقصدون ويحبون ويخافون ويرجون ويتوكلون وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١] يسوون غيره به.

وأيضًا كما قال الله جل وعلا عنهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]. ومعلومٌ أنَّ هؤلاء المشركين ما سووا آلهتهم ومعبوداتهم بالله في الخلق والملك والرَّزق والإحياء والإماتة أبداً، إنما كانوا يسوونهم مع الله عز وجل ويسوونهم بالله سبحانه في العبادة، فاستحقوا أن يكونوا من أهل النار.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الله تعالى: ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقد علَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده كيف مباينة الشرك في توحيد الإلهية، وأنه تعالى حقيقٌ بإفراده ولياً وحكماً ورباً، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤]، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فلا ولي ولا حكم ولا رب إلا الله، الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته ولو وحَّد ربوبيته.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يقول: (**وقد علم الله سبحانه عباده كيف مباينة الشرك في توحيد الإلهية**) يعني: بيَّن الله سبحانه التوحيد وبين -أيضًا- ما يضادُّه، وهذا به يكتمل الهدى، أن يجتمع في الإنسان معرفة الخير وأيضًا معرفة الشر، وأن يُوفَّق إلى اتباع الخير واجتناب الشر، هذا هو التوفيق أن تعرف الخير، ولكن لا يكفي، بل لابد أن تضم إليه -أيضًا- معرفة الشر، فيوشك من يجهل الشر أن يقع فيه.

(وأنه تعالى حقيقٌ بإفراده وليًا وحكمًا وربًا، ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[الأنعام:١٤]) يعني: مع كونه فاطر السماوات والأرض أتخذ غيره وليًا؟ وليًا يعني: معبوداً، محبوبًا، مقصوداً، فكيف يكون هذا مع اعتقاد أنه هو الذي فطر السماوات والأرض، هو الذي خلق السماوات والأرض، هذا لا يتأتى، إذا كنت أعتقد أن الله هو الخالق إذن يجب أن أعبدَ هذا الخالق.

قال: (﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا**﴾[الأنعام: ١١٤]) الله عز وجل هو الحَكَم وإليه الحُكْم، كما قال النبي ﷺ، وكما قال جل وعلا: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾ [يوسف:٤٠]، فالحكم إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرعًا وقدراً، إذا كان الحكم له سبحانه إذاً يجب أن تكون العبادة له سبحانه.

(**وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾**[الأنعام:١٦٤]) إذا كان ربًا إذاً يجب أن يكون معبوداً، وسيأتي بعد قليل أن الله عز وجل احتج عليهم في قضية الألوهية بإقرارهم في قضية الربوبية.

قال المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتوحيد الربوبية: هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها.

۞

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا في الجُملة، وإن كان الخلل في توحيد الربوبية قد حصل، وسيأتي كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه وقع من بعض الناس، لكن في الجملة فإن الأمم التي أُرسلت إليها الرسل كانت تُقِر بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الجملة.

ولكن الحال في هذا الزمان اختلف، اختلف من جهة المشركين، فإنهم أشركوا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثيراً في ربوبيته كما أنهم أشركوا في ألوهيته، فجعلوا له ولغيره سبحانه الخلق والرَّزق والإحياء والإماتة والنفع والضر، إلى غير ذلك.

كذلك هؤلاء الشُّذَّاذ الذين ثارت ثورتهم في هذا الزمان من الملاحدة، فهؤلاء ما كان لهم ذاك الوجود في السابق، إنما أفراد فقط هم الذين كانوا ينكرون وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكلية، ولكن في هذا الزمان الأمر اختلف، فالتيار الإلحادي وموجة الإلحاد أصبحت عاتية، وأصبح غبار هذا التيار واصلاً إلى ديار المسلمين.

فينبغي الحذر وينبغي التنبُّه، ولذا التركيز فيما أظن وأعتقد أن التركيز في هذا الزمان على توحيد الربوبية ولا سيما في مخاطبة الشباب أمرٌ من الأهمية بمكان، وذلك للحاجة الماسَّة، ربما في السابق ما كان هناك حاجة إلى التركيز والإعادة والتكرار في قضية توحيد الربوبية، لكن هذا العصر الذي نعيش فيه الأمر فيه مختلف، ولذا ما أحسن أن يجتهد الدعاة في هذا الزمان إلى إبراز توحيد الربوبية بالأدلة والبراهين النقلية والعقلية، كالتي أوردها إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأصول الثلاثة؛ هذه الرسالة نحن بحاجة

إليها في هذا الزمان، ويا حبذا لو أن طلاب العلم اجتهدوا في تدريسها وتعليمها، لأنها جمعت بين **الأمرين:**

- بين الدعوة إلى توحيد الربوبية.
- والدعوة إلى توحيد الألوهية.

الناس بحاجة في هذا الزمان إلى هذا، كيف عرفت ربك؟ بآياته ومخلوقاته، وبدأ يفيض رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الأمر، فالناس بحاجة إلى التركيز على مثل هذه الرسالة وأخواتها من كتب أهل العلم التي اعتنت بهذه القضية.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتوحيد الألوهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين، ولهذا كانت كلمة الإسلام: لا إله إلا الله، فلو قال: لا رب إلا الله لما أجزأه عند المحققين.

ﭑﭑ◊ﭑﭑ

قال الشّارح وفّقه الله:

هذه كلمة حسنة من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: (**توحيد الألوهية مَفْرِقُ الطرق بين المؤمنين والمشركين**)، هو الذي كان فيه الخصومة بين الأنبياء وأتباعهم مع المشركين، ما كانت تدور على قضية الربوبية، بل كانت تدور على قضية الألوهية كما سبق، ولذا لسان مقال وحال الأنبياء جميعاً: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

ونبَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الكلمة التي يدخل بها الإنسانُ الإسلام ويدخل بها الجنة (لا إله إلا الله) فلو قال: (لا رب إلا الله) ما نفعته، ما دخل بها الإسلام.

أرأيتم لو أن النبي ﷺ جاء إلى كفار قريش وقال لهم: قولوا لا رب إلا الله، ماذا تظنون أن يكون جوابهم؟ سيقولون: حباً وكرامة، نحن نعتقد هذا قبل أن تأتينا، صح وإلا لا؟ لكن لما قال لهم: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» قالوا ماذا؟ ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص:٥]، كيف نترك عبادة اللات والعزى ومناة ونائلة وإساف و.. و.. إلى آخره ونعبد واحداً فقط؟ هذا شيء عجيب.

فدل هذا على أن الخصومة بين النبي ﷺ وهؤلاء إنما كانت في الألوهية، ولذا مفتاح الإسلام إنما هو (لا إله إلا الله) وليس (**لا رب إلا الله**)، ولذا يخطئ كثيراً من يفسر (لا إله إلا الله) بأنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله.

مع الأسف بعض الناس إذا جئته وقلت له: ما معنى لا إله إلا الله؟ أجابك مسرعاً: يعني لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله. هذا القَدْر ما كان يخالف فيه أبو جهل وأبو لهب، إنما (لا إله إلا الله) تعني شيئاً

فوق ذلك، وراء ذلك، هو أنه لا معبودٌ حق إلا الله، (لا إله إلا الله) تدل بدلالة المطابقة على توحيد الألوهية، وتدل بدلالة اللزوم على توحيد الربوبية.

إذن: المعنى الذي دلت عليه هو توحيد الله في عبادته، يعني: البراءة من عبادة كل ما سواه، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف:٢٦-٢٧]، هذه هي كلمة التوحيد.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد.

قال الشّارح وفّقه الله:

بعد توحيد الربوبية.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا كان أصل (الله) الإله، كما هو قول سيبويه، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذَّ منهم.

قال الشارح وفقه الله:

هذا هو الصحيح وعليه أكثر العلماء المحققين: أن اسم الجلالة (الله) أصله **(الإله)** يعني: المعبود، ثم حُذِفت الهمزة وصار الإدغام، فصارت الكلمة **(الله)**، فدل هذا على أن معنى **(الله)** يعني: المعبود المألوه الذي يُتوجَّه له بالعبادة، هذا هو معنى اسم الجلالة هذا الاسم العظيم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبهذا الاعتبار الذي قررنا به الإله وأنه المحبوب، لاجتماع صفات الكمال فيه، كان الله: هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو الذي ينكره المشركون، ويحتج الربُّ سبحانه عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يقول عن هذا الاسم العظيم (الله) إنه الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا. لا شك، هذا الاسم العظيم هو أعظم الأسماء وأحسن الأسماء، وكلها حسنى، لكن بعضها أبلغ من بعض، واسم الجلالة (الله) أحسنها وأعظمها وأجمعها لنعوت الجلال والجمال والكمال، ولذا جميع الأسماء الحسنى -كما سيأتي- تُضاف إليه ولا يُضاف هو إليها، وتُعرَّف به ولا يُعرَّف بها، وذلك لأنه أعظم ما يكون، فهو الإله المعبود المحبوب المقصود المعظَّم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المتصف بصفات الكمال.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويحتج الرب سبحانه عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٥٩ -٦٠].

وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجُمَل قال عقيبها: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾؟، فأبان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقفون في إثبات توحيد الإلهية لا الربوبية، على أن منهم من أشرك في الربوبية كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

وبالجملة: فهو تعالى يحتج على منكري الإلهية بإثباتهم الربوبية.

ﮋﮋ♦ﮊﮊ

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذه قاعدة دل عليها استقراء القرآن، فجُلُّ آيات القرآن التي فيها إثبات الربوبية لله جل وعلا إنما سيقت لأجل إثبات الألوهية، فكان ربنا جل وعلا يحتج على المشركين بإقرارهم بربوبيته على ما أنكروه وهو عبادته وحده لا شريك له.

ومن أوضح تلك الأدلة: الآيات العظيمة في سورة النمل، وهي التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو ساق بعضها هنا، ووجه الاستدلال بها بيِّنٌ واضح.

لاحظ أنه تعالى يقول: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النمل:٦٠] لاحظ أن هذا الاستفهام استفهام تقريري؛ لأنهم كانوا يُقِرُّون بذلك، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ هذا أمر واضح بالنسبة لهم، لكن الاستفهام الذي في ختام الآية: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ [النمل:٦٠] استفهام إنكاري يتضمن التوبيخ لهم، ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ ويحكم وأنتم تعتقدون هذا؟ كيف تجعلون مع الله معبوداً وأنتم تقرون بما سبق أن الله خلق السماوات وخلق الأرض، وهو الذي يجيب المضطر، وهو الذي أنزل من السماء ماءً.. إلى آخر ما بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات.

فهذا دليلٌ واضح وقاطع على أنهم كانوا يقرون بربوبيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لكنهم يشركون في ألوهيته، وهذا منافٍ للعقل، إذا كان الله يرزقك ويخلقك ويحييك ويميتك إذن اعبده، كيف تعبد غيره؟ عَجَب، حال بني آدم عَجَب، الله يخلق وهم يعبدون غيره، والله يرزق وهم يشكرون سواه، خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد، يتحبب إليهم بالنعم ويتبغضون إليه بالمعاصي، حالٌ عجيبة من هؤلاء المشركين مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا الذي ذكره المؤلف دلت عليه آياتٌ كثيرة، ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾[الصافات:٤]، كأن قائلاً يقول: ولم يا رب إله واحد فقط؟ كان الجواب والحجة: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾[الصافات:٥]، لأنه رب السماوات والأرض وحده يجب أن يكون المعبود وحده.

قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام :١٠٢] ماذا النتيجة التلقائية الضرورية؟ ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾[الأنعام :١٠٢]، إذا كان هو الذي خلقكم إذن يجب أن يكون هو المعبود وحده.

ومن أوضح تلك الأدلة -أيضًا- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة :٢١] لم؟ شوف التعليل: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾[البقرة :٢٢] ثم قال: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢] أن الله هو فعل ما سبق، الله هو الذي فعل ما سبق، إذاً كيف تتخذون معه أنداداً تعبدونهم كما تعبدون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟

أيضاً من المسالك التي احتج الله عز وجل عليهم بها وهو مسلَكٌ في غاية ما يكون من الحُسن والحكمة: أن الله يستدل عليهم بنقص هذه المعبودات وكماله هو وحده سبحانه لا شريك له، هذه معبوداتٌ ناقصة فكيف تعبدونها من دون الله؟ يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾[النحل:٧٣]، ما يرزقون ولا يستطيعون أصلاً أن يرزقوا، فهذا أمر مخالف للعقل، الذي يرزقك هو الذي تعبده.

يقول تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]، إذن انتهى، عبوديتهم باطلة، يأكلان الطعام إذن هما محتاجان، والمحتاج لا يجوز أن يُعبد، إنما يُعبد من هو كامل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، إذن هذا دليل على أن هؤلاء ناقصين.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والملك هو الآمر الناهي الذي لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيّته ويتركهم سدى معطلين لا يُؤمرون ولا يُنهون، ولا يُثابون ولا يعاقبون، فإن الملك هو الآمر الناهي، المعطي المانع، الضار النافع، المثيب المعاقب.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن بيَّن أن الله جل وعلا احتج على المشركين في إثباتهم الربوبية على ما أنكروا وهو الألوهية؛ انتقل إلى أنَّ الله جل وعلا هو المَلِك الذي له المُلْك، ﴿**قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ**﴾ [المؤمنون:٨٨]، وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل قال في ركوعه وسجوده: «**سبحان ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة**»، فالله جل وعلا هو المَلِك، والله جل وعلا هو المالك، (مَلِك يوم الدين)، ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة:٤]، وخُصَّت الفاتحة بكونه مالكًا وملكًا ليوم الدين؛ لأنه يتجلى انفراده التام بالمُلك سبحانه تعالى في ذلك اليوم العظيم، في الدنيا ثمة ملوك لكنهم ناقصون عاجزون، مُلْكهم غير تام، مملوكون هم في أنفسهم للملك سبحانه وتعالى، وهؤلاء يضمحل ملكهم وسلطانهم ويبقى المَلِك الواحد العظيم، ولذا يقول سبحانه بعد أن يفني الخلق يوم القيامة: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ**﴾[غافر:١٦] فيجيب نفسه: ﴿**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر:١٦].

قال: (**الملك هو الآمر الناهي الذي لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيته ويتركهم سدى معطلين، لا يُؤمرون ولا يُنهون**) هذا هو الله جل وعلا الذي له المُلْك التام سبحانه وتعالى، قال: (فإن الملك هو الآمر الناهي، المعطي المانع، الضار النافع، المثيب المعاقب) ولا أحد كذلك إلا الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة: الربُّ والملك والإله، فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١] كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يقال: لَمَّا خلقهم هل كلّفهم وأمرهم ونهاهم؟ قيل: نعم، فجاء: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾[الناس:٢]، فأثبت الخلق والأمر ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربا موجدًا، وملكا مكلفاً، فهل يُحب ويُرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر، قيل: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس:٣] أي: مألوههم ومحبوبهم، الذي لا يتوجه العبد المخلوق المكلَّف العابد إلا له، فجاءت الإلهيّة خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذه لفتة لطيفة من المؤلف رحمه الله فيها بيان ما اشتملت عليه سورتا المعوذتين من ثبوت الربوبية والألوهية والأسماء والصفات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا سيما سورة الناس، فإنَّها اشتملت على أنواع التوحيد الثلاثة، فخُتم المصحف بالتذكير بأنواع التوحيد الثلاثة، كما افتُتح المصحف بذلك في سورة الفاتحة.

قال: (**ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة**)، الاستعاذة: طلب العوذ، وهو الالتجاء والاعتصام بعظيم يحوط ويحفظ.

والاستعاذة إنما تكون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله جل وعلا هو المستعاذ والعبد هو المستعيذ، فالله عز وجل يُستعاذ به ويُستعاذ بصفاته «أعوذ برضاك من سخطك»، ويُستعاد بكلماته: «**أعوذ بكلمات الله التامات**».

فجاءت الاستعاذة في سورتي الناس والفلق بهذه الأسماء الثلاثة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس:١-٣].

قال: (**فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١] كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم**) كذلك في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١-٢] ففي ذلك إثبات أنه الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، و(ما) تعم، فعمَّ في هذه الآية الاستعاذة من جميع الشرور التي في خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما ثبت أنه الخالق بقوله: رب الناس (**بقي أن يُقال: لما خلقهم ما الحكمة؟ هل كلفهم بعد ذلك وأمرهم ونهاهم أم كان خلقهم عبثًا؟**) فجاء التنبيه على الحكمة في إثبات أنَّه مَلِك الناس، فإذا كان ملكًا كان آمرًا ناهيًا، وكان مكلِّفًا وكان مثيبًا وكان معاقبًا.

قال: (فأثبت الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربا موجدًا، وملكًا مكلفًا، فهل يُحب ويُرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟) ما هي الثمرة من كل هذا؟ كونه يكلِّف وكونه يأمر وينهى؟ الجواب: لكي يكون المعبود، ولكي يكون المحبوب، ولكي يكون المقصود من عباده، فهذه هي الغاية التي يحبها الله جل وعلا، وهي التي لأجلها خلق الله الخلق، فكل ما كان من خلقه سبحانه وأمره ونهيه وتقديره يرجع إلى هذه الغاية العظمى التي يحبها ولأجلها فعل وخلق وقدَّر سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

قال: (**قيل: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾[الناس:٣] أي: مألوههم ومحبوبهم الذي لا يتوجه العبد المخلوق المكلَّف العابد إلا إليه، فجاءت الإلهيّة خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها**)، وهذا الذي ذُكِر في الدرس الماضي أن توحيد المعرفة والإثبات دليلٌ وسُلَّمٌ إلى توحيد القصد والطلب، ولذا من تأمل نصوص القرآن وجد أن توحيد الربوبية في غالب الآيات إنما سيق لأجل إثبات توحيد الألوهية، وذلك لأن عامة الأمم لم تكن تنكر ربوبية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولأن جاحدها قليل وشاذ في الناس، فناسب أن يُحتج عليهم بالشيء الذي أثبتوه على الشيء الذي أنكروه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهاتان السورتان أعظم عوذة في القرآن، وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك، وحين سُحِر النبي ﷺ وخُيِّل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، وأقام على ذلك أربعين يومًا، كما في الصحيح، وكانت عُقَد السِّحر إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعوِّذتين إحدى عشرة آية، فانحلّت بكلِّ آيةٍ عقدةٍ.

ﮩﮩ◈ﮨﮨ

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يقول: (**وهاتان السورتان أعظم عوذة في القرآن**)، (عوذة) يعني: ما يُعاذ به، يعني: رُقية، أعظم رقية هي هاتان السورتان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

قال: (**هاتان السورتان أعظم عوذة في القرآن**) جاء في مسند أحمد بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال لأحد أصحابه ابن عابس الجهني: «**هل أُخبرك ما أعظم ما تعوذ به المتعوذون؟**» قال، قلت: بلى يا رسول الله. قال: «**قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس**»، فهي أعظم ما تعوَّذ به المتعوِّذ.

كذلك ثبت عند النسائي وغيره أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجان ومن عين الإنسان حتى نزلت المعوذتان، فأخذ بهما وترك ما سوى ذلك ﷺ.

فأحسن وأبلغ ما يكون التعوذ وما تكون الرقية به بسورتي المعوذتين، فإن فيهما جمع الشرور جميعًا، شرور الأجسام وشرور الأرواح، جميع الشرور التي في هذا الكون قد عمَّتها هاتان السورتان بالاستعاذة، فأثرهما عظيم في الرقية بعد وقوع البلاء وقبل وقوع البلاء.

فينبغي على الإنسان أن يحرص على أن يتحصن بهما دائمًا في كل أحواله، وأن يعوِّذ بهما أبناءه ومن تحت يده، فما تعوَّ متعوذٌ وما رقى راقٍ بمثل هاتين السورتين العظيمتين.

قال: (**وحين سُحِر النبي ﷺ وخُيِّل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله**)، نبينا ﷺ بشر كما أنَّ جميع الأنبياء بشر، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ [الكهف:١١٠]، وبالتالي فإنه يجوز عليه ﷺ وعلى الأنبياء ما يجوز على البشر من البلايا والمحن والأمراض، ومن جملة ذلك ما أصاب النبي ﷺ من السحر، فإنه قد ثبت في الصحيحين

أن النبي ﷺ سُحِر، ففي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «**أما علمتِ أن الله أفتاني فيما أصابني؟**» قالت: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**أتاني رجلان**» في خارج «الصحيحين» في بعض الروايات أن ذلك كان في المنام، قال: «**فجلس أحدهما عند رأسي وجلس الآخر عند قدمي، فقال أحدهما للآخر: ما أصابه؟ فقال الآخر: مطبوب**» يعني: مسحور. «**قال: ومن طبَّه؟**» من سحره؟ قال: «**لبيد بن الأعصم**». هذا من بني زُريق حليفٌ لليهود، بني زريق من الأنصار وهو حليفٌ لليهود.

قال: «**وفيم سحره؟ قال: في مُشْطٍ ومشاطة في جُفِّ طلعة نخلة ذكر في بئر ذروان**»، بئر ذروان كانت في ديار بني زُريق الأنصاريين، كانت في جنوب غرب المسجد قريبًا منه، فذهب إليها النبي ﷺ مع بعض أصحابه فرأى ماءها قليلًا مُصفرًا كأن فيه الحناء، والنخل الذي يُستقى منه كأن رؤوسه طلع الشياطين، فالنبي ﷺ نشط بعد ذلك إذ أُنزل عليه هاتان السورتان، نزل عليه جبريل عليه السلام بهاتين السورتين: سورة قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس.

وهذا من جملة ما أصاب النبي ﷺ من الأمراض، وبالتالي فإنه لا يقدح البتة عند المؤمنين به ﷺ في مقام نبوته ورسالته وإبلاغه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو مرضٌ من الأمراض، ولم يتعلق البتة بتبليغه الرسالة أو بالأحكام التي يبلغها عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إنما كان شيئًا أصابه ﷺ عارضٌ في شيءٍ معين، حيث كان يُخيَّل إليه أنه يأتي الشيء ولا يأتيه، وهذا الشيء جاء في بعض الروايات في الصحيحين أنه كان يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله ولم يأتهم. فهذا الذي كان أصابه ﷺ، ولا شك أنه ابتلاء ومحنة عظيمة، حتى إن سفيان بن عيينة الراوي في الصحيح قال: وهذا أعظم ما يكون من السحر أن يُخيَّل إلى الإنسان أنه يأتي أهله وهو لم يأتهم.

الشاهد: أن هذا الأمر استمر بالنبي ﷺ برهة من الزمن ثم إن الله عافاه، وجاء أن نزول سورتي المعوذتين كان بسبب ذلك، بسبب ما أصاب النبي ﷺ من السحر وأنه رُقِي بهما ﷺ فشفاه الله مما أصابه.

قال: (**وأقام على ذلك أربعين يومًا، كما في الصحيح، وكانت عُقَد السِّحر إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعوِّذتين إحدى عشرة آية، فانحلَّت بكلِّ آيةٍ عقدةٍ**) هذا جاء في بعض الروايات عند البيهقي

في الدلائل وعند الطبراني في الكبير وعند غيرهما، وفيه ذِكْرُ قصة طويلة، والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح وفي التلخيص -أيضًا- ضعَّف هذه الرواية، وبعض أهل العلم صححها ومنهم الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السلسلة الصحيحة.

على كل حال، كون سورتي المعوذتين نزلتا بسبب هذا الأمر -يعني: سحر النبي ﷺ-- هذا ثابتٌ لا شك فيه في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، لكن البحث إنما هو في كون النبي ﷺ رُقِي عند كل عقدة من هذه العُقَد بآية من هذه الآيات حتى انحلت جميعًا. هذا الذي فيه البحث عند أهل العلم، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسم الإله، وهو المعبود وحده؛ لاجتماع صفات الكمال فيه، ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل، ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا، المرغوب إليه في أن يعيذ عبده الذي يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربّه.

﴾﴾◊﴿﴿

قال الشَّارح وفَّقه الله:

قال: (**وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن**) يعني: في ابتداء قراءة القرآن (**باسم الإله**) ومراده أن يقول الإنسان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وعلمنا -في درس أمس- أن اسم الجلالة (الله) أصله الإله، فهذا سبب قوله (**باسم الإله وهو المعبود وحده؛ لاجتماع صفات الكمال فيه**)، وقلنا: إنَّ اسم الجلالة (الله) هو الاسم العظيم الذي هو أعظم الأسماء وأجلها وأجمعها لصفات الجلال والجمال والكمال له تبارك وتعالى.

قال: (**ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل، ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا، المرغوب إليه في أن يُعيذ عبده الذي يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربِّه**)، الله جل وعلا أمر عباده أنهم إذا قرؤوا القرآن أن يستعيذوا به من الشيطان الرجيم: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل:٩٨]، والمراد: إذا أردتم قراءة القرآن فاستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، ليس المراد أن الإنسان إذا انتهى من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا وإن كان ذهب إليه بعض أهل العلم أخذًا -فيما قالوا- بظاهر الآية: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ**﴾[النحل:٩٨] يعني: إذا انتهيت فاستعذ، فتكون الاستعاذة من العُجْب بالعمل الصالح، ولكن هذا لا شك أنه ضعيف، والجمهور على أن قوله: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ**﴾ [النحل:٩٨] هو كقوله جل وعلا: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا**﴾[المائدة:٦] فمتى يكون التوضؤ؟ قبل الصلاة أو بعدها؟ قبل الصلاة، والمراد: فإذا أردتم الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم، كذلك: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ**﴾[النحل:٩٨] يعني: إذا أردت أن تقرأ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

والجمهور على استحباب الاستعاذة عند تلاوة القرآن، وهذا هو الصحيح.

وذهب بعض أهل العلم إلى وجوب ذلك، منهم عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللَّهُ أخذًا بظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾[النحل:٩٨] والأمر يقتضي الوجوب.

وبعض أهل العلم نحا إلى أن الوجوب خاصٌّ به ﷺ وليس لأمته. والصواب ما عليه جمهور أهل العلم.

وإنما شُرِعت الاستعاذة قبل تلاوة القرآن؛ لأنَّ للشيطان حرصًا شديدًا على أن يحول بينك يا عبد الله وبين ما تتلو من كتاب الله، إما بأن يصرفك عن إكمال القراءة، أو بأن يوسوس في قلبك حتى تقرأ ما لا تدري معناه، يصرفك عن التدبر والتأمل في آيات الله، وهذه هي الغاية من قراءة القرآن، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩]، فالشيطان حريص على أن يصرفك عن التدبر، فالجأ إلى الله واعتصم بالله أن يحول بينك وبين هذا الشيطان أن يمنعك أو يلبِّس عليك في قراءتك.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم انسحب التعلق باسم الإله في جميع المواطن الذي يقال فيها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

في جميع المواضع التي يُشرع فيها الاستعاذة، فتجد أن تعلق الاستعاذة كان باسم الله، كما بيَّن ذلك النبي ﷺ مثلًا عند الغضب، فإنَّه يُشرع عند الغضب أن يقول الإنسان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا مما ينبغي أن نتعلمه وأن نعلِّمه، وأن نأخذ أنفسنا به، إذا أخذتك سَوْرة الغضب تذكر هذا الحديث، ففي «الصحيحين» أن رجلين استبَّا عند رسول الله ﷺ فغضب أحدهما واحمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «**أما إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب بها ما يجد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فهذا من السنن التي ينبغي أن نتعلمها وأن نأخذ أنفسنا بها.

فالغضب إنما يُذكيه الشيطان، جمرة في النفس ينفُخ فيها الشيطان، فيستعيذ الإنسان بالله من هذا الشيطان الذي ينفخ في هذه النار التي تتَّقِد في النفس فيذهب عن الإنسان بتوفيق الله ورحمته ما يجد.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم انسحب التعلق باسم الإله في جميع المواطن الذي يقال فيها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لأن اسم الله هو الغاية للأسماء، ولهذا كان كل اسم بعده لا يتعرف إلا به، فنقول: الله هو السلام، المؤمن، المهيمن، فالجلالة تُعرِّف غيرها، وغيرها لا يعرفها.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

اسم الجلالة (الله) يُعرِّف غيره من الأسماء، وأمَّا الأسماء الأخرى فلا تُعرِّفه، فنقول: الله هو السلام ولا نقول السلام هو الله، إذا كان المقام مقام تعريف. وهذا ظاهرٌ في النصوص، ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[الحشر:٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات، ولا يُشكل على هذا مفتتح سورة إبراهيم: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[إبراهيم:١-٢]، هذا لا يشكل على هذه القاعدة، وذلك لأن توجيه هذه الآية أولًا قرأ بعض القُرَّاء ومنهم نافع اسم الجلالة مرفوعًا: (اللهُ الذي له ما في السماوات وما في الأرض) وبالتالي فلا إشكال، هذه جملة مستأنفة. وأما على قراءة الجمهور بالجر فإنها محمولة إما على أن اسم الجلالة بدل وليس صفة، وبالتالي فلا إشكال.

أو يقال -وهو التوجيه الثاني- أن الصفة هاهنا تقدمت على الموصوف، وهذا وإن كان خلاف الغالب، الغالب أن يتقدم الموصوف على الصفة لكن قد يأتي في اللغة تقدم الصفة على الموصوف، يعني كأن الأصل: (إلى صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض العزيز الحميد) لكن قُدِّم هاهنا الصفة على الموصوف، كما تقول: مررت بالكريمِ محمدٍ، أو بالأديبِ عبدِ الله، فهذا لا بأس به من جهة اللغة، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والذين أشركوا به تعالى في الربوبية منهم من أثبت معه خالقًا آخر، وإن لم يقولوا: إنه مكافئ له، وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدرية.

قال الشارح وفّقه الله:

الشرك الذي وقع في الربوبية وإن كان قليلًا بالنسبة إلى الشرك في الألوهية، إلا أنه لم يقل هؤلاء المشركون: إن مع الله عز وجل شريكًا يضاهيه ويساويه، إنما يكون دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله عز وجل لم يقل أحدٌ من هؤلاء المشركين: إنَّ أحدًا يدانيه أو يساويه أو يكافئه أو يناظره في ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإن أشركوا معه شريكًا يعتقدون أنه دونه، سيأتي الكلام عن المشركين في الربوبية بعد قليل.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وربوبيته سبحانه للعالم الربوبيّة الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوالهم، لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال.

قال الشَّارح وفّقه الله:

لا شك، الله رب كل شيء، والله خالق كل شيء، والله رازق كل شيء، والله مدبر كل شيء، فليس ثمة ذات ولا صفة ولا حركة ولا سكنة إلا وهي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، من الله تقديرًا ومنه خلقًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فربوبيته عامة على كل شيء تبارك وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحقيقة قول القدرية المجوسية: أنه تعالى ليس ربًا لأفعال الحيوان ولا تتناولها ربوبيته، إذ كيف يتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه.

❧❧◈☙☙

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يقول: (**حقيقة قول القدرية المجوسية**) القدرية المجوسية هم القدرية النفاة، بخلاف القدرية المجبِّرة الذين هم الجبرية.

هؤلاء القدرية قيل لهم مجوسية؛ لأن قولهم ضارع قول المجوس الذين قالوا بإثبات خالقَين، وهؤلاء قالوا بإثبات خالِقين، هذا هو لازم قولهم، المعتزلة ومن سار في ركابهم هم المقصودون بهذا القول، فإنهم زعموا أن الأفعال خارجةٌ عن مشيئة الله عز وجل وقدرته وخلقه، الله عز وجل خلق كل شيء -نَعَم- إلا أفعال العباد فالله عز وجل لم يخلقها، بل الله عز وجل لم يشأها أصلًا، فإنها صادرة وناشئة بمشيئة العباد المنفصلة والمستقلة، وهم الذين أحدثوها، وهم الذين خلقوها، ولم يكن إحداثها من الله جل وعلا.

ولا شك أنَّ هذا باطل، بل الله عز وجل هو الذي يشاء كل شيء، حتى مشيئتك التي تُضاف إليك الله عز وجل هو الذي شاء أن تشاء، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[الإنسان:٣٠]، فمشيئة العباد راجعة إلى مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كذلك الخلق، فالله خالق كل شيء، قال سبحانه: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٠١] وهذا عمومٌ محفوظ ما خُصَّ منه شيء البتة، فالله خالق كل شيء من الذوات، من الصفات، من الأفعال، كل شيء خلقه الله جل وعلا، حتى فعلك الذي تفعله الله عز وجل هو الذي خلقه، قيامك وقعودك، حركاتك، سكناتك، صلاتك، ذهابك، إيابك، كلها مخلوقة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خلقها الله عز وجل حين قمت بها بواسطتك أنت، وهذا شيءٌ مضى التفصيل فيه في دروس

سابقة وقلنا: إن الله عز وجل قد يخلق بلا واسطة وقد يخلق بواسطة، وإن كان غنيًا عن هذا التوسط، لكنها حكمته العليَّة له تبارك وتعالى، خلق سبحانه آدم بلا واسطة، خلقه خلقًا مباشرًا، وخلق حواء بواسطة آدم، وخلقنا نحن بواسطة الوالدين، فليس الوالدان هما اللذان خلقانا، لكنهما واسطة في الخلق، كما خلق النبات بواسطة التراب والماء والشمس والهواء، خلق المطر بواسطة السحاب، وهكذا..

إذن: الله يخلق بواسطة ويخلق بلا واسطة، ومن ذلك: أفعالنا خلقها الله عز وجل فينا بواسطتنا نحن، فهو سبحانه الذي أعطى القدرة، وهو الذي أعطى المشيئة، ولو شاء أن يمنع ذلك أو أن يذهبه لأذهبه، وهو كذلك الذي أذهب الموانع، ولا يكون الفعل إلا باجتماع هذه الأمور الثلاثة، أيُّ فعل لا يمكن أن يقع إلا باجتماع ثلاثة أمور، إلا باجتماع قدرة تامة، ومشيئة جازمة، وزوال الموانع، والله عز وجل هو الذي كان منه هذه الأمور الثلاثة، فنتيجة ذلك وثمرته بالتالي ستكون مخلوقة لله تبارك وتعالى.

فالله خالق كل شيء جل وعلا، لكن هؤلاء القدرية أنكروا ذلك ونفوه، وبالتالي فأصبحوا كالمجوس، بل لازم قولهم أنهم أسوأ من المجوس، المجوس أثبتوا خالقين اثنين، وهؤلاء أثبتوا خالِقين، كل إنسان عندهم خلق فعل نفسه، وهذا لا شك أنه غاية الضلال، بل الله عز وجل خالق كل شيء.

إذن: تنبه هنا إلى التفريق بين **أمرين**:

الفعل يُنسب إليك فعلًا وكسبًا ويُنسب إلى الله عز وجل خلقًا، يجتمع الأمران في أفعال العباد، فالله عز وجل هو الذي خلق العباد، وإن كان الفعل كسبًا لهم ومباشرًا لهم، وإن كانوا هم مباشرين له، ولذا يُجازى الإنسان على فعله، ﴿**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[النمل:٩٠]، ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾[البقرة:٢٨٦]، فهي التي كسبت وهي التي اكتسبت والله عز وجل خالق كل شيء تبارك وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وشرك الأمم كله نوعان: شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية.

قال الشارح وفقه الله:

بعد أن أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ما يتعلق بالتوحيد وثبوت الربوبية وثبوت الإلهية لله سبحانه؛ عرَّج على ما يتعلق بالشرك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا يؤكد ما ذكرته لك سابقًا، لن تصل إلى حقيقة الهداية حتى يجتمع لك الأمران: أن تعرف الحق تفصيلًا وأن تعرف الباطل تفصيلًا، فتعرف الحق تفصيلًا وتعمل به، وتعرف الباطل تفصيلًا فتجتنبه، وإنما يقع الخلل كثيرًا ممن يعرف الحق ولكنه جاهلٌ بالباطل، ومثل هذا ما أسرع أن يقع في الباطل، كما يُروى عن عمر رضي الله عنه: «إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة فيمن نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية»، ولذلك كان أصحاب النبي ﷺ أقوم الناس بالحق علمًا وعملًا، وذلك لأن علمهم بالحق تفصيلي وعلمهم بالباطل كذلك تفصيلي، فإذا عرفت التوحيد عليك -أيضًا- أن تعرف الشرك حتى تتنبه له وتعرف ذرائعه وتعرف أسبابه وتعرف خطره، فتكون أشد اجتهادًا في البعد عنه.

الشرك بالله جل وعلا هو أن يجعل العبد لله ندًا فيما يختص به ويستحقه من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وبالتالي ينقسم الشرك بحسب موضوعه إلى هذه الأقسام الثلاثة:

إلى شرك في الربوبية.

وإلى شرك في الألوهية.

وإلى شرك في الأسماء والصفات.

وينقسم بحسب حكمه:

إلى شركٍ أكبر مخرج من الملة.

وإلى شرك أصغر لا يخرج من الملة.

هذا الشرك الأصغر سيأتي الحديث عنه لاحقًا إن شاء الله، أما **الشرك الأكبر فلا شك أنه أشنع الأمور وأخطر الأمور وأقبح الأمور على الإطلاق، ويظهر ذلك من خلال وجهين:**

الأول: أن الشرك أعظم الذنوب.

والثاني: أن عقوبته أعظم العقوبات.

فاستحق أن يكون أخطر وأقبح وأشنع شيء على الإطلاق.

أما كونه أعظم الذنوب فذلك من خلال ثلاثة أمور، إذا عرفتها عرفت أنه أخطر الذنوب وأعظمها وأسوؤها.

الأمر الأول: أن الشرك بالله عز وجل يتضمن غاية التنقص لله العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذلك أن في الشرك صرف خالص حق الله عز وجل إلى غيره وعَدْلَ غيره به، وذلك انتقاص لله العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فاستحق الشرك أن يكون أعظم الذنوب، ما أشرك من أشرك إلا لأنه ما قدر الله حق قدره ولا عظَّمه حق تعظيمه.

أرأيت لو أن سلطانًا من سلاطين الدنيا واجهه الإنسان بأن أعطى الحق الذي له لغيره أيضًا، هل يكون هذا إلا من استهانة بهذا السلطان؟ الجواب: نعم، ما فعل ما فعل ولا جاهر هذا السلطان بأن قال: فلان مثلك، أنا أعطيه من الطاعة والانصياع للأمر كما أعطيك. هذا ما فعله إلا لأنه يستهين بمقامه، وإلا فلو كان عظيمًا عنده يهابه ويخافه ما فعل ذلك.

الأمر الثاني: أن الشرك يتضمن غاية المعاندة لله العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذلك أن الشرك به سبحانه مضادٌ للحكمة التي لأجلها خلقه الله، الله خلق هذا المشرك لكي يعبده مخلصًا له الدين، ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦] يعني: ليوحدون. وهذا أتى بضد ذلك، ليس أنه أتى بشيء يسير، بل أتى بعكس ذلك وضده تمامًا، فهذا يتضمن المعاندة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والأمر الثالث: أن الشرك يتضمن غاية الظلم، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فكان الشرك أعظم الظلم، إذ فيه تشبيه الفقير من كل وجه بالغني من كل وجه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، المشرك أتى إلى مخلوق

وإن كان له قَدْر لكنه مخلوق ولكنه عبد، أتى ورفعه إلى مقام العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأيُّ ظلم أعظم من هذا الظلم؟ وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا﴾[النساء:٤٨] ليس إثمًا فقط، بل وعظيم أيضًا، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦] ضلال بعيد عظيم ليس أي ضلال.

هذا به يتضح أن الشرك أعظم الذنوب.

أما كون عقوبته أعظم العقوبات فيظهر -أيضًا - من خلال ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنه الذنب الذي لا يُغفر، من مات عليه فإن الله جل وعلا لا يغفر له، هذا حكم الله، والله عز وجل لا يُبدَّل القول لديه، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:١١٦]، الذنب الوحيد الذي لا يقبل المغفرة هو الشرك به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إلا إذا تاب منه صاحبه، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال: ٣٨]، ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة:٧٤]، أما إذا مات عليه صاحبه فهذا آيسٌ من رحمة الله ومغفرته.

الأمر الثاني: أن الشرك بالله عز وجل موجبٌ للخلود في النار وتحريم الجنة، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[المائدة: ٧٢]، فالذنب الذي يوجب الخلود في النار إنما هو الشرك فحسب، من كان مشركًا بالله عز وجل فإنه سيُعذَّب في النار أبد الآبدين إلى ما لا نهاية.

أما لو لقي الله الإنسان بأي ذنب بل بكل ذنب، بل لو ملأت ذنوبه مثل هذه الأرض جميعًا لكن ليس فيها الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنه لا يخلد في النار، إما أن يعفو الله عنه ابتداءً أو يُعذَّب في النار عذابًا مؤقتًا ثم مآله إلى الجنة.

الأمر الثالث: **أن الشرك هو الذنب الذي يحبط جميع الأعمال**، يبطلها ويجعلها كأن لم تكن، قال جل وعلا: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥]، فالشرك مبطلٌ ومحبطٌ لجميع الأعمال إن مات عليه صاحبه.

فما كان بهذه المثابة كان حريًا أن يُخاف وأن يُحذر منه، وأن يدعو الإنسان ربه جل وعلا أن يجنبه إياه، الهج يا عبد الله بدعاء الله أن يجنبك عبادة الأصنام، ادع الله أن يعيذك من الشرك ما علمت منه وما لم تعلم، واجهد -أيضًا- بتعلم الشرك، ما هو الشرك وما أنواعه وما أسبابه حتى تحذر منه وحتى تنأى عنه، فإن شأن الشرك -والله- عظيم، ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١].

أشار الشيخ هنا إلى أن الشرك يرجع إلى شركٍ في الألوهية وشركٍ في الربوبية وبقي الشرك في الأسماء والصفات، فمن اعتقد أنَّ غير الله يعلم كعلم الله هذا مشركٌ في باب الأسماء والصفات، أو اعتقد أن غير الله يقدر على ما يقدر عليه الله، إلى غير ذلك من صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمن جعل لله مشاركًا ونظيرًا ومثيلًا فيها فإنه مشركٌ في الأسماء والصفات.

يتكلم الشيخ الآن عن الشرك في الإلهية.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فالشرك في الإلهية والعبادة: هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عُبّاد الأصنام، وعبّاد الملائكة، وعُبّاد الجن، وعُبَّاد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات، الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يقول: (**إن الشرك في الألوهية هو الشرك الذي غلب على أهل الإشراك**)، فعامة الشرك الذي وقع من الأمم إنما كان في شرك الألوهية، (**كشرك عُبَّاد الأصنام وعُبَّاد الملائكة وعُبَّاد الجن وعُبَّاد المشايخ والصالحين وغيرهم**)، أشياء كثيرة عُبِدت من دون الله، فالشمس عُبِدت والقمر عُبِد، والكواكب عُبِدت، والحيوانات عُبِدت، فالبقر عُبِد، بل القرود عُبِدت، بل الفروج عُبِدت، انظر إلى هذا المستوى السافل الذي وصل إليه المشركون، ولا حد للهوى، من خرج عن زمام الاتباع فإنه لا حدَّ إلى ما يصل إليه من الهوى، فإنه يبعد بعدًا كثيرًا، يعني من هؤلاء المشركين من عبد الفرج، نسأل الله السلامة والعافية! عجب! كيف يصل إنسان عاقل إلى هذه المستوى وإلى هذا الدرك السافل؟ ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾[المائدة:٤١].

قال: (**الذين قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده**) هذا أعظم أسباب وقوع الشرك في الإلهية: الرغبة في الشفاعة والزلفى والتقريب إلى الله جل وعلا.

قالوا: نحن عصاة، نحن متلوثون بالذنوب، مثلنا ليس أهلًا لأن يدعو الله مباشرة، وأن يتعبد له مباشرة، إنما نجعل بيننا وبين الله واسطة، نحن نتوجه لها بالعبادة وهي ترفع حاجاتنا إلى الله وتقربنا إلى الله، تشفع لنا عند الله، هذا هو السبب الذي لأجله أشرك أكثر الناس لا سيما من المشركين الذين نزل في شأنهم القرآن وبُعِث فيهم النبي ﷺ، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[يونس:١٨].

ظنوا أن شأن الله عز وجل كشأن الخلق، يُشفع عنده ويُقرَّب عنده كما يُشفع للملوك والسلاطين في هذه الدنيا، **الشفاعة التي يعرفها الناس في الدنيا إذا تأملتها وجدتها لا تخرج عن نوعين:**

تجدها شفاعة محبة.

وشفاعة وجاهة.

وإذا عرفت هذا الأمر ظهر لك لماذا كانت الشفاعة في عامة آيات القرآن منفية، بل لا تكاد تجد الإثبات إلا استثناءً، وإلا عامة ما جاء من آيات الشفاعة جاء فيها النفي لأجل أن يزول من النفوس ظَنٌّ أن الشفاعة التي تكون عند الله عز وجل في الآخرة هي هذه الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا.

شفاعة المحبة: أن يشفع الحبيب عند مُحبِّه، كأن تشفع المرأة عند زوجها أو الولد عند والده أو الصديق عند صديقه، فمثل هذا من الشفاعة أولًا يتقدم الشافع بين يدي المشفوع عنده ولو لم يكن هذا المشفوع عنده يريد أن يُشفع عنده، رغمًا عنه يُشفع بإذنه وبدون إذنه.

ثم إن هذا المشفوع عنده يضطر إلى قبول الشفاعة، لأنه لا يصبر على جفاء حبيبه، حتى ولو كان غير مقتنع وغير مريد فإنَّه رغمًا عنه سيخضع إلى رغبة من يحب ويقبل الشفاعة.

أو شفاعة وجاهة، كأن يشفع الوجيه عند سلطان، الوزير أو رئيس الجند أو تاجرٌ عظيم يشفع عند السلطان في شأن من الشؤون، حتى هذا تجد أن هذا السلطان يقبل الشفاعة ولو لم يكن مريدًا، ولو لم يكن مقتنعًا، لأنه لا يريد أن ينفض الناس عنه، الناس لا يعطونه الولاء إلا إذا أرضاهم، فتجد أنه يقبل هذه الشفاعة.

من ظنَّ في الله عز وجل هذا الظن وأنه كهؤلاء الملوك والسلاطين فإنه انتقص الله عز وجل وما قدره حق قدره.

فأولًا: هذا الملك والسلطان ربما يكون جاهلًا بالحال فيحتاج إلى من يوضح له الأمر، وأن هذا الذي سُجِن مثلًا لا يستحق السجن، فنحن نشفع في أن يُخرج، ومن ظن بالله عز وجل هذا الظن فقد قدح فيه سبحانه، قدح في علمه وإحاطته بكل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أو أن هذا المشفوع عنده يحتاج إلى من يحرِّكه، يحتاج إلى من يثير فيه الرحمة، وإلا فهو قبل ذلك غير مريد، يحتاج من يذكره، من يهوِّن عليه الأمر حتى تتحرك فيه الرحمة ويعفو مثلًا عمن شُفِع فيه، ومن ظن هذا في الله عز وجل فقد ظن فيه غير الحق، ظن فيه ظن السوء جل ربنا وتعالى.

أو أن يظن أن هذا الشافع يستطيع أن يؤثر في المشفوع عنده فيغير إرادته، يعني: أن هذا الولي أو أن هذا النبي يمكن أن يؤثر في الله عز وجل، فيجعل الله من كونه غير مريد إلى كونه مريدًا، ويا لله العجب! من يظن هذا في الله العظيم سبحانه! ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧]، العبد عبدٌ، والرب ربٌّ، يجب أن يتذكر الإنسان ذلك.

أو أن يظن هذا الشافع أن المشفوع عنده سيرضخ لإرادة الشافع لأجل منزلته العليَّة عنده ولو كان غير مريد، لكن تحت الضغط -كما يقولون- يقبل ولو كان غير مريد، فمن هذا الذي يظن أن غير الله مهما علت منزلته يمكن أن يرغم الله -تعالى الله عن ذلك- على فعل ما لا يريد!

فإذا تأملت هذا -يا رعاك الله- وجدت أن هذه الشفاعة فيها انتقاصٌ عظيم لله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧]، ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية، ظنوا بالله ظن السوء جل ربنا وتعالى.

ولذا يؤكد ربنا سبحانه بطلان هذا، وأنَّ الشفاعة التي تَثْبُتُ يوم القيامة لها شأنٌ آخر، بل يقول ربنا جل وعلا: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، الشفاعة مِلْكٌ لله عز وجل ابتداءً وانتهاءً، الأمر في الشفاعة إلى الله، ليس إلى الشافع، بل الشافع مجرَّد مأمور، الله يأمره أن يشفع لا كما تظنون يا أيها المشركون، فالله عز وجل أولًا هو الذي حرَّك قلب الشافع لكي يشفع.

والأمر الثاني: هو الذي أذن للشافع أن يشفع بعد أن يخضع لله عز وجل، نبينا ﷺ في الشفاعة العظمى أخبر أنه يستأذن على ربه ويسجد تحت العرش ويفتح الله عز وجل عليه بمحامد لم يكن يحسنها في الدنيا ثم بعد ذلك يأذن الله له أن يشفع.

بل الله عز وجل هو الذي يأمر الشافع أن يشفع، وبالتالي الشافع لا يملك إلا أن يشفع، مأمور يجب عليه أن يطيع، يقول الله عز وجل: «**يا محمد، ارفع رأسك وسل**» فعل أمر، «**تعط، واشفع**» فعل أمر «**تُشفَّع**».

والأمر الرابع: الله هو الذي يتفضل بقبول الشفاعة.

إذن: حقيقة الأمر أن الشفاعة إلى الله من البداية إلى النهاية، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فحقيقة الحال أن الله شفع من نفسه إلى نفسه.

من علم أن الشفاعة هي بهذه المثابة وهذه الحال أيُّ تعلق بعد ذلك يكون له في الشافع؟ لا يبقى له تعلُّقٌ بالشافع، بل يكون قلبه معلقًا بمن بيده الشفاعة، من يملكها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: هذا الأمر ينبغي أن نتنبه له يا إخواني، فشأن الشفاعة -كما ذكرت لكم- شأن عظيم، وكثير من الذين أشركوا إنما أشركوا لأجل هذه القضية لا غير.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده، وتقبِّح أهله، وتنص على أنهم أعداء الله تعالى، وجميع الرسل -صلوات الله عليهم - متفقون على ذلك، من أولهم إلى آخرهم، وما أهلك الله تعالى من أهلك من الأمم إلا بسبب هذا الشرك، ومن أجله.

وأصله: الشرك في محبّة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فأخبر سبحانه وتعالى أنه من أحبَّ مع الله شيئًا غيره كما يحبُّه فقد اتخذ ندًّا من دونه. وهذا على أصح القولين في الآية: أنهم يحبونهم كما يحبون الله.

وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]، والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة، فيسوون بينه وبين غيره في الحب والعبادة. وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧ -٩٨]، ومعلوم قطعًا أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم، فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها له وحده، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأنه سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيءٍ، وهو يجير ولا يجار عليه، وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبينه تعالى في المحبة والعبادة، فمن أحب غير الله تعالى وخافه ورجاه وذل له كما يحب الله تعالى ويخافه ويرجوه؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، فكيف بمن كان غير الله آثر عنده وأحب إليه، وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله؟. فإذا كان المسوّي بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا، فما الظن بهذا؟، فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه مسلم موحد، فهذا أحد أنواع الشرك.

قال الشارح وفقه الله:

الله المستعان! إذا كان من سوَّى بين الله وبين غيره يعني: جعل حق الله عز وجل وحق غيره على قدم المساواة فإنه مشركٌ به سبحانه، ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الشعراء:٩٧-٩٨]، فكيف بمن كانت محبته لغير الله أعظم، واجتهاده في التعبد له أعظم، ودعاءه له أكثر؟! أليس هذا أولى بوصف الشرك؟

أقول: إذا كان هذا -أعني: التسوية بين الله عز وجل وبين غيره شركًا به جل وعلا- فكيف بمن كان هذا العابد المخلوق أعظم في قلبه من المعبود الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. وهذا يقع مع الأسف الشديد من بعض من ينتسب إلى الإسلام، كما ذكرنا في الدرس الماضي أن شركهم أغلظ من شرك الأولين، وهذا دليل على عظمة هذا الذي عبده في قلبه، حتى إنه وقت الشدة يشرك مع الله عز وجل بل لا يدعو الله، كما مر معنا أمثلة في هذا.

ولذا انظر إلى كثير من الناس، هذه القصيدة التي يحفظها كثير من الناس يترنمون بها ويطربون لها، ينشد أحدهم قائلًا مخاطبًا النبي ﷺ:

ما سامني الدهر ضيمًا واستجرت   إلا ونلت جوارًا منه لم يُضم

في وقت الضيم، وقت الكرب والظلم ما عنده لجوء إلى الله، في أي وقت من الزمان إنما يلجأ إلى النبي ﷺ ويجأر إليه لا إلى الله. إنا لله وإنا إليه راجعون!

أبو جهل كان إذا ناله الضيم في الدهر فإنَّه يلجأ إلى الله وحده، ما كان يلجأ إلى مناة واللات، لكن هؤلاء يلجؤون إلى هؤلاء دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أعظم ما يكونون شركًا في الشدة والكربة.

الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر شيئًا عجيبًا في تفسيره في سورة النحل عند آية: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾[النحل:٥٣]، لاحظ تقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص، يعني: كانوا يلجؤون إلى الله لا إلى غيره، هكذا كان المشركون.

ذكر عند تفسير هذه الآية استطرادًا قال: ومما تقشعر منه الجلود وتُصعَّر منه خدود أصحاب الأخدود فضلًا عن المؤمنين باليوم الموعود ما أخبرني به أحد المتشيِّخين حينما قال لي: إياك ثم إياك إذا نزلت بك نازلة أن تستغيث بالله. ارجع إلى التفسير تجد هذه القصة. إياك ثم إياك إذا نزلت بك نازلة أن

تستغيث بالله، فإن الله لا يهمه ما أصابك، ولا يسارع إلى إجابتك. إنا لله وإنا إليه راجعون! هذا ظنُّهم بالله العظيم.

قال: وعليك بالاستغاثة بالأولياء والصالحين، فإنهم يسارعون إلى إجابتك ويهمهم ما نزل بك.

بالله عليكم! شرك مشركي قريش وصل إلى هذا المستوى؟ والله ما وصل. فالشرك شأنه عظيم يا إخواني، وهو في هذا الزمان المتأخر أعظم منه في الزمن المتقدم، وبالتالي فعلى الإنسان أن يحذر وأن يخاف وأن يجأر إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يعيذه وأن يجيره منه.

والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والأدلة الدّالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه تبطل هذا الشرك، وتدحض حجج أهله، وهي أكثر من أن يحيط بها إلا اللّه تعالى، بل كل ما خلقه اللّه تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك كل ما أمر به، فخلْقه وأمره وما فطر عليه عباده وركَّب فيهم من العقول؛ شاهدٌ بأنه اللّه الذي لا إله إلا هو، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو اللّه الحق المبين، تقدس وتعالى.

❊❊❊

قال الشّارح وفّقه الله:

عقَّب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على ما ذكر من حال المشركين الذين سووا بين الله وخلقه في العبادة بأن الأدلة كلها عقلًا ونقلًا شاهدةٌ ببطلان ما هم عليه، وأنَّ ما هم عليه من الشرك مضادٌّ للحق الذي قامت به ولأجله السماوات والأرض.

وأشار رَحِمَهُ اللَّهُ إلى كثرة حجج التوحيد، فكل آيةٍ في القرآن وكل حديث في سنة النبي ﷺ، بل كلُّ شيء، كل مخلوق وكل موجود فهو شاهدٌ على وحدانية الله سبحانه في ربوبيته وفي ألوهيته جل وعلا.

فأدلة التوحيد كثيرة، هي -كما قال أهل العلم- بعدد الأنفاس، كل شيء تراه بعينك أو تحسه بإحدى حواسك فإنه شاهدٌ على وجوده سبحانه، بل على وحدانيته في الربوبية والألوهية، وإنما يدرك هذا ويعلمه من جعل الله عز وجل له نورًا، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[النور:٤٠].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبدًا شاهد

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدل على أنه واحد

قال الشَّارح وفّقه الله:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدل على أنه واحد

ما أحسن هذه الأبيات وما أصدقها! كل شيء فإنه شاهدٌ وآية وبرهان على وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الأبيات عُزِيت إلى أبي نواس وعُزِيت إلى أبي العتاهية، ولعل هذا أقرب، وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: أن أبا نواس مر على أحد الكُتْبِيين فوجد على ظهر كتاب بيتين، الأول والثالث من هذه الأبيات الثلاثة مكتوبة على ظهر أحد الكتب، فقرأها أبو نواس فقال: من كتب هذا؟ فقالوا له: أبو العتاهية. فأنشأ بيتين أو ثلاثة يدلان على هذا المعنى الذي ذكره أبو العتاهية.

وعلى كل حال، هذه الأبيات أبياتٌ صحيحة ومعناها لا يُشك فيه، فكل شيء لله عز وجل فيه آية تدل على أنه واحدٌ جل وعلا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والنوع الثاني من الشرك: الشرك به تعالى في الربوبية، كشرك من جعل معه خالقًا آخر، كالمجوس وغيرهم، الذين يقولون: بأن للعالم ربَّين، أحدهما خالق الخير، ويقولون له بلسان الفارسية: (يزدان)، والآخر: خالق الشر، ويقولون له المجوس بلسانهم: (أهرمن).

ﮋﮋ◊ﮊﮊ

قال الشَّارح وفَّقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى النوع الثاني من أنواع الشرك ألا وهو الشرك في ربوبية الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وحقيقة هذا الشرك هو أن يُجعل مع الله شريكًا فيما يختص به من الربوبية، كأن يُعتقد أن غير الله يخلق، أو أن غير الله يرزق، أو أن غير الله يدبِّر، إلى غير ذلك من أفعال الربوبية التي اختص الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بها.

ثم بدأ في ضرب الأمثلة على هؤلاء المشركين في الربوبية، ذكر منهم المجوس، وهم مشركون في الربوبية لأنهم يعتقدون بوجود خالقين:

الأول: النور، وهو الذي يعبرون عنه بـ(يزدان) بلغتهم باللغة الفارسية، وهو الذي خلق الخير وما إليه.

والخالق الثاني هو الظلمة، وهي التي عبَّروا عنها بـ(أهرمن) بلغتهم، وهي التي خلقت الشر وما إليه.

والمجوس لهم فِرَق كثيرة، ولهم اختلافات فيما بينهم، لكن يجمعهم أنهم يقولون بالشرك في الربوبية، وأيضًا هم عُبَّادٌ للكواكب لا سيما للشمس وللقمر وعُبَّادٌ للنار، فإنهم يعتقدون أنها جوهرٌ لطيف يحجب الإله.

وبينهم اختلافات، بعضهم يفرِّق بين المجوس والثنوية، حيث إن هؤلاء يقولون: إن المجوس يقولون بقدم النور وحدوث الظلمة، الظلمة نشأت عن النور، فهو خالقٌ محدَث خلقه النور، وأما الثنوية فإنهم يعتقدون بأن النور والظلمة كلاهما أزليان.

وعلى كل حال، كلا الطائفتين ترجعان إلى الشرك في الربوبية واعتقاد أن ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موزَّعة بين هذين الخالقين.

وهذه الطائفة ديانتها من الديانات القديمة، ولكنها اضمحلت في العصور المتأخرة، أتباع المجوس في هذا الزمان قليل لا يُقارنون بالديانات الأخرى كالنصرانية والبوذية والهندوكية وغيرها من الديانات، هذه الديانة أتباعها قليل يُعدون بالآلاف، ومنهم الطائفة التي في بعض المناطق تسمى البارسيين، كأن أصلها الفارسيين، البارسيين أو أتباع البارسي، هؤلاء موجودون في القارة الهندية وفي إيران وفي بعض الدول الغربية، هؤلاء يرجعون إلى الزرادشتية، والزرادشتية طائفة من المجوس.

والدارس لهذه الديانة يجد أن بينها وبين الديانة الأصلية للمجوس وهي المذكورة في كتب علماء الفِرَق والملل يجد أنها حصل لها تطور وحصل فيها اختلاف كبير.

المهم أن هؤلاء من المشركين في الربوبية والمعتقدين أن مع الله عز وجل خالقًا غيره، فإن الناظر في صفات (يزدان) التي يذكرونها تشير إلى أنهم يعتقدون أن (يزدان) هو الله، وأما (أهرمن) فالصفات التي يذكرونها يشبه الأمر فيها أن يكون المقصود هو الشيطان، والله المستعان!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس، وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعال، فهو رب كل ما تحته ومدبّره.

قال الشّارح وفّقه الله:

الفلاسفة وما أدراك ما الفلاسفة، البلاء بالفلسفة وأهلها عظيم، وهم مؤثرون على جميع الديانات تقريبًا، ونحن نتحدث هنا عن الفلاسفة اليونان القدماء الذين كانوا قبل ميلاد المسيح بنحو خمسمائة عام، هؤلاء أثّروا تأثيرًا كبيرًا فيمن بعدهم، وابتُلي أتباع هذا الدين الحنيف الإسلام بدخول الآراء الفلسفية على بعض المنتسبين إلى الإسلام فأدى هذا إلى انحرافات عظيمة.

بل لو تأملت المذاهب الكلامية البدعية التي افترقت إليها بعض الطوائف في هذه الأمة لوجدت أن أصل أقوالهم ترجع إلى أقوال الفلاسفة، ولا تكاد أن تخرج عنها لكن مع نوع من التطوير ونوع من التحسين ونون من الأسلمة -إن صحت العبارة-.

الفلسفة هي: البحث عن علل الأشياء ومبادئها. هكذا عرَّفوا الفلسفة، ولها علوم متعددة تتفرع عنها، لكن المهم عندنا هو موقفهم في باب الإلهيات، ما هو موقفهم في هذا الموضوع الذي نتحدث عنه وهو موضوع التوحيد والشرك؟

الفلاسفة في الجملة ينقسمون إلى: فلاسفة ملاحدة، وفلاسفة وجوديين، وفلاسفة مؤلهة.

أما الفلاسفة الملاحدة: فهم الذين يعتقدون أنَّ هذا العالم أصله المادة، وهذه المادة هي الهواء أو الماء أو هما معًا، أو الجوهر الفرد، بمعنى الذرات التي لا تتناهى، فلا تزال يصطدم بعضها ببعض إلى أن تكوَّن هذا العالم.

وهؤلاء يمثلهم جماعة من هؤلاء الفلاسفة كديمقريطس وأضرابه من هؤلاء الملاحدة، ولو تأملت في أقوال الملاحدة المعاصرين لوجدت أن أقوالهم لا تخرج عن قول هؤلاء الفلاسفة الملاحدة.

أما الفلاسفة الوجوديون فهؤلاء أصحاب الفلسفة الرواقية، زنينوار أتباعه وأضرابه، فهؤلاء بنوا على القول السابق أن أصل العالم هو المادة وهي أزلية، ولكن ينبثق أو يشع من كل ذرة في هذا الكون قوة إلهية مبثوثة في جميع ذرات هذا العالم هي الخالق وهي الموجد، وهذا هو القول بوحدة الوجود، وعنه أخذ أهل وحدة الوجود المنتسبين إلى هذا الدين، وهم بعيدون عنه والإسلام منهم براء كابن عربي والحلاَّج وابن الفارض وأمثال هؤلاء، لا يخرج قولهم عن قول هؤلاء الوجوديين، وهم في الحقيقة ملاحدة.

أما الفلاسفة المؤلة: فهم المعنيون هنا فيما أشار إليه المؤلف، وهؤلاء هم الفلاسفة المشهورون: سقراط وتلميذه أفلاطون وتلميذه أرسطو، وأتباع هؤلاء ومن دان بدينهم ممن انتسب إلى الإسلام، هؤلاء لهم خلطٌ عجيب في شأن الموجد والصانع لهذا الكون، وفي سبب وكيفية وجود هذا الكون.

وخلاصة ما يقوله هؤلاء: إن ثمة إلهًا أزليًا قديمًا واحدًا بسيطًا خَيِّرًا عادلًا عاقلًا هو الذي عنه صدر هذا الكون، وقرروا -على حسب ما يزعمون- أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، فكيف وُجِد هذا الكون وهم يرون أنه لا صفة له، وبالتالي فأهل التعطيل في الصفات هذا منشأ قولهم، يعتقدون أن هذا الواحد لا صفة له، لأنه لو كان له صفات فإن هذا يتنافى مع الوحدة، والأصل أنه واحد، وهذا -أيضًا- هو الذي أدى إلى تعطيل من عطَّل من أهل الكلام.

الشاهد أن هؤلاء قالوا: إن هذا الواحد الأزلي -وسموه المبدأ الأول أو العلة الأولى- صدر عنه واحد هو العقل الأول، هذه العقول مثَّلوها بالأفلاك، فالعقل الأول هو الفَلَك الأول، وعنه صدر الفَلَك الثاني، يعني: العقل الثاني، وهكذا إلى العقل العاشر وهو العقل الفعَّال الذي أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، فهذا هو ربُّ كل ما تحته ومدبِّره، يقولون: كل ما تحت القمر فإن العقل الفعَّال الذي صدر عن العقل التاسع الذي صدر عن العقل الثامن.. وهكذا، هذا هو الذي أوجد هذه الكائنات، وله معاونون هم

النفوس الخيِّرة الناطقة ويريدون بها الملائكة، في خلطٍ كثير قاله هؤلاء، وكل ما ذكروه لا يخرج عن كونه تخمينات وحدس وليس عليه دليلٌ واحد يمكن أن يدل عليه، إنما هي أقوال مجردة فقط تصوروها في أذهانهم ودوَّنوها في كتبهم وابتُلي الناس من جميع الأمم بها، والله المستعان!

هؤلاء يعتقدون بأن هذه العقول التي صدرت عقولٌ أزلية قديمة قِدَم المبدأ الأول أو العلة الأولى أو الذي سموه الإله، هو قديم وما صدر عنه وفاض عنه قديمٌ مثله، فهم قائلون بأن أصل العالم قديم، وبالتالي هم مشركون أيضًا، هم مشركون من الجهة الأولى، مشركون في قِدَم الله تبارك وتعالى، فهو لا يتصف بالقِدَم وحده، بل ما صدر عنه قديمٌ مثله.

ثم هم مشركون -أيضًا- في الإيجاد والصنع، وذلك عن طريق اعتقادهم أن الذي خلق هذا العالم وكوَّنه مما هو تحت القمر إنما هو كان العقل الفعَّال، وهذا لا شك أنه شركٌ في ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا شرٌّ من شرك عبّاد الأصنام والمجوس والنّصارى.

قال الشّارح وفّقه الله:

أما عُبَّاد الأصنام مروا معنا وقلنا: إنهم خيرٌ من هؤلاء، فإنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الذي يخلق، وأن الله هو الذي يرزق ويوجد ويحيي ويميت.. إلى آخره، والمجوس مروا معنا، ولا شك أن قولهم -أيضًا- خيرٌ من قول هؤلاء.

وأما النصارى فإنهم -أيضًا- مشركون في الربوبية كما أنهم مشركون في الألوهية، فإنهم يعتقدون أن الإله واحدٌ في ثلاثة وثلاثة في واحد، وهذه عقيدة التثليث التي دخلت على النصارى وأصبحت أصلًا من أصولهم، ولا أصل لها في ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا حتى في هذا الكتاب الذي بين أيديهم، مع تحريفه والزيادة والنقصان فيه على ما أنزل الله عز وجل أيضًا لا وجود لقضية التثليث على ما يعتقدون، إنما أدخلها عليهم شاؤول اليهودي كما هو معروفٌ في كتب أهل العلم.

الشاهد: أن هؤلاء النصارى يعتقدون أن الإله مكوَّنٌ من ثلاثة أشياء، هي ثلاثة أقانيم في ذاتٍ واحدة وذاتٌ واحدة تنفصل إلى ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس، وكُلٌّ له تصرُّفٌ في الخلق، فالأب يوجد ويخلق، والابن هو عيسى عليه السلام فإنه هو الذي يفدي بنفسه وهو الذي يحاسب يوم القيامة، وروح القدس هو الذي ينصر ويعين أتباع المسيح عليه السلام، إلى غير ذلك مما ذكروه من هذا الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهؤلاء -أيضًا- من المشركين في الربوبية والألوهية، لكن لا شك أن شرك الفلاسفة أعظم من شرك هؤلاء، وهي ظلمات بعضها فوق بعض.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو أخبث شرك في العالم، إذ يتضمن من التعطيل وجحد إلهيته سبحانه وربوبيته واستناد الخلق إلى غيره سبحانه ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم.

وشرك القدرية مختصر من هذا، وباب يُدخل منه إليه، ولهذا شبههم الصّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالمجوس، كما ثبت عن ابن عمر وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قال الشّارح وفّقه الله:

مضى الكلام في القدرية ووجه شبههم بالمجوس، فإن المجوس جعلوا الخلق إلى اثنين، وأما هم فجعلوا خالِقين كُثُر، فكل إنسان خلق فِعْل نفسه، فأصبح ثمة خالقين كُثر هم كل أحد، فهو يخلق فعل نفسه، فهذا وجه تسميتهم بأنهم مجوس أو مجوس هذه الأمة، وهذا مما ثبت عن أصحاب النبي ﷺ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعًا: أنهم مجوس هذه الأمة.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا أخرجه أبو داود وغيره مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وحسنه بعض أهل العلم وضعفه كثيرٌ من أهل العلم، لكن الذي لا شك أن هذا ثابتٌ عن أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم.

بقي التنبيه على أن من أظهر أولئك المشركين في ربوبية الله جل وعلا: المشركون المنتسبون إلى هذه الأمة أو كثيرٌ منهم، أعني: من عُبَّاد القبور، فهؤلاء جمعوا بين الشرك في الألوهية والشرك في الربوبية، وشركهم في الربوبية ظاهر لا يحتاج إلى تطويل، فإنهم اعتقدوا في الأولياء والأنبياء الذين يعبدونهم أنهم يقدرون على كل ما يقدر عليه الله عز وجل ويفعلون مثلما يفعل الله عز وجل، فيحيون ويميتون ويرزقون، وهذا كثيرٌ في كلامهم المنثور والمنظوم، تجد من تجد من شيوخ هؤلاء ورؤساء الطرق التي يرجعون إليها من يقول: إن النبي ﷺ يقدر على كل ما يقدر عليه الله عز وجل، أو أن الأولياء والغوث والأقطاب والأوتاد هؤلاء هم الذين يدبِّرون شؤون هذا العالم، هذا شيء مدوَّن في كتبهم وموجود ومبثوث بين الناس.

حتى إنهم يزعمون أن الأقطاب الذين يدور عليهم تدبير هذا العالم أربعة، يجتمعون كل ليلة في غار حراء فيدبِّرون شأن هذا العالم، كل شيء يكون في هذا الكون يجتمعون ويقررون ما سيكون، فلا حركة لمتحرك ولا سكون لساكن إلا بتدبير هؤلاء الأقطاب الأربعة، وهذا شيءٌ ما بلغه المشركون الأولون ولا حتى كانوا قريبين منه.

أين شرك هؤلاء من شرك الذين إنما أرادوا فقط أن يكون أو أن تكون الأصنام شافعة لهم عند الله عز وجل لا أقل ولا أكثر، أما هؤلاء فالأمر في حقهم مختلف، ولذا تجدهم يصدحون وينادون في المهمات والملمات: يا سيدي فلان، المدد المدد، أنا في كرب، أغثني، أنقذني من العدو، افعل بي كذا وكذا.

حتى إنَّ طواغيت هؤلاء الذين يعبدونهم والذين ترشحوا للعبادة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولون لأتباعهم: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بقبري.

ويقول بعضهم: بئس الشيخ الذي يفصله عن تلاميذه شبرٌ من تراب. يعني: وأنا تحت التراب إذا مت لا أستطيع أن أنقذكم، أنا بئس الشيخ إذًا، أنا أفعل كل شيء وأغيث وأفرِّج الكروب. إلى غير ذلك مما يعتقدون.

ومن نظر في كتبهم، ومن نظر في المؤلفات التي أُلِّفت في مناقب هؤلاء الشيوخ وسيرهم وجد من هذا السوء والضلال الشيء الكثير، فهؤلاء لا شك أنهم مشركون في الربوبية مع كونهم مشركين في الألوهية، مع كونهم مشركين -أيضًا- في أسماء الله وصفاته، فقد جمعوا بين أنواع الشرك الثلاثة.

تجد أحدهم يدعو صاحب القبر، يدعو شيخه أو يدعو الولي أو النبي مع البُعد، فهؤلاء صرفوا لُبَّ العبادة -وهو الدعاء- لغير الله، أليس هو ﷺ القائل: «**الدعاء هو العبادة**»؟ فهؤلاء جعلوا العبادة لغير الله، فكانوا مشركين في الألوهية.

الأمر الثاني: أنهم اعتقدوا أن هذا الميت يستطيع أن يفرِّج وأن يدبِّر وأن يقرِّب الخير وأن يدفع الشر عمن دعاه واستغاث به وهو في قبره، فله سلطانٌ غيبي وله قوة خفية يفعل بها ويصنع وهو في قبره تحت التراب. فكانوا مشركين في الربوبية.

وهم -أيضًا- مشركون في باب الأسماء والصفات، إذ اعتقدوا أن هذا الميت وسع سمعه الأصوات، ويعلم بعلمه المحيط كل شيء، ولذا فإنهم يستغيثون به مع البعد وهم يعتقدون أنه يسمعهم، وأن له من القدرة ما يستطيع بها أن يغيثهم ويجيبهم، فجمعوا بين السوء من أطرافه، وبين الشر من جهاته، وبين الشرك من أنواعه، فحالهم لا شك أنه حالٌ عظيمة، عافاني الله وإياكم!

فأيُّ إيمان وأيُّ إسلام لهؤلاء مع هذه العقائد الباطلة، نسأل الله العافية والسلامة!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكثيرًا ما يجتمع الشركان في العبد وينفرد أحدهما عن الآخر.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

كما سبق.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والقرآن الكريم بل الكتب المنزلة من عند الله تعالى كلها مصرِّحة بالرد على أهل هذا الإشراك، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥] فإنه ينفي شرك المحبة والإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥] فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية.

قال الشّارح وفّقه الله:

أما من أراد أن يتتبع آيات الكتاب وأحاديث المصطفى ﷺ الناهية عن الشرك به جل وعلا فهذا شيءٌ يتعسر أو يتعذر لكثرته، بل -كما ذكرنا سابقًا- تكاد أن تستنبط من كل آية في القرآن دليلًا على توحيد الله وعلى النهي عن الشرك به، ومن ذلك أول سورة تفتحها في المصحف تجد قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، والقاعدة عند علماء اللغة: أن تقديم ما حقه التأخير يدل على الاختصاص ويدل على الحصر.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني: نعبدك ولا نعبد غيرك، لم يقل: نعبدك، بل قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فالعبادة مخصوصة ومحصورة فيما يُتقرب به إليك يا الله.

كذلك الاستعانة، ما قال جل وعلا: نستعينك، إنما قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يعني: نستعين بك وحدك ولا نستعين بغيرك.فهذا في أول سورة من كتاب الله جل وعلا غرسٌ للتوحيد في النفوس.

أول أمر في المصحف، افتح المصحف واقرأ أول أمر جاء في كتاب الله الأمر بتوحيد الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[البقرة:٢١]، وأول نهي جاء في المصحف إذا فتحته وقرأته تجده النهي عن الشرك: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

إذن: توحيد الله عز وجل والنهي عن الشرك به أيًا كان هذا الشرك هو كثيرٌ في كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من أوله إلى آخره، وهكذا سنة النبي ﷺ، كلها حضٌّ على التوحيد وتعليمٌ للتوحيد وبيان لفضل التوحيد، ونهيٌ عن الشرك وتحذير منه، وبيانٌ لخطره، وهذا شيء كثير بحمد الله!

هذا كله يدلك على أهمية الأمر وخطورته، وأن كل شيء معلّق به، فوالله إن كل خير في الدنيا والآخرة فإنه ثمرة لهذا التوحيد، وكل شر في الدنيا والآخرة فإنه ثمرة للشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتضمَّنت هذه الآية تجريد التوحيد لربِّ العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه، لا في الأفعال ولا في الألفاظ ولا في الإرادات، فالشرك به في الأفعال، كالسجود لغيره سبحانه، والطواف بغير بيته المحرم، وحلق الرأس عبوديَّةً وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه تعالى في الأرض، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

ينبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآن على بعض صور الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هنا من قوله: (**في الأفعال**) من هذه الكلمة إلى ما سيأتي في صحيفة ستين كله مأخوذٌ من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الداء والدواء، هذا نقل عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكنه سبكه رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى إنه لا يتميز، لكن من قوله: (في الأفعال) فما بعد هذا كله كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب.

يقول: (**فالشرك به في الأفعال**) يعني: يمكن أن يكون الشرك فعلًا، بمجرد الفعل يشرك الإنسان ويكفر، كما أنه بمجرد القول قد يكفر، كما أنه بمجرد الاعتقاد قد يكفر، كما أنه بمجرد الشك قد يكفر، فكل واحدٍ من هذه الأمور الأربعة يقع به الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما ذكرنا هذا فيما مضى.

قال: (**كالسجود لغيره سبحانه**)، فمن سجد لغير الله، وكذلك من ركع لغير الله، وكذلك من ذبح لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فكل هذا من الشرك به سبحانه، فإن التعبُّد بهذه الأمور إنما يكون لله جل وعلا، فمن توجه بهذه الأفعال لغيره سبحانه فقد أشرك مع الله جل وعلا.

قال: (**والطواف بغير البيت المحرم**) من طاف بغير البيت المحرم تقربًا لغير الله فهذا شركٌ أكبر لا شك فيه، كما يقع من عُبَّاد القبور الذين يطوفون بالقبور تقربًا وتعبدًا وتذللًا لأصحابها، فهذا لا شك أنه شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذ ليس الشرك إلا صرف العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يكفي أن تعلم أن هذا شرك وأن تعلم الدليل على أنه شرك من خلال إثبات أن هذا الشيء عبادة، إذا ثبت أن هذا عبادة كان صرفه لغير الله شركًا، وهذه قاعدة احفظها: كل ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله

شرك. هذه قاعدة ينبغي أن تُحفظ، كل ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦].

لو قال قائل: ما الدليل على أن السجود لغير الله شرك؟

الجواب: الدليل هو ثبوت أن السجود لله عبادة، إذ ثبت عندنا أن السجود لله عبادة.. وهل هذا فيه شك؟ السجود لله عبادة، إذًا ما حكم السجود لغيره؟ شرك بالله جل وعلا.

الصيام لله عبادة، إذًا ما حكم الصيام لغيره؟ شرك، ما القاعدة: كل ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦].

إذًا: الطواف بالبيت الحرام عبادةٌ لله أم لا؟ عبادة لله، إذًا: من طاف بالقبر يتقرب لصاحب القبر ما حكمه؟ مشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما إذا كان يطوف بغير البيت الحرام تقربًا لله في هذا المكان فهذا ليس بشرك أكبر ولكنه بدعة، وإن كان هذا لا يتصور، لكن أذكره تتميمًا للقسمة.

إذًا: الطواف إن كان تقربًا لغير الله فهو شرك أكبر قولًا واحدًا، ولا يُختلف في هذا عند علماء التوحيد.

وأما إن كان يطوف بمكانٍ ما تقربًا لله جل وعلا فهذا ابتداع وإحداثٌ في الدين وإن كان لا يتصور أن يقع من أحد.

فهؤلاء الذين يطوفون بالقبور لا شك أنهم يتقربون لأصحابها قطعًا، ولذا ففعلهم لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة، عافاني الله وإياكم من ذلك!

قال: (**وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود**) المراد: التقبيل الذي هو تعبُّدٌ وليس هو التقبيل الذي هو عادي، يعني: من جملة العادات، كتقبيل الإنسان لأهله أو لابنه أو نحو ذلك، هذا لا يدخل في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قطعًا، إنما مراده التقبيل الذي هو تعبُّدٌ.

فأنت -يا رعاك الله- إذا قبَّلت الحجر الأسود فأنت تتعبد لله جل وعلا بهذا التقبيل، أنت تعظم الله عز وجل بهذا التقبيل، وبالتالي أصبح هذا التقبيل عبادة، وبالتالي لو صُرِف لغير الله كان شركًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا يقع من عُبَّاد القبور الذين يُقبِّلون التراب لهذه القبور أو يقبِّلون السياج الذي يحيط بها أو يقبِّلون العتبات المحيطة بها، وكل هذا تقرُّب لأصحاب هذه القبور من الأولياء.

أو يزعمون أنه بهذا التقرب، بهذا التقبيل، بهذا التبرك، بهذا التمسح فإن هذا الولي يعطف عليهم فيرفع حاجاتهم إلى الله جل وعلا ويشفع ولهم، وهذا -أيضًا- شرك أكبر، حاله كحال الذين أخبر الله جل وعلا عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[يونس:١٨].

إذن: تلخص لنا أن التقبيل الشركي له صورتان:

أن يقبِّل شيئًا تقربًا له، فهذا مضارعة لعبادة الله جل وعلا وشركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أو يقبِّله لاعتقاد أن ما قبَّله من القبور أو من الأشجار أو من الأحجار أو غير ذلك أن هذا التقبيل يحصل له به عطفٌ ونظرٌ من صاحب القبر أو من روحانيات هذه السواري والحجارة والأشجار ونحوها، لها روحانيات، إذا قبَّلت وتبركت وتمسحت فإنها ترفع لي الحاجات إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أو أنها تمنح البركة لذاتها، هي التي تمنح البركة لذاتها، هؤلاء الذين يعتقدون أن التبرك بالأولياء والقبور بالتمسح، بالتقبيل، بالخضوع والعكوف عند هذا المكان تفيض البركات على الإنسان من هذا الشيء نفسه، من صاحب القبر فهذا لا شك أنه شرك أكبر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالبركة مثلها مثل الرَّزق، مثلها مثل العافية، مثلها مثل النصر، إنما تُطلب من الله عز وجل، فالبركة من الله، ومر معنا -إن كنتم تذكرون في درسٍ سابق- أن الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرج عن ابن مسعود أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فقلَّ الماء. يعني: الماء أصبح قليلًا، فاشتكوا إلى النبي ﷺ فطلب وعاءً فيه شيء من ماء. أتوا بوعاء فيه ماء قليل في قعره، فأخذه النبي ﷺ ووضع يده فيه وقرأ، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فإذا بالماء يفور من بين

أصابع النبي ﷺ. آية ومعجزة له ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**حيا على الطهور المبارك، والبركة من الله**»، حيا على الطهور المبارك والبركة ممن؟ ليست مني، انتبهوا! البركة ممن؟ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

إذًا: الذي يعطي البركة ويمنحها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بقيت صورة أخرى وهي: أنه يقبِّل هذا القبر مثلًا أو تلك الشجرة أو ذاك الحجر ويعتقد أن هذا التقبيل أو التمسح أو التبرك إنما هو سبب ووسيلة لحصول البركة، وإلا فإن الله عز وجل هو الذي يمنحها وهو الذي يعطيها، فمن اعتقد هذا فقد وقع في الشرك الأصغر؛ لأنه اتخذه سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا.

قال: (**الحجر الأسود الذي هو يمينه تعالى في الأرض**)، كأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير أو يقتبس في هذه الجملة من حديث مرويٍ عن النبي ﷺ أخرجه ابن عدي والخطيب وغيرهما فيه أنه ﷺ يقول: «**الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله فكأنما صافح الله تعالى**»، ولكن هذا الحديث لا يثبت عن النبي ﷺ، بل هو باطلٌ منكر، فلا يجوز أن يُنسب إلى النبي ﷺ هذا الكلام، وإنما هذا مرويٌّ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والمعنى فيه ليس فيه إشكال لمن تأمله، هو كقول السلطان لنائبه في قرية من القرى: هذا عيني عندكم، هل المراد أنه قطعة من العين وُضِعت في هذه القرية؟ ليس المراد هذا، سعة كلام العرب تسمح بمثل هذا الأسلوب، فالمراد: أنه يخبره بكل ما يحصل أو كل ما يصل إليه علمه مما يكون في هذه القرية.

كذلك في هذا الأثر ليس فيه أن الحجر الأسود هو يمين الله عز وجل، لأنه قيَّد هذا بأنه في الأرض والله عز وجل فوق السماء مستوٍ على عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إنما يحصل من الخير والبركة التي ينزلها الله عز وجل على مَن استلم هذا الحجر كأنه صافح الله عز وجل، فلا شك أن المشبَّه ليس هو المشبَّه به، فالله عز وجل متصفٌ بصفة اليد القائمة به جل وعلا على حد قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى:١١].

فليس هذا -كما يقول علماء أهل السنة- من التأويل، حَمْلُ هذا الأثر على هذا المعنى ليس من التأويل، بل التأويل هو أن يقال: إن الحجر الأسود هو يمين الله حقيقة. هذا هو التأويل الباطل، أما حمله على ظاهره في وفق ما يُفهم من كلام العرب فإنه ليس من التأويل في شيء.

وعلى كل حال، هذا الكلام لم يثبت عن النبي ﷺ.

قال: (**وحلق الرأس عبودية وخضوعًا لغيره**)، حلْق الرأس له أحوال:

أولًا: يكون حلْق الرأس شركًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف ذلك؟ يكون من خلال أن يتعبد به الإنسان لغير الله. ما رأيكم بحلْق الشعر في الحج أو العمرة، هل هو عبادة لله أم لا؟ نعم، هو نُسُك وعبادة وأمرٌ واجب يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأمر به نبيه ﷺ، إذًا هو عبادة. من صرف هذه العبادة لغير الله ما حكمه؟ مشرك، أين القاعدة؟ كل ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك.

وهذا يقع وله صور:

منها: ما يقع من بعض المبتدعة الضالين الذين إذا توَّبوا بعض الناس أتوا بهم فخضعوا وذلوا بين أيديهم وحلقوا لهم تقربًا للشيخ والولي والسيد، وبذلك يصبح مريدًا لهذا الشيخ، فهو يحلق رأسه يتقرب ويذل ويعظم بهذا الحلق لهذا الشيخ، وهذا يقع من هؤلاء الضالين كثيرًا، فمثل هذا لا شك أنه شركٌ أكبر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كذلك ما يحصل من بعضهم أنه إذا ذهب إلى قبرٍ من القبور قبور الأولياء فإنه يحلق رأسه عند هذا القبر تقربًا لصاحبه، فمن فعل هذا فلا شك أنه وقع في الشرك الأكبر، وهذا الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: (**وحلْق الرأس عبودية وخضوعًا لغيره**). إذًا هذه الحال الأولى.

الحال الثانية: أن يكون فيها الحلْق عبادة وقربة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا إنما يكون في النسك في الحج أو العمرة.

الحال الثالثة: أن يكون حلْق الرأس بدعة محرمة لا تجوز، وذلك كما وقع أو يقع من بعض الناس أنهم يذهبون ويسافرون إلى المسجد الأقصى في أيام الحج أو في غيره ثم يحلقون رؤوسهم هناك، وذكر

هذه الصورة شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم، يتقربون لله عز وجل بالحلق في هذا المكان، فهذه بدعة، لأنها عبادة لله عز وجل ليس عليها الختم النبوي، ليس عليها دليلٌ من سنة النبي ﷺ، فهذا الفعل بدعة لا تجوز.

الحال الرابعة: يكون حلْق الرأس فيها محرمًا لا يجوز، وذلك بأن يكون الحلْق تشبهًا بغير المسلمين، كما يقع من بعض الشباب -هدانا الله وإياهم- أنهم يحلقون رؤوسهم بحسب ما يسمونه الموضة التي تأتي من عند الكفار، يلاحَظ من وقتٍ لآخر أن بعض الشباب ينساقون وراء هذه الموضات التي تأتي من بلاد الغرب فيحلقون رؤوسهم تشبهًا بلاعب أو تشبهًا بممثل أو بمغنٍّ ونحو ذلك، فهذا لا شك أنه محرم ومنكر، والنبي ﷺ يقول: «**من تشبه بقومٍ فهو منهم**».

الحال الخامسة يكون فيها الحلق مباحًا أو مطلوبًا، كأن يكون الحلق لأجل التداوي، شخص يريد أن يتداوى بفصد الدم مثلًا أو بالحجامة أو نحو ذلك فيحتاج إلى الحلق، أو يكون به أذى من قمل ونحوه أو يكون به حر يريد أن يتبرد فيحلق رأسه فمثل هذا الأصل فيه أنه مباح، وقد يكون مطلوبًا إذا حصل به حفظٌ للصحة، ولا شك أن هذا أمرٌ مطلوب وربما كان مستحبًا على القول باستحباب التداوي.

إذن: رَجَعَت الأحوال التي يكون فيها الحلق إلى هذه الأحوال الخمسة، وأشار ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بعضها في كتابه أحكام أهل الذمة وكذلك في كتابه زاد المعاد.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد لعن النبي ﷺ من اتَّخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يُصلى لله فيها، فكيف من اتَّخذ القبور أوثانًا تعبد من دون الله؟ فهذا لم يعلم معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥].

ففي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وفيه عنه -أيضًا-: «إن من شرار الناس من تدركهم السّاعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»، وفيه -أيضًا- عنه ﷺ: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

قال الشَّارح وفَّقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الكلام عن الشرك المتعلق بالقبور وذرائعه، وذلك بسوقه هذه الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في «الصحيحين» وغيرهما من النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

ولا شك أن اتخاذ القبور مساجد من أعظم أسباب وقوع الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

واتخاذ القبور مساجد معناه راجعٌ إلى ثلاث صور انتبه لها، كلها يشملها نهي النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد.

الصورة الأولى: الصلاة إليها أو عندها، وأشنع من ذلك: السجود عليها. هذه الصورة الأولى أن يُصلى إلى القبر، يعني: أن يكون القبر بين يدي المصلي، يصلي وهو أمامه، فلا شك أن هذا منكر وداخلٌ في نهي النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد.

فثبت عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه رأى أنسًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يصلي ولم يكن ينتبه إلى أن قبرًا بين يديه، فإذا به يناديه وهو يصلي: القبر القبرَ. يعني: اقطع الصلاة، أمامك قبر، وما انتظر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حتى ينتهي ويفرغ من صلاته.

فالصلاة إلى القبر لا تجوز؛ لأنها ذريعة واضحة إلى الشرك بهذا الميت.

أو عندها، يعني: بينها وحولها، وبالتالي فالصلاة في المقبرة محرمة ولا تجوز، بل باطلة، وكل الأرض مسجدٌ إلا المقبرة والحمام، كما ثبت عن النبي ﷺ. فبالتالي الصلاة في المقبرة في هذا المكان الذي يُقبر فيه ومحاط ومعروف أنه مقبرة فإنه لا يجوز أن يصلي الإنسان ولو كان هذا في ناحية منه، ولو لم يكن بين يديه قبر.

وأشنع وأضل من هذا أن يسجد مباشرة على القبر، فيتحقق فيه أنه اتخذ القبر مسجدًا، يعني: محلًا للسجود، وهذا لا يُرتاب في أنه شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن سجد على القبر يتقرب لصاحبه فلا شك في كفره بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا: هذه الصورة الأولى من اتخاذ القبور مساجد: أن يُصلى إلى القبور أو عندها، وأقبح من ذلك أن يُسجد عليها.

الصورة الثانية: أن يموت ميتٌ فيُحمل ويُدفن في مسجد، مسجد مبني نأتي بالميت فنحفر له قبرًا في داخل المسجد، فهذا ينطبق عليه أنه قد اتُّخِذ القبر مسجدًا، ولا شك أن وضع هذا القبر في داخل المسجد لا شك أنه يصيِّر هذا المسجد مقبرة، وبالتالي فوقع من فعل هذا في النهي الذي نهى عنه النبي ﷺ في الأحاديث المتواترة الناهية عن اتخاذ القبور مساجد، وأيضًا أصبحت الصلاة في هذا المكان لا تجوز، فإن الصحيح من كلام الفقهاء أن الموضع يصبح مقبرة بوجود قبرٍ واحد فيها فأكثر، متى ما وُجِد في هذا المكان قبر أو أكثر، وُجد قبران أو ثلاثة.. إلى آخره، أصبح اسم هذا المكان مقبرة، وبالتالي فلا تجوز الصلاة فيه، «**كل الأرض مسجد إلا المقبرة والحمام**»، «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**».

إذًا: هذه هي الصورة الثانية، وبالتالي فليحذر هؤلاء الذين يذهبون فيصلون في مساجد قد دُفِن فيها أموات، فالصلاة هاهنا محرمة والصلاة هاهنا باطلة، فتنبه يا رعاك الله!

الصورة الثالثة: أن يموت ميت فيُدفن ثم يُبنى على هذا القبر وحوله وعنده مسجد، يموت الميت فنأتي نبني في هذا المكان مسجد فيكون القبر في داخل هذا المسجد الذي بنيناه، وهذا -أيضًا- ينطبق عليه أنه قد اتُّخِذ القبر مسجدًا.

إذًا: عندنا ثلاث صور بها يستبين لنا معنى نهي النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وهو نهيٌ أكيد مكرر تكرر منه ﷺ كثيرًا، فالأحاديث الناهية عن اتخاذ القبور مساجد -كما نص أهل العلم كشيخ الإسلام وغيره- بلغت مبلغ التواتر، أحاديث كثيرة مستفيضة عن النبي ﷺ تدلك على أنه نهيٌ مؤكَّد، وأن الخطر من هذا عظيم، فإن هذا من أعظم الذرائع لوقوع الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قديمًا وحديثًا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عنه ﷺ: «لعن الله زوَّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج».

ﮋﮋ◈ﮊﮊ

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا الحديث فيه ما ذُكِر آنفًا وهو النهي عن اتخاذ القبور مساجد في قوله: «**والمتخذين عليها المساجد**»، وفيه -أيضًا- مسألتان:

الأولى: «والسرج» يعني: النهي عن إسراج المقابر، يعني: النهي عن إضاءتها، عن إنارتها، فهذا أمرٌ منكر لا يجوز، لما فيه من الذريعة إلى تعظيم هذه القبور، ولما فيه -أيضًا- من الإسراف، والله جل وعلا نهى عن الإسراف وهكذا نبيه ﷺ، فما الحاجة إلى أن تُضاء المقابر وأن تُنار وأن توضع فيها هذه المصابيح والسرج؟ لا شك أن هذا منكر ولا يجوز بنص حديث النبي ﷺ.

بقيت عندنا المسألة الأولى في هذا الحديث وهي: «**لعن الله زَوَّارات القبور أو زُوارات القبور**»، ففي الحديث النهي عن أن تزور المرأة القبور، المرأة منهيَّة عن زيارة القبور على الصحيح من كلام أهل العلم، وهذا الحديث ظاهرٌ في إثبات هذا الحكم.

وهذا هو الصحيح -كما ذكرت- من كلام أهل العلم ومن قولي أهل العلم في هذه المسألة، الصحيح أنه لا يجوز للمرأة أن تزور القبور لهذا الحديث.

قد يقول قائل: هذا الحديث فيه لعن زَوَّارات القبور، وهذه الكلمة فيها صيغة مبالغة، وبالتالي النهي إنما هو عن الإكثار من الزيارة، أما لو زارت المرأة مرة أو مرتين أو نحو ذلك فإنه لا يُعد هذا داخلًا في هذا الحديث.

وهذا المذكور غير صحيح، وذلك لوجوه:

التوجيه الأول: من أهل العلم من قال: إن القراءة الصحيحة للحديث: «**لعن الله زُوَّرات القبور**» (زُوَّارات) بمعنى جمع زُوَّارة، و(زُوَّارة) بالضم بمعنى زائرة، ليس كـ(زَوَّارات)، (زُوَّارات) جمع زُوَّارة، وهي في اللغة بمعنى زائرة، وبالتالي فلم يكن هذا من صيغة المبالغة التي تدل على تكرار الزيارة. ذكر هذا التوجيه السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ.

التوجيه الثاني: أن يقال: نعم، هذا جاء عن النبي ﷺ وذلك من حديث أبي هريرة، لكن جاء من حديث ابن عباس: «**لعن الله زائرات القبور**»، وبالتالي فإعمال الدليل أولى من إهماله، فالقول بالدليلين أولى من الأخذ بأحدهما، فيكون النهي عن الزيارة مطلقًا أخذًا بحديث: «**لعن الله زائرات القبور**»، ونأخذ -أيضًا- بحديث أبي هريرة في التكثير فيكون التكرار أشد تحريمًا، وبالتالي نكون قد أخذنا بالحديثين، الزيارة القليلة منهيٌ عنها بحديث ابن عباس، والزيارة الكثيرة يكون منهيًا عنها بحديث أبي هريرة.

التوجيه الثالث -وهو توجيهٌ لطيف ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ- وهو أن المبالغة هنا ليست لتكرار الزيارة، ليست لتكثير الزيارة، إنما هو لكثرة الزائرات، وهذا سائغٌ في اللغة على نحو قول الله جل وعلا: ﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ**﴾[ص:٥٠]، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أبواب الجنة تُفتح مرة واحدة، ولكن المبالغة هنا لكثرة الأبواب، كذلك في قوله: «**زَوَّارات**» ليس لكثرة الزيارة وإنما لكثرة الزائرات.

فهذا توجيه ثالث.

الأمر الرابع الذي يؤكد هذا الأمر: أنك تجد أن في هذا الحديث وعيدًا شديدًا أكيدًا وهو اللعن، يعني: الطرد والإبعاد من رحمة الله جل وعلا، والشريعة لا تعلِّق مثل هذا الحكم العظيم على أمرٍ غير منضبط، بمعنى: ما حدُّ الكثرة من القلة؟ كيف أعرف الحد الذي تكون به المرأة قد وقعت في هذا الأمر العظيم وهو الذي هو سببٌ للعنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ كم يعني؟ هل خمس زيارات في السنة كثير أو قليل؟ قد يقول قائل: خمس زيارات كثير، وآخر يقول: خمس زيارات قليل، إنما مائة زيارة هي الكثير.

إذًا: هذا أمر غير منضبط، ولا يمكن أن يُعلَّق عليه هذا الأمر العظيم الذي يقتضي لعنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذه الأوجه الأربعة تدلك على أن التعلق بلفظ (**زَوَّارات**) لا وجه له في إباحة أن تزور المرأة القبور.

قالوا: ألا تدخل المرأة في قول النبي ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**»، هكذا قال بعض أهل العلم، فالمرأة داخلة في قوله: «**فزوروها**» لأن المرأة تدخل في خطاب الرجال تغليبًا، هكذا قرر الأصوليون.

وهذا -أيضًا- ليس بوجيه، وذلك:

أولًا: ما الدليل على أن النهي الذي جاء في هذا الحديث يدخل فيه نهيه ﷺ..

أعود إلى ما كنت توقفت عنده قبل الأذان وهو: أن القائلين بأن قوله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور**» يشمل النهي عن زيارة النساء وبالتالي فيكون هذا منسوخا بقوله: «**فزوروها**».

والجواب: أن هذا لا يمكن أن يقال به إلا بمعرفة التاريخ، فما الدليل على أن النهي الذي جاء في حق النساء كان متقدمًا عن قوله ﷺ: «**فزوروها**»؟ ربما يقال: إن النهي كان عامًا ثم جاء الإذن ثم جاء نهيه ﷺ عن النساء خاصة.

وفي علم الأصول: النهي الخاص أقوى من العموم الذي يدخل فيه النساء من باب التغليب، النهي الخاص للنساء عن زيارة القبور أقوى في الأصول من إدخالهن في العموم الذي إنما يدخلون فيه تغليبًا. هذا أولًا.

وثانيًا أن يقال: إنكم إذا قلتم بأن النساء يشملهن قول النبي ﷺ: «**ألا فزوروها**» فإنه يلزمكم إذًا أن تكون زيارة النساء مستحبة لهن كما هي مستحبة للرجال، أليس كذلك؟ وهذا لا قائل به، فالأمة علماؤها مختلفون في زيارة النساء للقبور إلى قولين: القول بالمنع والتحريم، والقول بالإباحة، ولا قائل بالاستحباب.

فإما أن تقولوا بأنهن يدخلن في هذا الحديث، وبالتالي تقولون بقولٍ لم يقل به أحد، أو تقولوا إنهن لا يدخلن في هذا الحديث، وهذا هو الصحيح.

ويؤيد هذا وجهٌ ثالث: وهو أن المعلوم بالتتبع من حال السلف الصالح في القرون المفضلة: أن زيارة القبور للنساء أمرٌ غير ظاهر، فلم يكن من شأنهن زيارة القبور، إنما كان ذلك شأن الرجال، أما النساء فلم يكن ظاهرًا فيهن زيارة القبور أخذًا بقوله ﷺ: «**ألا فزوروها**».

ويؤيد هذا أمرٌ رابع من جهة المعنى، فإن زيارة القبور إنما شُرِعت لما يحصل بذلك من تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ، فهو موقفٌ عظيم يذكِّر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبالرحلة عن هذه الدنيا إلى الدار الآخرة، فأما مع وجود النساء بين الرجال في هذا المكان فإن هذه الحكمة ربما يصيبها ما يصيبها من الإضعاف.

فتخيل لو أن الرجال دخلوا إلى القبور وتمر المرأة بجانبه من هاهنا ومن هاهنا فإن هذا يحصل به تشويش عليه، وما ألطف ما ذكره ابن الحاج في كتابه المدخل من أن الخلاف في زيارة النساء للقبور هذا شيءٌ يمكن أن يكون معتبرًا في القديم، أما في هذا الزمان المتأخر -وهو يتحدث عن عصره- فلا يقول أحدٌ من أهل العلم بل من عنده مروءة أو غيرة: إن نساء هذا الزمان يجوز لهن زيارة القبور، لما هو حاصلٌ -مع الأسف الشديد- من التبرج والسفور في العصور المتأخرة ولا سيما في هذا الزمان.

أضف إلى هذا أن النساء فيهن من الضعف من قلة الاحتمال، من سرعة البكاء والنحيب، وما هو أكثر من هذا من شق الثياب أو ضرب الخدود والصدور ونحو ذلك، فهذا أمر لا يُنكر، فيهن جَزَع وفيهن قلة صبر في الغالب، ومثل هذا مما تأتي الشريعة بسد الذريعة إليه، ليس شأنهن كالرجال الذين هم في الغالب لا يتصفون بهذا الجزع، بل فيهم من الصبر والاحتمال ما ليس في النساء.

إذًا: الخلاصة أن الذي يترجح -والله تعالى أعلم- أنه لا يجوز للنساء زيارة القبور، بل زيارة القبور في حقهن كبيرة من الكبائر، لأنه قد تُوعِّد على ذلك باللعن، والقاعدة: أن المنهيات التي جاء فيها اللعن فإنها داخلةٌ في حد الكبيرة.

والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وقال: إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله».

ﮋﮋ◈ﮊﮊ

قال الشّارح وفّقه الله:

توقفنا عند حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«لعن الله زُوَّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج»**

وقلنا: إن هذا الحديث اشتمل على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: نهي النساء عن زيارة القبور.

الأمر الثاني: نهي المسلمين عن أن يتخذوا القبور مساجد.

والأمر الثالث: النهي عن إنارة وإسراج وإيقاد المقابر.

وعلمنا أنَّ النهي عن زيارة القبور بالنسبة للنساء، وكذلك النهي عن اتخاذ القبور مساجد مما كثرت فيه الأدلة من سنة النبي ﷺ، وبقي مسألة السُّرُج، فهذا هو الحديث الذي جاء فيه النهي عن إسراج القبور -فيما أعلم- لا غير، والحديث فيه بحثٌ من جهة ثبوته، ومدار الحديث على رجل اسمه أبو صالح، واختلف العلماء إلى ثلاثة أقوال في تعيين هذا الرجل أهو باذام المكي الضعيف، أم هو السمان المتفق على ثقته، أم هو رجلٌ آخر؟

فالجمهور أو الأكثر على أنه باذام الضعيف، ولأجل هذا العلماء اختلفوا في ثبوت هذا الحديث، فحسَّنه الترمذي، وفي نسخة: صححه كما يقول شيخ الإسلام، وحكم عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بالثبوت في مجموع الفتاوى في الجزء الحادي والثلاثين، كذلك صححه ابن حبان، وكذلك صححه الشيخ أحمد شاكر، وكذلك قال الحاكم: إنه حديث متداولٌ بين الأئمة. إلى غيرهم من أهل العلم الذين أثبتوا هذا الحديث.

والأكثر على تضعيفه؛ لأن الأكثر على أن أبا صالحٍ هنا هو باذام الضعيف.

وعلى كل حال، إن ثبت هذا الحديث فهو يؤكد تحريم إسراج المقابر، وإن لم يثبت فإنَّ تحريم إسراج المقابر وإنارتها ثابتٌ لا شك فيه، لأمور:

أولًا: لأنه بدعة، فيدخل في قول النبي ﷺ: «**ألا وإن كل محدثة بدعة، ألا وإن كل بدعة ضلالة**».

وكذلك هو إسراف، فيدخل في قول الله جل وعلا: ﴿**وَلَا تُسْرِفُوا**﴾[الأعراف:٣١].

وكذلك الاتفاق مضى على المنع، قال شيخ الإسلام في الجزء الحادي والثلاثين من مجموع الفتاوى: إنه لا يعلم خلافًا أنه معصية لله سبحانه. فيتضح بهذا أن إسراج المقابر لا شك في عدم جوازه صح الحديث أو لم يصح، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ حديثين يتعلقان بالنهي عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، قال: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، ولا شك أن اتخاذ القبور مساجد مطلقًا محرم، وهو في حق قبور الأنبياء أشنع وأعظم.

كذلك في قوله ﷺ: «**إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا**»، فالبناء على قبور الأولياء والصالحين أشد تحريمًا؛ لأن ذريعة الشرك بهم أعظم من غيرهم، وإن كان أيُّ قبر لا يجوز اتخاذه مسجدًا، ولذا فإنَّ قاعدة الشريعة أن شيئين لا يجتمعان: مسجد ومقبرة، انتبه لهذا! هناك أمران، هناك شيئان لا يجتمعان في شريعتنا: مسجد ومقبرة، إما أن يكون المكان مسجدًا أو يكون مقبرة، أما أن يجتمعا فلا، لا يجتمعان في شريعتنا.

ويُلَبِّس بعض أهل البدع على المسلمين في هذا المقام بشأن مسجد النبي ﷺ، فيقول: هذا مسجد النبي ﷺ وبالاتفاق تجوز الصلاة فيه وفيه قبر، فكيف تمنعون أن يُصلى في مسجد فيه قبر أو أن يُبنى على القبور المساجد؟

وهذه الشبهة فيها بحث طويل وفيها مناقشات من أوجه عدة، وقد كتبت فيها بحثًا منشورًا، لكن خلاصة ذلك: أن قبر النبي ﷺ ليس في مسجده، بل هو إما مجاورٌ له أو هو محاطٌ بالمسجد النبوي.

أضف إلى هذا أمرًا مهمًا وهو أنه لا القبر أُدخل من أجل المسجد، ولا المسجد بُني على القبر، وهذان الوصفان يدلان على أن هذه صورة خاصة، فأيُّ مكان آخر فيه قبر داخل مسجد فهو لا يخلو من أحد أمرين:

- إما أن القبر أُدخل من أجل المسجد.

- أو أن المسجد بُني من أجل القبر ولابد، أما في حال مسجد النبي ﷺ فإن الأمر مختلف، فلم يتحقق هذان الوصفان المؤثِّران في الحكم، فدل هذا على أنه لا يجوز أن يُقاس غيره عليه.

أضف إلى هذا أن الإجماع قد انعقد على جواز الصلاة في هذا المسجد ولم يحصل هذا في غيره، والإجماع دليل معتبر، فهو مخصوص إذًا بالإجماع.

وأضف إلى هذا أن كل مسجد فيه قبر بعد مسجد النبي ﷺ فإنه يمكن أن يُنبش القبر إذا كان هو المتأخر، أو يُهدم المسجد إذا كان هو المتأخر، أما في هذه الحالة فلا يمكن ذلك، لا يمكن تغيير مكان المسجد ولا يمكن تغيير مكان القبر؛ لأنهما توقيفيان، فدل هذا على أن القياس قياس غير صحيح، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والناس في هذا الباب -أعني: زيارة القبور - ثلاثة أقسام:

قوم يزورون الموتى فيدعون لهم. وهذه هي الزيارة الشرعية.

وقوم يزورونهم يدعون بهم، فهؤلاء هم المشركون وجهلة العوام والطغام من غلاتهم.

وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم، وقد قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»، وهؤلاء هم المشركون في الربوبية.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

قال الشّارح وفّقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والناس في هذا الباب — أعني: زيارة القبور - ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: قوم يزورون الموتى فيدعون لهم. وهذه هي الزيارة الشرعية)، الزيارة الشرعية للقبور يتحقق بها ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: الدعاء للموتى، يعني: أنَّ الحي يدعو للميت، كما كان النبي ﷺ يفعل.

الفائدة الثانية: أن زيارة القبور تذكر بالآخرة وتزهد في الدنيا، والمسلم أحوج ما يكون إلى هذا.

الفائدة الثالثة: أنَّه يحصل بزيارة المقابر اكتسابٌ للأجر، إذ في هذا اتباعٌ للسنة وأداءٌ لطاعة كان يفعلها النبي ﷺ.

إذن: تحصل لنا بزيارة المقابر هذه الزيارة الشرعية هذه الفوائد الثلاث.

فإذا فعل الإنسان هذا الأمر فإنه يكون قد حصَّل هذه الفوائد وكانت زيارته زيارة شرعية.

أما القسم الثاني قال: (**قوم يزورونهم يدعون بهم، فهؤلاء هم المشركون وجهلة العوام والطغام من غلاتهم**)، الطَّغام يعني: الأراذل، طغام الناس: أراذلهم، أوغادهم، مفردها: طَغَامة، كلمة تُطلق على المذكر والمؤنث، طغامة تُجمع على طغام.

ماذا يريد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (**يدعون بهم**)؟ الظاهر —والله أعلم- أنه يريد أنهم يُسألون أن يسألوا الله، ويُسألون الشفاعة، يعني: يُدعون أن يسألوا الله وأن يرفعوا الحاجات إلى الله وأن يشفعوا عند الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا ينطبق عليهم ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن هؤلاء مشركون؛ لأن دعاء الموتى أيَّ دعاء، جنس الدعاء للموتى شركٌ أكبر، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف:٥-٦]، فأيُّ دعاءٍ للميت فهو عبادة له.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:١٤]، إذًا أشركتم مع الله إن دعوتم غيره أيَّ دعاء، فجنس الدعاء للميت فهو شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأما إذا كان مراده أنه يُدعى الله عز وجل مع التوسل بهم، بمعنى أن يقول: يا الله بحق هؤلاء الموتى، يا الله بجاه فلان من الموتى؛ فهذا لا شك أنه بدعة ووسيلة إلى الشرك ولكنه ليس شركًا، فإن أُريد هذا فالوصف بأن هؤلاء مشركون غير صحيح، لكن الأقرب -والله أعلم- حينما وصف هؤلاء بأنهم مشركون أنه يريد هذا المعنى.

وتنبه - يا رعاك الله - إلى تلبيس يُوقِعُ فيه هؤلاء القبوريون في هذا المقام، وهو أنهم يسمون دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله توسلًا، ثم يعطفون على هذا أن مسألة التوسل حصل فيها خلاف وبعض أهل العلم أجازها لا سيما بالنبي ﷺ.

ولا شك أن الصحيح أن التوسل بالجاه والتوسل بالذات والتوسل بالحق أن هذا غير صحيح وغير جائز، بل بدعة من البدع، لم يفعله النبي ﷺ ولا أصحابه، لكن أين هذه المسألة ومسألة الاستغاثة ودعاء غير الله، يا ليت أن مشكلة هؤلاء أنهم يتوسلون هذا التوسل البدعي فحسب لهان الخطب، لكن المصيبة أن هؤلاء يدعون غير الله، يدعون الموتى ويستغيثون بهم في الحاجات والمُلمَّات، فهذا لا شك أنه باتفاق المسلمين أنه شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالتوسل شيء، والاستغاثة شيء آخر، التوسل هو سؤالٌ بشيء، وأما الدعاء فهو سؤاله، دعاء الشيء الاستغاثة به يعني سؤاله، يعني الطلب منه، أما التوسل به فهو السؤال به، التوسل بالأولياء يعني سؤال الله

بهم، اللهم.. لاحظ الدعاء الآن لله، اللهم بجاه فلان أعطني، فهذا ليس من الشرك وفيه الدعاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكن الخطأ فيه هو بهذا التوسل، فتوسل إن دعوت بالله عز وجل، ذاته سبحانه، أسمائه، صفاته، أو بما قدمت من عملٍ صالح، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران:٥٣].

إذًا: هذا هو القسم الثاني.

قال: (**القسم الثالث: قوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم، وقد قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»**) هذه هي المصيبة والطامة الكبرى، أن يُذهب إلى المقابر فيُدعى الموتى، أو يُدعى الموتى بدون ذهابٍ إلى المقابر، فالأمر سيَّان، إن دعا الموتى عند القبور أو دعاهم بعيدًا عن القبور فلا فرق من حيث الحكم، كله شركٌ أكبر بالله جل وعلا.

وإذا كان دعاء غير الله ليس شركًا فليس على وجه الأرض شرك، بل الأدلة التي دلت على أن دعاء غير الله شرك أعظم بكثير من الأدلة التي دلت على أنَّ السجود لغير الله شرك، أو أن الذبح لغير الله شرك، أو أن الركوع لغير الله شرك، أو أن الصلاة لغير الله شرك، فأعظم الشرك شرك الدعاء، وأشنع الشرك شرك الدعاء، وأكثر الشرك -مع الأسف- شرك الدعاء، كثير من الناس يتورع عن أن يذبح لصاحب قبر، لكنه يستسهل كثيرًا أن يدعو صاحب القبر، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وهؤلاء هم المشركون في الربوبية**)، كثيرٌ من هؤلاء المشركين في الدعاء يشركون في الربوبية، إذ إنهم يسألون هؤلاء الموتى فعل ما لا يقدرون عليه وهم تحت التراب، فيسألونهم تفريج الكربات وتنفيس الهموم وقضاء الحاجات وتنفيذ المطالب، شيء عجيب، سبحان الله العظيم!

وقفت مرة على وريقات أراد صاحبها أن يبعثها إلى النبي ﷺ في قبره، فأخذها بعض الإخوة من أعضاء الهيئة، عجب والله! منهم من يسأل النبي ﷺ زواج ابنته، ومنهم من يسأل النبي ﷺ نجاح ابنه في الثانوية العامة.. إلى أشياء يعجب الإنسان منها والله، سبحان الله العظيم! لم لا تدعو الله؟ أو ترى أن الله غيرُ قادر على إجابتك يا عبد الله؟ لماذا تسلك هذا المسلك الذي يودي بدينك وإيمانك والذي يوديك

ويوردك هوَّة سحيقة من الشرك، الأمر عظيم والله! ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١].

حذارِ حذارِ من هذا الأمر العظيم ومن هذه المصيبة الكبيرة أن يُدعى غير الله وأن يُستغاث بغير الله، الجأ إلى الله وسل الله، ربك كريم وربك مجيب وربك قريب وربك رحيم وربك سميع وربك قدير، إذًا لماذا تدعو غيره؟

فهذا الأمر من الأمر العظيم، هؤلاء أشركوا في الألوهية وأشركوا في الربوبية، وكثيرٌ منهم -أيضًا- أشرك في الأسماء والصفات كما تكلمنا عن هذا سابقًا.

بقي قسم رابع ما أشار إليه المؤلف وهو: أن تكون الزيارة زيارة بدعية، وذلك بأن يأتي إلى القبور فيدعو الله ثمة، يعني: يدعو الله عز وجل عند القبور لزعمه ولظنه أن الدعاء في هذا المكان أرجى للإجابة، وهذا لا شك أنه بدعة ومنكر ولا يجوز ووسيلة للوقوع في الشرك، وليس على هذا هدي النبي ﷺ أن يذهب إلى القبور فيدعو لنفسه، وليس هذا هدي لأصحابه ولا هدي السلف الصالح ولا فعل الأئمة الأربعة ولا غيرهم من أهل العلم أنهم يذهبون إلى القبور فيسألون الله عز وجل لأنفسهم هناك، هذا أمرٌ منكر ولا يجوز، ولا دليل على أن الدعاء في هذا المكان أرجى للإجابة.

إذًا: هذه زيارة بدعية.

ولأجل هذا ينبغي أن نعلم -يا إخواني- أن هؤلاء الإخوة الذين يسلِّمون على النبي ﷺ عند قبره ثم يقفون باتجاه القبر أو حتى باتجاه القبلة فيدعون لأنفسهم أن هذا أمرٌ لا دليل عليه، وإن كان الاتجاه للقبر في الدعاء أعظم وأشنع، لكن حتى الاتجاه إلى القبلة عند الدعاء بعد السلام على النبي ﷺ اعتقادًا بأن القرب من القبر النبوي أرجى للإجابة هذا لا شك أنه أمر محدث لا دليل عليه ولم يفعله أصحاب النبي ﷺ، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وهم أشد حبًا للنبي ﷺ منا وأشد تعظيمًا له منا وأعرف بحقه منا وأحرص على الخير منا ومع ذلك ما فعلوا.

ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو الوحيد من الصحابة الذي كان يأتي إلى عند القبر فيقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتِ -يعني عمر- ثم يمضي، لا يقف ولا يدعو ولا يرفع يديه ولا يفعل شيئًا من هذا البتة، إنما يسلِّم بأدب واحترام ثم يمضي، وذلك يفعله فقط إن قدم من سفر أو أراد سفرًا كما ثبت في المصنف.

وأما التردد في كل وقت، أو كلما دخل المسجد أو يحدد وقت كل جمعة أو كل سبت أو كذا فهذا يدخل في نهي النبي ﷺ عن أن يُتخذ قبره عيدًا، يعني: يُعاد ويتردد إليه، فمثل هذا لا شك أنه ليس مشروعًا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، حتى نهى عن الصلاة في هذين الوقتين لكونها ذريعة إلى التشبه بعُبَّاد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة ﷺ بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس.

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذا موضعٌ مهم وجدير أن يقف عنده المسلم، ألا وهو أن النبي ﷺ قد حمى جانب التوحيد أعظم حماية.

شريعة الإسلام شريعة سمحة سهلة ميسورة في العبادات، في المعاملات، لكنها في جانب الاعتقاد شريعةٌ ذات احتياط وحزم وذات تأكيد، وهذا -أيضًا- من سماحتها، فسدت كل طريق يوصل إلى الشرك بالله جل وعلا، أو يقدح في مقام الأدب مع جناب الربوبية والألوهية.

ولذا لو تأملت هذه الشريعة ومواردها وأدلتها وجدت أمثلة كثيرة على هذا، تجد أن النبي ﷺ ينهى عن إطرائه، يعني: المجاوزة في المدح له ﷺ، مع أنه جديرٌ أن يُمدح ﷺ لكن الغلو في ذلك ممنوع، نهى ﷺ عن الغلو مطلقًا، نهى ﷺ عن البناء على القبور، نهى عن رفعها، نهى عن تجصيصها، نهى عن الكتابة عليها، تجد أن الشريعة نهت عن التشبه بالمشركين، تجد أن الشريعة نهت عن التصوير، تجد أن الشريعة نهت عن الصلاة عند القبور أو الصلاة إلى القبور، تجد أن الشريعة راعت التحذير من ألفاظ ربما يستسهلها كثيرٌ من الناس. يأتي الصحابة إلى النبي ﷺ ويطلبون منه يستغيثون به من منافق، هو قادر على أن يغيثهم منه ومع ذلك يقول لهم: «**إنه لا يُستغاث بي، إنما يُستغاث بالله**».

ينهى عن أن يقال: ما شاء الله وشئت، ويقول: «**أجعلتني لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده**».

تجد أن الشريعة تنهى عن قول: (لولا الله وفلان) هذه التسوية بالواو ممنوعة، في أشياء كثيرة في الشريعة تجدها -إن تأملت- دالة على أنها عظَّمت شأن التوحيد وسدَّت أيَّ منفذ قد يؤدي إليه، حتى ولو كان بادي الرأي بعيدًا، يعني انظر هنا يقول: (**سد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس**) يعني: الشريعة منعت عن أن يُصلي الإنسان وقت طلوع الشمس ووقت غروب الشمس؛ وذلك لأنهما وقتان يصلي فيهما الكفار للشمس والقمر، سدًا لذريعة عبادة الشمس والقمر قالت الشريعة: لا يُصلى في هذين الوقتين، في «صحيح مسلم» من حديث عمرو بن عبسة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إذا صليت الصبح فأقصر حتى تطلع الشمس، فإنها تطلع بين قرني شيطان وحينها يسجد لها الكفار**»، وقال هذا -أيضًا- في الغروب.

بل نهى عن أن يُصلى بعد العصر؛ لأن هذا الوقت يتصل إلى الوقت الذي يصلي فيه هؤلاء الكفار للشمس، انظر قبل العصر بوقت طويل، وإذا تأملت وجدت أن المصلي ربما إذا صلى في هذا الوقت لا يخطر على باله أن يتوجه إلى الشمس، ولكن هناك احتمال، هناك ذريعة يجب أن تُسد، وإذا كان هذا غير وارد الآن ربما يكون واردًا في المستقبل، الشريعة راعت هذا الأمر أشد رعاية، والشيطان ليس له خطوة إنما له خطوات.

ولأجل هذا ينبغي التنبه -يا إخواني- لهذا الأمر، أيُّ ذريعة توصل إلى الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا ينبغي التساهل فيها، بعض الناس ولا سيما من أعداء أهل التوحيد أو من الجُهَّال الذين يتأثرون بهم يشنِّعون على قاعدة سد الذرائع ويقولون: شددتم على الناس وأوقعتموهم في العنت وأسأتم الظن بالمسلمين، إلى غير ذلك، مع أن -والله- هذا من الرحمة بالمسلمين ومن اليسر على المسلمين ومن تحقيق اتباع النبي ﷺ، الذي يقول هذا أجنبيٌّ عن الفقه، أجنبي على العلم، ما عرف سنة النبي ﷺ وما عرف حرصه ﷺ على سدِّ كل منفذ يوصل إلى الشر، وأعظم الشر: الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذا كانت الشريعة منعت أنواعًا كثيرة من المعاملات من البيوع لأجل أنها قد توصل إلى حصول الشحناء بين المسلمين، مع أن هذا ليس ضربة لازب في كل صورة، لكن لأن الذريعة موجودة فالشريعة سدتها، فكيف بما هو أعظم من ذلك وأعظم وهو الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا: هذا الأمر لا ينبغي التساهل فيه، وإنما يقع الشرك حينما يتساهل الناس في ذرائعه وأسبابه، خذها قاعدة، إذا وجدت الناس حريصين وحازمين ومهتمين بالبعد عن أيِّ سبب يوصل إلى الشرك فأبشر بأنهم على خير، وأنهم على توحيد، وأنهم بعيدون من الوقوع في الشرك بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما إن وجدت التساهل في ذرائع الشرك الفعلية أو الاعتقادية أو القولية فما أقرب العطب، وما أقرب الخلل، والله المستعان!

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما السجود لغير الله تعالى فقد قال ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله».

و(لا ينبغي) في كلام الله ورسوله ﷺ إنما يُستعمل للذي هو في غاية الامتناع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[مريم:٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[يس:٦٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۞ وَمَا يَنْبَغِي﴾[الشعراء:٢١٠ -٢١١]، وقوله: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[الفرقان:١٨].

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذا تنبيهٌ مهم من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أن كلمة (**لا ينبغي**) في نصوص الكتاب والسنة ليست على ما عليه اصطلاح المتأخرين من أن كلمة (لا ينبغي) تُستعمل فيما هو مكروه كراهة تنزيه، هذا بخلاف ما عليه لغة القرآن والسنة، لغة القرآن والرسول ﷺ -كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بدائع الفوائد- هو استعمال (لا ينبغي) يعني هذه الكلمة (لا ينبغي) استعمالها في الممنوع شرعًا وعقلًا، فالممنوع شرعًا وعقلًا هو الذي تأتي الشريعة فيه بكلمة (لا ينبغي)، ومن هذا ما أورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من هذه الأدلة، ومن ذلك السجود لغير الله، فهو محرمٌ أشد التحريم، بل هو شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلذا ينبغي على طالب العلم أن يتنبه إلى حمل الاصطلاحات على محملها، الاصطلاحات التي تجدها عند الفقهاء ينبغي أن تفهمها جيدًا، وأن تفهم ما يقابلها في النصوص وفي كلام السلف، ولا تحمل هذا على هذا إلا بعد التحقق ككلمة (لا ينبغي).

أيضًا كلمة (**المكروه**) فالكراهة في الشريعة أعم من الكراهة في لسان الفقهاء، فالكراهة في النصوص قد تأتي في شأن المحرم وقد تأتي في المكروه كراهة تنزيه، بخلاف ما اطرد عند المتأخرين من الفقهاء.

كذلك الحال في لسان السلف، المكروه عندهم قد يَرِد والمراد المحرم، فمثل هذا ينبغي التنبه له حتى لا يقع الإنسان في الخطأ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن الشرك بالله تعالى المباين لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥] الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره، كما روى الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، صححه الحاكم وابن حبان.

قال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أخبرنا الحسن بن سفيان قال: حدثنا عبد الله بن عمر الجعفي، قال: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن الحسن بن عبد الله النخعي، عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فحلف رجل بالكعبة، فقال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ويحك، لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله تعالى فقد أشرك».

قال الشّارح وفّقه الله:

نبه المؤلف هنا -رحمة الله تعالى عليه- على شأن الحلف بغير الله سبحانه، فإن الحلف بغير الله منكر ومحرم، بل شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما جاء النص عن النبي ﷺ.

والأصل أن الشرك هاهنا هو شركٌ أصغر، وإن كان بعض أهل العلم ذهب إلى أن الحلف بغير الله شركٌ أكبر مطلقًا، لكن الذي عليه الجمهور وهو الصواب إن شاء الله أن الأصل في الحلف بغير الله أنه شركٌ أصغر، وقد يصل إلى درجة الشرك الأكبر إن كان تعظيم المحلوف به في قلب الحالف كتعظيم الله أو أشد، فهذا لا يختلف اثنان في أنه شرك أكبر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهل يمكن أن يقع هذا؟ هل يمكن أن يكون هذا واردًا في إنسان يحلف بغير الله؟ يجعل المحلوف به من نبي أو ولي أو حياة فلان أعظم في نفسه من مقام رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؟

الجواب: نعم، يحصل هذا من المشركين الذين أخبر الله عز وجل عنهم أنهم يحبون أندادهم كحب الله، بل ربما أحبوا أندادهم أعظم من محبة الله.

وأنا قد سمعت هذا من أحد الأشخاص ممن تاب، وأسأل الله عز وجل أن يتقبل توبته، وأن يثبته، تاب من إحدى الفرق الضالة التي هي من أغنى الفرق شركًا بالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ومن أفقرها توحيدًا له، يقول لي هذا الرجل وهو شيخٌ في قبيلته والناس تحتكم إليه ويفصل بينهم في المنازعات، يقول: إنه إذا جاءني الخصمان، فأطلب من المدَّعى عليه أن يحلف، فيحلف بالله ويعطيني ما شئت من الأيمان بالله وأنا أعلم أنه كاذب، فآخذه بيده حتى آتي إلى مشهد أحد الأولياء وأوقفه عنده، عند قبر ولي من الأولياء وأقول: احلف هنا بالسيد، يقول: والله إنه لا يستطيع أن ينبس ببنت كلمة، ما يستطيع أن يحلف، يتلجلج ويقف بعد ذلك ويعترف بالحق، لأن السيد في قلبه عظيم، يخشى إن حلف به كاذبًا أن تنزل به قارعة، أن يصيبه السيد بسوء، أما أن يحلف بالله كاذبًا فما أسهله على لسانه، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

فمن كان حاله كذلك فلا يرتاب المسلم أن هذا قد وصل إلى الشرك الأكبر دون ريب.

المقصود: أنَّ الحلف بغير الله عز وجل منكر، بل شرك كما جاء النص في هذا عن النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح الذي بين أيدينا: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، وجاء في رواية: «**من حلف بغير الله فقد كفر**»، وجاء عند الترمذي بالشك من أحد الرواة: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، وجاء عند الترمذي في نسخة العطف بالواو: «**من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك**». هنا عندنا أربعة ألفاظ مذكورة في كتب الحديث.

فهذا يدلك على أن الأمر عظيم، وأن الحلف بغير الله منكر شنيع، فكيف يستسهل مسلمٌ بعد ذلك أن يجري على لسانه الحلف بغير الله؟ يا لله العجب! تجد بين كل كلمتين: وحياتك يا فلان، والأمانة، أو بالأمانة، ونحو ذلك من هذه، أو النبي، أو بالنبي.

والله إن النبي ﷺ لو سمعك يا عبد الله لاشتد غضبه عليك، لأنك عصيت الله وعصيته هو ﷺ، ففي الصحيحين قال ﷺ: «**إن الله ينهاكم عن أن تحلفوا بآبائكم**»، وكلمة (بآبائكم) هنا لا مفهوم لها، إنما جات على الغالب، لأن الغالب أن أهل الجاهلية يعظمون آباءهم فيحلفون بهم.

«**إن الله ينهاكم عن أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»، إن كنت حالفًا احلف بالله أو اسكت، لا يجوز لك أن تحلف بغيره.

وفي حديث قُتيلة الجهنية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن يهوديًا أتى إلى النبي ﷺ وقال: إنكم تشركون وإنكم تنددون، تقولون: والكعبة، وتقولون: ما شاء الله وشئت، فأمر النبي ﷺ إذا حلف الإنسان أن يقول: ورب الكعبة، وأمر أن يقول الإنسان: ما شاء الله ثم شئت.

إذًا: أقر النبي ﷺ هذا اليهودي على وصفه هذا القول بأنه شرك. ويا لله العجب من أن من اليهود من يعرف الشرك الأصغر ومن بعض المنتسبين إلى الإسلام من يجهل الشرك الأكبر! هذا أمر مؤسف والله! يهودي وعرف أن هذا شرك، وبعض الناس ليس فقط يحلفون بغير الله، بل يستغيثون ويذبحون وينذرون لغير الله، ويدَّعون الجهل بأنه شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذلك ثبت عند أبي داود أن النبي ﷺ قال: «**من حلف بالأمانة فليس منا**»، والشأن بالحلف بغير الأمانة كالشأن بالحلف بالأمانة، فلا فرق، كل ما سوى الله عز وجل فإن الحكم فيه واحد لا يجوز أن يُحلف به.

وثبت -أيضًا- عند عبد الرزاق وغيره عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وإسناده صحيح، بل في أعلى درجات الصحة- أنه قال: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا**»، سبحان الله العظيم!

أترى أنَّ الأمر هيِّن أن يحلف الإنسان بالله كاذبًا؟ والله إنها لسيئة عظيمة، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما تكلم بهذا الكلام يستحضر شناعة هذا الأمر، فهو الذي روى عن النبي ﷺ قوله: «**من حلف على يمين كاذبًا ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»، تحلف بالله كاذبًا تلقى الله وهو عليك غضبان، هذه يمين شنيعة، هذه يمينٌ غموس تغمس في الإثم ثم في جهنم، عافاني الله وإياكم!

من حلف بالله كاذبًا على أمرٍ ماض وهو يعلم فهذه يمين غموس، تغمس في الإثم ثم في جهنم والعياذ بالله! ومع ذلك يقول: هذه عندي أهون من أن أحلف بغيره صادقًا، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة، كما أن حسنة التوحيد أعظم من أيِّ حسنة، أعظم من حسنة الصدق.

إذًا: هذا كله -يا رعاك الله- يدل على أن الحلف بغير الله لا يجوز، نزِّه لسانك -يا عبد الله- عن أن تحلف بغير الله، فالأمر - والله- عظيم، وعلينا -يا معشر المسلمين ولا سيما طلاب العلم- أن ننبه وأن نحذر، وأن نأمر وأن ننهى، وبذلك ينحسر الشر، أما أن نسكت ونحن نسمع من يحلف بغير الله ولا نحرِّك ساكنًا هذا من ضعف الغيرة على محارم الله جل وعلا.

أخرج أبو نعيم في الحلية: أن زياد بن حُدير رَحِمَهُ اللَّهُ -أحد التابعين- سمع رجلًا يحلف بالأمانة فبكى وبكى. جلس يبكي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقيل له في ذلك، فقال: لأن تُحكَّ أحشائي حتى تدمى أحب إلي من أن أحلف بغير الله. عظُم عنده أن يُحلف بغير الله فبكى تعظيمًا لحرمات الله وغيرة على حرمات الله، ولا سيما ما يتعلق منها بجناب التوحيد، فهذا من الأمور التي ينبغي أن يتواصى بها المسلمون.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن الإشراك قول القائل لأحد من الناس: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده». هذا مع أن الله سبحانه قد أثبت للعبد مشيئة، كقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:٢٨]، فكيف بمن يقول: أنا متوكلٌ على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض؟ وازن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين ما نهى عنه من: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيها أفحش؟؛ يتبين لك أن قائلها أولى بالبعد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، وبالجواب من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ ندًا فهذا قد جعل من لا يدانيه لله ندًا.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى خطأ آخر وتنبيه مهم، إلى بعض الألفاظ التي لا يجوز للمسلم أن يتفوه بها ألا وهي أن يقول إنسان: ما شاء الله وشئت، وأورد لنا -جزاه الله عنا خيرًا- حديث مسند أحمد وفيه أن النبي ﷺ قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال ﷺ: «**أجعلتني لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده**»، وهذا حديث صحيح صححه ابن القيم في المدارج وحسنه العراقي وغيرهم من أهل العلم.

وهذا يدلك على أن هذه التسوية تسوية منكرة، تسوي بين الله وبين النبي ﷺ في اللفظ هذا منكرٌ لا يجوز، واستحضِر معي أنَّ هذا الصحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي قال هذه الكلمة لا يُظن به البتة أنه سوَّى بين النبي ﷺ وربِّه في المكانة والمنزلة والمُقام، إنما هو تسوية في اللفظ فقط، ومع ذلك غضب النبي ﷺ وأنكر عليه: «**أجعلتني لله ندًا؟**»، إذًا: هذا يدلك على أن حسن القصد لا يكفي، بل لابد أن تنضبط الأقوال والأعمال وِفْق ميزان الشرع.

بعض الناس يقولك أنتم تشددون، العبرة بالنية، أنا قصدي طيب، أنا أتكلم بهذه الكلمات وهي تجري على لساني وأنا لا أريد بها ما تريدون. هذا الصحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أحسن منك قصدًا وأسلم منك قلبًا

ومع ذلك النبي ﷺ أنكر عليه مجرد هذا اللفظ، لا يجوز لك أن تتلفظ بهذه الألفاظ التي تخدش في جناب التوحيد، («**ما شاء الله وشئت**») هذا فيه تسوية بين الله وبين النبي ﷺ في المشيئة، وأين مشيئة الله عز وجل من مشيئة عباده؟ مع ثبوت المشيئة، لكن لا يجوز أن يُجعلا على قدم المساواة، بل مشيئة الله عز وجل أعظم، ولذا في هذا المقام عندنا ثلاث أحوال:

قول («**ما شاء الله وشئت**») هذا منكر ومحرم ولا يجوز، بل عدَّه ابن عباس رضي الله عنهما من الشرك.

الحال الثانية: أن يقول الإنسان: (ما شاء الله ثم شئت) هذه الحال جائزة، هذا قول لا بأس به، والفرق واضح بين الواو التي تفيد التسوية، وبين (ثم) التي تفيد الترتيب مع المهلة.

والأكمل – وهو الحالة الثالثة– أن يقول الإنسان: ما شاء الله وحده، هذا أكمل وهذا أعظم أدبًا مع مقام ربنا جل وعلا أن يقول الإنسان: ما شاء الله وحده.

ونبَّه المؤلف رحمه الله أنَّ مثل هذه الكلمات هيِّنة مع إنكار النبي ﷺ على قائليها، لكن كيف إذا قورنت بغيرها من الكلمات كقول: أنا متوكل على الله وعليك، لا يجوز، حتى قول: (أنا متوكل على الله ثم عليك) لا يجوز، التوكل عبادة تُصرف لله عز وجل، وإن كان بعض أهل العلم رخص في ذلك لكن الصواب أن هذا لا يجوز، فالتوكل عبادة، تقول: أنا متوكل على الله وموكِّلٌ لك. التوكيل لا بأس به، أما التوكل فإنه اعتماد وتفويض قلبي هذا يجب أن يكون لله عز وجل وحده، لا يجوز أن يُعلَّق بمخلوق.

كذلك: أنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، ولا شك أن هذه كلمات منكرة، فأين هؤلاء الذين يقولون ما هو أشنع وأعظم! سبحان الله العظيم! ما أبعد هؤلاء عن حقيقة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾[الفاتحة:٥]، يعني حينما يقول ذاك في همزيته يخاطب النبي ﷺ:

هذه علتي وأنت طبيبي ... ليس يخفى عليك في القلب داء

سبحان الله! بالله لو سمعها النبي ﷺ ماذا كان قائل وهو الذي أنكر على إنسان قال فقط: ما شاء الله وشئت، وهذا يقول:

هــــذه علــــتي وأنـــت طبـــيبي ... لـيس يخفـى عليـك في القلـب داء

أنت تعلم كل ما في القلوب.

أو ذاك –وهو نفسه- حينما يقول في ميميته:

يـا أكـرم الخلـق مـالي مـن ألـوذ بـه ... سـواك عنـد حلـول الحـادث العَمِـم

فـإن مــن جـودك الـدنيا وضـرتها ... ومــن علومــك علــم اللــوح والقلــم

ماذا -بربكم- كان النبي ﷺ قائلًا له وهو يسمع هذا الكلام؟ ماذا كان قائلًا وهو يسمعه يقول في حقه:

لـــو ناســـبت قـــدْرَه آياتُـــه عِظَمًـــا ... أحيـا اسمُـه حـين يُـدعى دارس الـرِّمَم

والله ما قالها في حق الله، انظر إلى سوء الأدب، يعتقد أن النبي ﷺ ما أعطاه الله الآيات المناسبة له ولا أعطاه من البراهين ودلائل النبوة ما يليق به.

لـــو ناســـبت قـــدْرَه آياتُـــه عِظَمًـــا ... أحيـا اسمُـه حـين يُـدعى دارس الـرِّمَم

إذا قيل عند ميِّت (محمد) كان ينبغي أن يقوم هذا الإنسان الميت، وهذا –والله- ما اعتقده في ربنا جل وعلا.

ماذا كان النبي ﷺ قائلًا لو سمع مثل هذا الكلام ؟ ماذا أمام أقوال كثيرة هي إذا قارنتها بما شاء الله وشئت والله إنها لا تساوي شيئًا.

فبهذا تعلم مَن الذي حقق قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥] ومن هو بعيدٌ عن هذه ثم بعد ذلك اختر لنفسك.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبالجملة: فالعبادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥] هي السجود، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتوبة، والنذور، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبدًا، والدعاء، كل ذلك محض حق الله تعالى.

قال الشارح وفقه الله:

العبادة بجميع أنواعها محض حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **وضابط العبادة: هو أن يكون القول أو الفعل أو الاعتقاد مما يحبه الله ويرضاه.** إذا علمت في شيء أن الله يحبه ويرضاه لنا -يعني: يشرعه لنا- فاعلم أنه عبادة، العبادة: اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

إذًا: هذا هو الميزان، إذا علمت في شيء أن الله يحبه ورضيه لنا فاعلم أنَّه عبادة، وبالتالي فإنه حقٌّ خالصٌ لله رب العالمين لا يجوز أن يُعطى ولا يؤدَّى لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي مسند الإمام أحمد: أنَّ رجلًا أُتِي به النبي ﷺ قد أذنب ذنبًا، فلما وقف بين يديه قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال ﷺ: «عرف الحق لأهله». وخرجه الحاكم من حديث الحسن عن الأسود بن سريع وقال: حديث صحيح.

٭٭٭

قال الشارح وفقه الله:

هذا الحديث معناه صحيح وإسناده غير صحيح، وفيه أن هذه الكلمة لا تجوز، أن يقول الإنسان: (أتوب إلى رسول الله) هذا أمرٌ لا يجوز، الله جل وعلا يقول: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[النور:٣١]، التوبة إلى الله لا إلى المخلوق، لا إلى النبي ﷺ فمن دونه.

فمعنى الحديث صحيحٌ لا شك فيه، ويا لله العجب من حال أناس ليس يتوبون إلى النبي ﷺ، بل إنهم يطلبون منه المغفرة والله يقول: ﴿**وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ**﴾[آل عمران:١٣٥]. فاسمع ولتقرأ لحال هؤلاء الغلاة في النبي ﷺ وفي غيره من الأولياء شيئًا من هذا، كما يقول قائلهم:

يا رسول الله يا ذا الفضل يا ... بهجة في الحشر جاهًا ومقاما

عُد على عبد الرحيم الملتجي ... في حمى عزك يا غوث اليتامى

وأقلني عثرتي يا سيدي ... في اكتساب الذنب في خمسين عاما

يطلب ممن يا إخواني أن يغفر له ذنوب خمسين سنة؟ من النبي ﷺ. أين هذا من حال هذا الرجل الذي قال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد ﷺ، فقال: «عرف الحق لأهله» إن صح هذا الحديث عن النبي ﷺ. أين هذا من قول الله جل وعلا: ﴿**وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ**﴾[آل عمران:١٣٥]؟

أين هذا ممن قال: ما شاء الله.. حينما قال الرجل: (ما شاء الله وشئت) غضب وأنكر عليه النبي ﷺ.

أين هذا ممن قال للنبي ﷺ: يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال النبي ﷺ: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان**»، مع أن هذه الكلمات لا بأس فيها، السيد، هو سيد

ولد آدم ﷺ، وهو خير الناس دون شك، ومع ذلك خشي النبي ﷺ من الاسترسال في هذا الأمر حتى يوقع هذا الغالي الشيطان في الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما وقع فيه هؤلاء.

ولذا كثيرٌ من الممادح والقصائد التي في مدح النبي ﷺ تجد أنواع من الغلو فيه ﷺ، منه ما مكون محرمًا ومنه ما هو شرك كما وقع في كلام هذا وأمثاله، والله المستعان!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الشرك في الإرادات والنيات: فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقَلَّ من ينجو منه، فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى لم يقم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

فاستمسك بهذا الأصل، ورد ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه تحقق معنى الكلمة الإلهية.

قال الشارح وفقه الله:

عطف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ما بيَّن من بعض صور الشرك الأصغر صورة ذات خطرٍ منه وهي المتعلقة بشرك الإرادات والنيات.

فبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذا الشرك هو البحر الذي لا ساحل له، وقَلَّ من ينجو منه. وصدق، فإنَّ هذا النوع من الشرك له ألوان وله صور، وهو غايةٌ في الخفاء، ويَرِد على الإنسان في الساعة الواحدة من أوجهٍ متعددة، وقد جاء تسميته في النصوص بشرك السرائر وبالشرك الخفي وبالشرك الأصغر أيضًا.

فهذا مما عظمت به البليَّة، وندر من ينجو منه، لا ينجو من حبال هذه الشبكة القاتلة إلا الموفقون ممن جردوا توحيدهم وتفريدهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذا الشرك ينافي الإخلاص، والإخلاص أساس العمل الصالح مع المتابعة، فالعمل الصالح إنما هو العمل الخالي من الرياء ومن إرادة الدنيا والمقيَّد بالمتابعة، فهذا هو العمل الذي يقبله الله جل وعلا، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[المائدة:٢٧]، والتحقيق في تفسير هذه الآية: أنَّ الله إنما يتقبل العمل ممن اتقاه فيه، وتقواه فيه أن يكون عمله لله متبعًا فيه هدي رسول الله ﷺ.

والله جل وعلا ما أمر العباد أن يعبدوه كيفما اتفق، إنما على العباد أن لا يعبدوا إلا الله، وأن لا يعبدوه إلا بما شرع رسوله ﷺ، وبهذين الأمرين يتحقق للعبد الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

إذن: لا يمكن أن يكون العمل مقبولًا إلا بتحقيق هذين الشرطين، وإن شئت فَقُل: الركنين.

شرط قبول السعي أن يجتمعا فيه إصابة وإخلاصٌ معا

وكان عمر رضي الله عنه يدعو الله جل وعلا -كما أخرج الإمام أحمد في الزهد- كان يقول: «**اللهم اجعل عملي صالحًا، ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا**»، فهذا هو العمل المقبول الخالص لله الموافق لسنة رسوله ﷺ.

هذا الشرك الذي أشار إليه الشيخ رحمه الله يُضادُّ الشرط الأول من شرطي قبول العمل الصالح وهو الإخلاص، ويتفرع إلى صورتين:

الصورة الأولى: هي الرياء.

والصورة الثانية: إرادة الدنيا بالعمل الصالح.

يتفرع عن شرك النيات والإرادتان هاتان الصورتان: الرياء، وإرادة الدنيا بالعمل الصالح.

أما الرياء فإنه من الرؤية، وهو أن يقصد العامل بعمله غير وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بمعنى: أنه يعمل ولا يريد ثواب الله ولا يريد رحمته، أو يريد ذلك ويريد معه مدح الناس وثناءهم وبلوغ الزلفى لديهم. فهذا هو الرياء، وهو الذي جاء في السنة تسميته بالشرك الأصغر، ففي حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء**».

كما وصفه النبي ﷺ بالشرك الخفي، قال ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عندي عليكم من الدجال؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل**».

كما جاء -أيضًا- في حديث محمود بن لبيد -أيضًا- تسميته بشرك السرائر.

فإذا كان حال هذا الرياء بهذه المثابة فهو شرك أصغر وخفي وهو شرك السرائر؛ فإنه مؤذنٌ بحبوط العمل وعدم قبوله، كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى لم يقم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل الله من أحد غيرها**).

وهذا المقام يحتاج إلى تفصيل، أعني: في عدم قبول عمل المرائي، ويتضح ذلك من خلال ما يأتي:

الأمر الأول: كلامنا عن الرياء إنَّما هو في الرياء الأصغر الذي يقع من المسلم في بعض أعماله، أما الرياء الأكبر الذي هو رياء المنافقين فهو شركٌ أكبر، وهو واقعٌ في أصل الدين وفي فروعه، وقد وصف الله جل وعلا المنافقين بهذا الرياء: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ**﴾[النساء:١٤٢]، فهذا الرياء لا شك أنه شركٌ أكبر وليس هو محلَ بحثنا.

الأمر الثاني: أن الرياء إذا كان في قلب الإنسان خالصًا، بمعنى: أنه لا يريد إلا مدح الناس فحسب بهذا العمل، بمعنى: أنه لا يريد مدح وثناء الله جل وعلا وإثابته، لا يَرِد هذا على قلبه، إنما يريد فقط مدح الناس وثناءهم، فهل يُتصور هذا من المسلم؟ هذا محل بحث عند أهل العلم.

فمن أهل العلم من قال: إن هذا لا يُتصور حصوله من مسلم، فإن وقع منه فقد وقع في الشرك الأكبر، يعني: يقوم فيصلي أو يتصدق وهو لا يريد وجه الله البتة، إنما يريد ثناء الناس ومدحهم، قال بعض أهل العلم: هذا لا يُتصور من المسلم، لابد أن يكون المسلم مريدًا لوجه الله والدار الآخرة ويشارك ذلك -إن حصل- نية إرادة وجوه الناس.

وقال بعض أهل العلم: إن هذا مما يمكن تصوره في بعض الأعمال ولا يُتصور في أعمال أخرى، فالصوم لا يُتصور حصوله من صاحبه، لكن في مثل الصدقة والحج يمكن أن يَرِد مثل هذا.

وعلى كل حال، هذا الموضع موضعٌ مخوف، وما أقرب من وقع في هذه الحال من حال المنافقين.

الصورة الثالثة: أن يقصد الإنسان وجه الله مع غيره في أصل العمل، يعني: أن يكون الرياء في أصل العمل، بمعنى: أن يبتدئه مرائيًا، يقوم يريد أن يصلي لأجل أن يُرِي الناس أنه مصلٍّ، فالرياء هاهنا نشأ مع العمل وشارك أصله، وهذا لا شك في بطلانه وحبوط أجره، وهذا مما اتفق السلف عليه، فمتى ما شاركت نية الرياء أصل العمل فالعمل حابطٌ بلا خلاف، وإن خالف في هذا بعض المتأخرين لكنه خلاف محجوجٌ بإجماعٍ متقدم عليه وهو إجماع السلف كما نقل هذا غير واحد من المحققين.

والصورة الرابعة: هي الرياء الطارئ، يعني: يدخل في العمل مريدًا به وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن أثناءه يطرأ عليه الرياء، وهذا أكثر ما يقع في عبادات المرائين من المسلمين، أن يَرِد عليهم في أثنائه هذا الوارد، وهذه الصورة لها حالتان:

أن يكون هذا الوارد مجرد خاطرٍ ويمر، يدفعه صاحبه، يعني وهو يصلي مر بجواره شخص ممن يقدرهم ويحترمهم فبدا له أن يزيِّن عمله ويطيل صلاته أو يظهر التخشع، ثم إنه استذكر مباشرة ونفى عن نفسه هذه النية، فهذا لا شك أنه لا يضره بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن مثل هذا الخاطر معفوٌّ عنه كما دلت على هذا أدلة صحيحة من سنة النبي ﷺ.

أما إن كان هذا الوارد قد استرسل معه صاحبه، طرأ عليه قصد غير وجه الله عز وجل فاستمر معه واسترسل معه، فهذا مما حصل فيه خلافٌ بين أهل العلم، لكن ينبغي أن تعلم أن محل البحث في هذه الصورة إنما هو في عملٍ يتصل أوله بآخره، أما الأعمال التي هي أجزاءٌ مستقلة متلاحقة فإنه لا يَرِد فيها هذا الخلاف، بمعنى: أن هذا الخلاف يَرد في صلاة، يَرِد في صدقة، يرد في صوم، يرد في حج، أما في مثل التسبيح أو تلاوة القرآن فإن كل تسبيحة وكل تحميدة عملٌ مستقل، فما مضى على الإخلاص فهو مقبول، وما طرأ عليه الرياء فهو مردود.

لكن بحثنا في عملٍ يتصل أوله بآخره، مرتبطٌ بعضه ببعض.

قالت طائفة من أهل العلم: إن العمل لا يبطل أخذًا بالنية الأولى، فأصل نيته لوجه الله ولا يضره هذا الطارئ. وهذا القول ضعيف.

القول الثاني: أنه يبطل عمله، لأن هذا العمل ارتبط أوله بآخره، والرياء كالناقض، كنواقض الطهارة، متى ما ورد ناقض الطهارة على العمل، على الصلاة -مثلًا- في آخرها هل نقول بطلت الصلاة كلها أو نقول إنها لا تبطل لأنه جاء في الأخير؟ نقول: تبطل الصلاة كلها.

والقول الثالث: هو أنه يُثاب على ما مضى وهو مخلصٌ، ويحبط أجر ما خالطه الرياء. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فدل هذا على أن ما خالطه الرياء حابط ومردودٌ على صاحبه، لقول ربنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

وسئل النبي ﷺ -كما عند النسائي بإسناد جيد- عن الرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فقال النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه**»، وهذه قاعدة عامة لا ينبغي أن تُنسى، بل ينبغي استصحابها في كل الأعمال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه.

والرياء إن خالط العمل لا يصح أن يوصف بأنه خالصٌ لوجه الله، فدل هذا على أنه حابط ولا يُقبل، ويبقى بعد ذلك الخلاف فيما يُقبل من هذا الجزء الذي كان مخلَصًا أو لا يُقبل؟ على الخلاف الذي ذكرته لك.

يبقى بعد ذلك صورة خامسة وهي: الرياء اللاحق بعد العمل. وهل هذا موجود؟ هل يمكن أن يكون هناك رياء بعد انتهاء العمل؟ أطلق بعض أهل العلم ذلك وقالوا: إن الرياء يمكن أن يلحق بالعمل بعد انتهائه.

وقال بعض أهل العلم: إن هذا لا يسمى رياء، فالرياء ما صاحب العمل، أما ما مضى وانتهى فلا يلحقه الرياء، لكن اسمه السُّمْعة، وثبت في الصحيح قوله ﷺ: «**من راءى راءى الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به**» يعني: فضحه وهتك ستره يوم القيامة.

فهذا التسميع هو الذي يلحق بعد العمل، وما يكون بعد العمل له صورتان:

الصورة الأولى: أن يظهر العمل بغير إظهارٍ من صاحبه، يعني: يكون قد صلى لله في الليل مريدًا وجه الله ويظن أنه لا أحد يطلع عليه، والواقع أن أحدهم كان يطلع عليه، ثم لما أصبح أخبر الناس بهذا، فهذه الصورة لا أثر لها في حبوط الأعمال، وإن صاحب ذلك سرور في قلب الإنسان، فإن كان هذا السرور ابتهاجًا بفضل الله عليه، وسرورًا بأن الله ستر القبيح وأظهر الحسن، ويرجو أن يكون فعله سبحانه معه في الآخرة كذلك؛ فمثل هذا لا حرج فيه ولا يضره، بل يُرجى أن يكون هذا من عاجل بشرى المؤمن كما ثبت هذا عن النبي ﷺ.

أما إن كان هذا الإظهار من فعله، يعني: أنه صلى ثم لما أصبح بدأ يتحدث، يقول: البارحة صليت، والبارحة تصدقت، والبارحة فعلت وفعلت، فهل هذا مؤثر في قبول العمل أم ليس مؤثرًا في قبول العمل؟

هذه المسألة محل خلاف بين أهل العلم، فمنهم من قال: إن هذا التسميع ينقص الأجر ولا يحبطه، يعني: يؤثر في الثواب إنقاصًا لا إحباطًا.

ومنهم من قال: إنه محبطٌ للعمل، فإنه يبعد أن يُعاقَب على ذلك بأن يسمِّع الله عز وجل به يوم القيامة ثم بعد ذلك يُثاب على هذا العمل، فإن هذا فيه شيءٌ من البعد، والحديث مؤذنٌ بأن هذا العمل قد حبط أجره، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال، غالبًا ما تكون حال هذا الإنسان من الأصل ليست خالصة، يعني: الشخص الذي يقوم فيتحدث بأعماله الصالحة ويقول فعلت فعلت ويتزين بذلك في أعين الناس في الغالب أن نيته في الأصل ليست خالصة، وبالتالي فيكون قد أثَّر على عمله إما ابتداءً وإما انتهاءً، والله تعالى أعلم.

هذه الأحوال التي تتعلق بموضوع الرياء الذي هو أحد شِقَّي شرك المقاصد والنيات والإرادات.

أما الشق الثاني: وهو إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا فهذا مما عمَّ البلاء به والله المستعان! ولكن -أيضًا- يتعلق بهذا الشق من الموضوع صور بها يُفهم الموضوع.

أولًا: قصد الدنيا بالعمل الصالح فحسب، لاحظوا الفرق بين هذا وما قبله.

هذه الصورة أو هذا الشق: إرادة الدنيا بالعمل الصالح، يعني: أن الإنسان يريد بالعمل الصالح تحصيل شيء من الدنيا، يريد تحصيل مال، يريد تحصيل وظيفة، يريد تحصيل مسكن، يريد تحصيل شيء من حطام الدنيا، ولا التفات له إلى مدح الناس وثنائهم، مدحوه أو ذموه لا يلتفت إلى هذا، إنما هو يريد شيئًا من الدنيا، بعكس الحالة الأولى فهو لا يقصُد شيئًا من متاع الدنيا، إنما هو يقصُد مدح الناس وثناءهم، وإن كان الموضوعان متقاربان يجمعهما إرادة غير وجه الله سبحانه وتعالى.

أقول: الصورة الأولى أو الحالة الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمله لا غير، يعني: يعمل العمل الصالح ويريد به تحصيل الدنيا فحسب، فهذا لا شك أنَّ صاحبه قد أحبط عمله ولا ثواب له في هذا العمل، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٥-١٦].

إذن: من أراد بعمله الدنيا فحسب فهذا لا شك أن عمله حابط، بل يُخشى أن يصل حاله إلى حال المنافقين فيكون واقعًا في الشرك الأكبر.

الحالة الثانية: قصد ما هو من لوازم العمل ومن ضروراته، وهذه صورة مهمة لوقوع خلاف يسير فيها، والصواب ما سأذكره إن شاء الله وهو ما عليه أكثر أهل العلم.

أن يقصد الإنسان شيئًا هو من ضرورات العمل، وهو من لوازمه التي تلزمه، فهذا الذي قصده حاصلٌ تلقائيًا كما يقولون، قصده أو لم يقصده، كمثل إنسان يتوضأ ويريد بذلك العبادة ويريد بذلك -أيضًا- التنظف، على يده أو على وجهه وسخ يريد إزالته، فهو يقصد الأمرين، والحقيقة أن التنظف حاصلٌ قصده أو لم يقصده، أو أنه يصوم يريد بالصوم وجه الله ويريد بذلك -أيضًا- حصول الحمية أو حصول التداوي بالتوقف عن الطعام، فهذا حاصلٌ تلقائيًا قصده أو لم يقصده.

والصحيح أن هذا لا يؤثر في العمل لا حبوطًا ولا نقصًا إن شاء الله، فما الضرر في أن يُقصد العمل بضروراته وبلوازمه؟

الصورة الثالثة: قصد ما أذن الشرع في قصده.

ثمة صور جاء في الشريعة إباحة قصدها -يعني من أمور الدنيا- بالعمل الصالح، كمثل الغنيمة في الجهاد، فالنبي ﷺ -مثلًا- يخاطب أصحابه فيقول: «**من قتل قتيلًا فله سلبه**» فمثل هذا ما قاله النبي ﷺ إلا لأجل أن يُقصد ويُطلب، وبالتالي ما كان النبي ﷺ ليدلهم على شيءٍ فيه إبطال أعمالهم، فدل هذا على أن قصد ما أذن الشرع في طلبه من أمور الدنيا مع العمل الصالح لا بأس به بشرط أن يكون القصد الأخروي هو الغالب، ويكون القصد الدنيوي قصدٌ ضمني، يعني: في ضمن القصد وفي ضمن ما يطلب، ولكنَّ الأهم عنده والغالب على نفسه هو إرادة وجه الله سبحانه وتعالى، فمثل هذا لا يضره إن شاء الله.

كذلك من حج وأراد بهذا السفر أن يحج وأن يتاجر أثناء الحج، فهذا -أيضًا- لا بأس به، ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[البقرة:١٩٨] وأمثال هذا في مواضع دلت عليها الشريعة.

الصورة الرابعة: أن يقصد ما لم يأذن الشرع به، أن يقصد من الدنيا ما لم يأتِ دليلٌ من الشريعة أنه يُقصد، كمثل من يطلب العلم ومراده أن يحصل المكافأة التي تُعطى لطالب العلم، بحيث أن هذه النية مؤثرة، لو مُنِع منها لما توجه للعمل، أو يؤمّ ومراده المكافأة أو تحصيل السكن، أو يؤذن وهذا هو مراده تحصيل الدنيا بحيث إنه لو قيل إنه لا إثابة دنيوية على هذا بمكافأة ومسكن ونحو ذلك فإنه لا تتحرك نفسه إلى إرادته.

فالصواب في هذه الصورة: أنَّ هذا محبطٌ للعمل؛ لأن القاعدة بيَّنها نبينا ﷺ: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه**»، ويقول نبينا ﷺ -أيضًا-: «**من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرْف الجنة يوم القيامة**» يعني: ريحها، في نصوص كثيرة.

فدل هذا على أن إرادة الدنيا بالعمل الصالح فيها من الخطورة الشيء العظيم، وهذا مما ينبغي أن يحذره المسلم ولا سيما المتصدي للوظائف الدينية، كالتعليم والإمامة والأذان وما إلى ذلك، فكم يعرض في هذا المقام من العوارض، والله المستعان! نسأل الله عز وجل عفوه.

الصورة الخامسة: أن يعمل الإنسان العمل لوجه الله ويجعل الدنيا وسيلة لتحصيل هذا العمل، وهذا فرقانٌ مبين بين المخلص وغير المخلص، هذا رجلٌ يريد وجه الله بالعمل الصالح لكنَّه يأخذ من الدنيا وقصده أن يكون ما أخذه وسيلة لتحصيل العبادة، لتحصيل الطاعة، وهذا ما عبَّر عنه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اختياراته بأنه يأخذ ليؤم وليس يؤم ليأخذ. فرقٌ بين الأمرين، فرقٌ بين من أمَّ ليأخذ المال، هذا الأقرب أنه ليس له في الآخرة من خلاق ولا يُثاب على عمله، أما من أخذ ليؤم، من جعل هذا المال الذي يُعطاه وسيلة للقيام بهذا العمل لأنه لو لم يأخذ فإنه لا يستطيع أن يتفرغ لأدائه، سينشغل بالتجارة أو بالوظيفة والدنيا، لكنه محتاج إلى هذا الأخذ لأجل أن يحقق العبادة، ففرقٌ إذًا بين من أمَّ ليأخذ ومن أخذ ليؤم، ومن أذن ليأخذ ومن أخذ ليؤذن، ومن حج ليأخذ ومن أخذ ليحج، ومن علَّم ليأخذ ومن أخذ ليعلِّم، وهكذا في صورٍ كثيرة، فمثل هذا لا حرج فيه إن شاء الله.

فهذه الأرزاق التي تسمى رضخًا أو رزقًا من بيت المال، أو المكافآت التي تُعطى في الجامعات أو في المعاهد أو نحوها، أو ما يتسلمه المؤذن والإمام، إن أحسن قصده فيه وجعل نيته أن هذا المال وسيلة للقيام بهذا العمل فمثل هذا لا حرج عليه فيه إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

إذن: هذا هو الذي يتعلق بشرك الإرادات والنيات على وجه الاختصار.

أعودُ فأقرأُ ما ذكر الشيخ قال: (**فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى لم يقم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم**)، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣]، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[البقرة:١٣٥].

ومعنى (حنيفًا) الحنيف هو المائل، الحَنَف هو الميل، ولذا يقال: فلانٌ أحنف، يعني: فيه ميل في ساقيه، فيه انحراف في الساقين، فالحنف هو الميل، وإبراهيم عليه السلام كان حنيفًا، يعني: مائلًا من الشرك إلى التوحيد، فإبراهيم عليه السلام قد حقق أعلى درجات التوحيد وحقق غاية ما يكون عليه الموحد ولم يَفُقْهُ في هذا إلا نبينا ﷺ، فاستحق هو ونبينا ﷺ أن يكونا خليلي الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهو ليس في قلبه إلا إرادة وجه الله عز وجل، كما وصفه ربنا سبحانه: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات:٨٤]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:١٣١]، فهو قد جاء ربه بقلبٍ سليم، سَلِمَ لله عز وجل وسلَّم لله عز وجل، فهو لا يريد إلا ما يريده الله، ولا يفعل إلا ما أمر الله به، ولا يوالي ولا يعادي إلا في الله سبحانه وتعالى، فمثل هذا هو الذي يكون متبعًا لإبراهيم قد أخذ الحنيفية، والله عز وجل إنما أمر العباد كلهم بهذه الحنيفية، هي التي خلقهم الله عز وجل من أجلها، وهي التي أمرهم الله عز وجل بها.

فالحنيفية: يعني أن تحقق أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، الحنيفية أن تحقق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، فكل عبادتك وكل إرادتك وكل توكلك واعتصامك وثقتك وتفويضك إنما هي بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبهذا تتحقق الحنيفية التي بها النجاة، وهذا ولا شك يتنافى مع حصول هذا الشرك في النيات والإرادات والمقاصد.

قال: (**وهي حقيقة الإسلام: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥]، فاستمسك بهذا الأصل، ورد ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه تحقق معنى الكلمة الإلهية**)، ينبه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن للمبتدعة والمشركين لهم شُبَهٌ ولهم علوم كاسدة ولهم تلبيسات، فلا يظن ظان أن الحق ليس على طريقه أعداء قاعدون على جنبتيه يُلَبِّسُون، بل ويقطعون الطريق على السالك في هذا الطريق، كلا، بل أهل البدع والشرك وأعداء التوحيد كثيرون لا كثَّرهم الله، يقعدون كل مرصد لأهل التوحيد يلبِّسون ويبثُّون الشُّبَه، يبثون التلبيسات، يشبهون على الناس ويلبِّسون عليهم، فعلى الإنسان أن يعتصم بالقواعد والأصول والمحكمات من الشريعة، فإذا وردَ عليه وارد من هؤلاء والأولى به أن لا يلتفت إليهم ولا يستمع لهم البتة، لكن إن ابتُلي فعليه أن يرد الذي أشكل عليه إلى هذه الأصول والمحكمات، سواء فَهِمَ جواب هذا التلبيس أو لم يفهمه، لا يضره، فهذا متشابهٌ يبقى متشابهًا، ولكن المحكم الواضح هو أن يُعبد الله وحده، وأن يُتبع نبيه ﷺ، فكل ما خالف ذلك وإن دَقَّ فإنه متشابه ويعتقد الإنسان جزمًا أنه مردود وأنه باطل وإن كان لا يعرف جواب ذلك تفصيلًا.

إذن: لتستصحب معك دائمًا هذه القواعد، قواعد التوحيد، أصول المعتقد الصحيح استصحبها دائمًا وغذِّها واسقها في قلبك حتى تكون راسخة كالجبال، وبالتالي مهما ورد عليك وارد من هذه الإيرادات الباطلة فإنها لا تضرك بإذن الله، تبقى شيئًا مشكلًا، تبقى شيئًا مشتبهًا ومع الوقت يزول، بالسؤال يذهب، لكن لا يجعلك تتردد وترتاب كما يفعل من لم يكن اعتقاده قائمًا على ساقٍ راسخة، أدنى ريح وأدنى شبهة تميله، فاليوم هو على معتقد وغدًا على معتقد آخر، وربما بعد غد على معتقد ثالث، هذا ليس حال أهل الحنيفية، أهل الاتباع الصادق، أهل التوحيد الخالص.

فهذا تنبيهٌ لطيف من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكن منه على ذُكْرٍ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

فإن قيل: المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء، كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]، وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدخل بي عليه، فهو الغاية وهذه وسائل، فلم كان هذا القدر موجبًا لسخط الله تعالى وغضبه، ومخلدًا في النار، وموجبًا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟ وهل يجوز في العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط، أم ذلك قبيحٌ في الشرع والعقل، يمتنع أن تأتي به شريعة من الشرائع، وما السر في كونه لا يغفر من بين سائر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]؟

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا النقل من قوله: (فإن قيل) أخذه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ من كلام ابن القيم في الجواب الكافي باختصار.

هذا سؤال يطرحه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يتضمن ثلاثة أمور:

أولًا: إنَّ المشرك ظاهر حاله أنه يريد تعظيم الله لا الاستهانة بحقه، فلم عوقب بالخلود في النار الخلود المؤبد؟ وهل قُبْح الشرك قبحٌ شرعي فقط أو هو قُبْحٌ شرعي وعقلي؟

ثم عاد إلى الأمر الأول لكن بصيغة أخرى وهو: ما السر الذي جعل هذا الذنب بالذات مما لا يغفره الله عز وجل لصاحبه بخلاف غيره؟

ونقل بعد ذلك رَحِمَهُ اللهُ مقدمة تبعها بعد ذلك الجواب عن هذه الأمور التي ذكرها، وخلاصة ذلك: أنَّ قُبْح الشرك لا شك أنه شرعي وعقلي، وأن الله جل وعلا حرَّمه وكذلك الفِطَرُ السليمة والعقول المستقيمة تشهد بقبحه، وبأنه ضلال، وبأنه ظلام، وبأنه انحراف.

أما لم كان أعظم الذنوب؟ ولم كان لا يغفر مع أن هذا المشرك أراد تعظيم الله باتخاذ وسائط تقرِّب إلى الله؟

سيأتي -إن شاء الله- الجواب عن ذلك، ولكن أقول باختصار:

إن المشرك ما أراد تعظيم الله عز وجل، ولو أراد تعظيم الله لاتبع أمره.

.... إن المُحـــب لمـــن يُحـــب مُطيـــعُ

والله ما أمر إلا بعبادة يكون صاحبها مخلصًا له فيها، ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[البينة:٥]، هذا هو الذي أمر الله عز وجل به، ما أمر الله عز وجل بعبادة كما يهوى الإنسان وكما يحلو له، فبالتالي لا يُسلَّم أن هذا المشرك أراد تعظيم الله عز وجل، الحق أنه إنما أراد اتباع هوى نفسه، وإنما أراد تعظيم من عظُم في قلبه، ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ**﴾[البقرة:١٦٥]، فهذا تلبيسٌ مردود وهذه شبهة زائفة، ليس الحال كما ذُكِر.

ثم نقول: سلَّمنا جدلًا أنَّ هذا المشرك أراد تعظيم الله لكن أخطأ، فنقول: إنه استهان بجناب الربوبية من جهة أخرى هي التي استحق عليها العقوبة، فهو من جهة -إن سلمنا جدلًا- قد حَسُنَ قصده لكنه من جهة أخرى بل من جهات قد أساء إساءة عظيمة هي أعظم الإساءات على الإطلاق، فاستحق على هذا أن يكون ذنبه أعظم الذنوب وأن تكون عقوبته أعظم العقوبات. وهذه قضية قد شُرِحت فيما مضى.

فالشرك -أولًا- فيه غاية التنقيص والاستهانة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو أن هذا المشرك قد قدر الله عز وجل حق تقديره وعظَّمه حق تعظيمه ما وقع في الشرك، لكن لاستهانته بحق الله عز وجل جعل غيره معه، عدل غير الله بالله أو عدل غير الله عز وجل به، ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾[الأنعام:١]، ﴿**تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

والأمر الثاني: أن ما وقع فيه هذا المشرك فيه غاية الظلم، والظلم قبيح، ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[لقمان:١٣]، فإنه تسوية بالعاجز من كل وجه بالكامل والغني من كل وجه، فهو يجعل الضعيف الفقير المحتاج الممكن مساويًا في محاذاة من هو غني من كل وجه وكامل من كل وجه، ومن الذي

يرضى هذا؟ أنت لا ترضى أن يُشبَّه بك من هو غبي أو سافل أو ناقص أو فاسق، إذا قيل (فلان مثلك) فإنك لا ترضى وأنت وإياه مشتركان في كونكما من المخلوقات ومن الإنس وخصائصكما في الجملة واحدة، لكن بينكما تفاوت في الصفات ومع ذلك لا ترضى أن يقال: إنك مثل فلان الغبي أو الجاهل أو المعتوه، فكيف يقال: إن هذا له مثل ما لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من الحق، أنا أعبده كما أعبد الله عز وجل، فهذا غاية الظلم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وقلنا -**أيضًا**- **أمرًا ثالثًا**: وهو أن الشرك بالله سبحانه فيه غاية المعاندة لله، فإنه مضادٌّ تمام المضادة للغاية التي لأجلها خلق الله هذا الإنسان لأجلها، الله ما خلقه إلا لتوحيده، ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦]، وهذا أتى بضد ذلك وبعكسه تمام المعاكسة، فالله يخلقك للتوحيد فيأتي بالشرك الذي هو ضد التوحيد، فهذه معاندة لله جل وعلا يستحق صاحبها أعظم العقوبة.

أضف إلى هذا أمرًا رابعًا وهو أنَّ المشرك قد أساء الظن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ظن أن الله لا يقدر ولا يرحم ولا ينفع إلا إذا شُفِع عنده، إلا إذا عُطِّف، إلا إذا أثَّر عليه مؤثر، إلا إذا أعلمه من هؤلاء الوسطاء، فهذا لا شك أنه سوء ظن عظيم، فهؤلاء ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية، أساؤوا بالله الظن، وسوء الظن بالله من أعظم الذنوب كما سيأتي الكلام على هذا.

أضف إلى هذا أمرًا خامسًا وهو أنه الذنب الوحيد الذي لا شهوة تدعو إليه، فهو إذن فسادٌ محض، كل الذنوب سوى الشرك ثمة ما يدعو، ما يحفز، ما يدفع إلى فعلها، الزنا هناك شهوة للنساء، السرقة هناك شهوة لتحصيل المال، القتل ربما يريد تحصيل منصب، يقتل ليحصل منصبًا أو يحصل مالًا أو غير ذلك.

إذن: ثمة شهوات دافعة للوقوع في هذه الذنوب، وتبقى ذنوبًا وإن كان لها ما لها من الدوافع، لكن الشرك لا دافع له أصلًا، ما الذي يجعل الإنسان يلجأ إلى غير الله، يستغيث بغير الله، يدعو غير الله، يذبح لغير الله، ينذر لغير الله، يسجد لغير الله، لم؟ لا سبب يدعو إلى هذا، فالله معك سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بعلمه

وسمعه وبصره وقدرته، الله قريبٌ منك، الله مجيب، الله أرحم الراحمين، الله هو الذي على كل شيء قدير، الله هو الذي أحاط بكل شيء، إذًا لماذا يلجأ الإنسان إلى غيره؟

إذن: هو ذنب لا شهوة تدعو إليه، إنما هو فسادٌ محض في القلب، وظلمة حالكة في النفس، فاستحق صاحبها أن يكون ذنبه أعظم الذنوب على الإطلاق. وسيأتي -إن شاء الله- في كلام المؤلف ما يبين هذا أكثر وأكثر.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلنا: الشرك شركان.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذه مقدمة بين يدي الجواب على هذه الشبهة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شركٌ يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا هو الشرك في المعرفة والإثبات، وهو الشرك في الربوبية والشرك في الأسماء والصفات، وغالبًا أهل العلم إذا جاؤوا إلى هذا الموضع فإنهم يدرجون الشرك في الأسماء والصفات ضمن الشرك في الربوبية لأنهما يرجعان إلى نوعٍ واحد هو المعرفة والإثبات، فغالبًا ما يتكلمون عنهما معًا، وقد يفصِّلون فيقولون: شركٌ في الربوبية، هذا نوع، وشرك في الأسماء والصفات، هذا نوع آخر.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وشرك في عبادته ومعاملته.

قال الشّارح وفّقه الله:

هذا هو الشرك في العبادة، هذا هو الشرك في الألوهية، هذا هو المضاد لتوحيد الألوهية.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه وتعالى لا شريك له في ذاته ولا في صفاته.

فأما الشرك الثاني فهو الذي فرغنا من الكلام فيه، وأشرنا إليه الآن، وسنشبع الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

قال الشارح وفقه الله:

نعم، أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى صور إلى الشرك في العبادة وختمها ببعض أنواع الشرك الأصغر، وسيأتي بعد قليل -أيضًا إن شاء الله- الكلام على صور أخرى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الشرك الأول.

قال الشّارح وفّقه الله:

يعني: الشرك في باب المعرفة والإبات.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٢٣]، وقال لهامان: ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۞ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[غافر:٣٦ -٣٧].

والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًا بالخالق سبحانه وصفاته ولكنه معطلٌ حق التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها: هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه.

الثاني: تعطيل الصانع عن كماله الثابت له.

الثالث: تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

قال الشارح وفقه الله:

التعطيل، قال: إنَّ الشرك في الربوبية **هو نوعان:**

شرك تعطيل.

وشرك من جعل مع الله ربًا آخر، كما سيأتي.

أما شرك التعطيل، التعطيل هو: النفي، فالمعطل هو النافي، وهذا التعطيل في الجملة بغض النظر عن كونه متعلقًا بتوحيد الربوبية أو متعلقًا بتوحيد الألوهية، التعطيل في الجملة ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

تعطيل المصنوع عن صانعه، يعني: يعطل الله عز وجل عن وجوده، ويعطل المخلوقات عن خالقها، وهؤلاء هم نفاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكلية، هؤلاء هم الذين اصطُلح على تسميتهم بالملاحدة، وسيأتي لهم أمثلة.

أَمَّا التعطيل الثاني؛ فهو تعطيل الله عز وجل عن كماله الثابت له بنفي أسمائه أو صفاته أو نفي الأسماء فحسب، أو نفي الصفات فحسب، فهؤلاء تعطيلهم تعلق بتوحيد الأسماء والصفات، وهؤلاء درجات بعضهم أشد من بعض، وبعضهم أشنع من بعض، ومن وصل منهم إلى الدرجة العليا في التعطيل فهذا قد رجع إلى النوع الأول، كما سيأتي في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

النوع الثالث: تعطيل الله عز وجل عن عبادته، وهؤلاء -أعني أصحاب هذا التعطيل- هم المشركون في العبادة، فرجع هذا النوع إلى الشرك في العبادة.

إذن: التعطيل الذي يتعلق بهذا النوع من نوعي شرك الربوبية وشرك الأسماء والصفات إنما هو النوع الأول، وهو تعطيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكلية، وبالتالي فما سيأتي من أمثلة إنما هو متعلقٌ بهذا النوع الأول وهو مراده بقوله: (شرك التعطيل)، وبالمناسبة اختصار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الجواب الكافي اختصار قد يشكل أحيانًا، ولذا أنصحك بأن ترجع إلى الموضع الذي أخذ منه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الجواب الكافي من صحيفة مائة وسبعة وتسعين إلى صحيفة مائتين، اقرأ الكلام كله من كلام ابن القيم فإنه سيكون أوضح مما أورد المؤلف هاهنا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن هذا شرك أهل الوحدة.

قال الشارح وفقه الله:

(**ومن هذا**) من أي شيء؟ من شرك التعطيل الذي هو النوع الأول: تعطيل المصنوع عن صانعه، يعني: يعطل هذا الكون عن خالقه، وبالتالي فهو ينفي وجود الله عز وجل بالكلية.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن هذا شرك أهل الوحدة، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، ويسمونها العقول والنفوس.

قال الشارح وفقه الله:

النوع الأول: شرك أهل الوحدة. هؤلاء القائلون بوحدة الوجود، حقيقة قولهم نفي وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالقوم عندهم أن كل شيء تراه بعينك أو تسمع به، كل شيء هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فليس عندهم خالق وليس عندهم مخلوق، وهؤلاء لا شك أنهم كفار، بل كفرهم من أشنع الكفر وأخبث الكفر.

ويلي هذا في الخبث: شرك أهل الاتحاد، الذين عندهم في الأصل فرق بين الخالق والمخلوق لكن اتحدوا أو اتحدا بعد ذلك فلم يحصل تميز بين الخالق والمخلوق، وهذا قول الاتحادية.

وأقل من ذلك خبثًا هو شرك أهل الحلول الذين يظنون أو يعتقدون أن الله جل وعلا حَلَّ في مخلوقاته، إما حلولًا خاصًا في بعض المخلوقات، كقول النصارى الذين زعموا حلول الله عز وجل في عيسى، حل اللاهوت في الناسوت، أو من يزعم حلول الله جل وعلا في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو في غير ذلك من هذه الأقوال الضالة، أو يكون الحلول عندهم عامًا، الله عز وجل حَلَّ في كل شيء.

والفرق بين الثاني والثالث: هو أن أهل الحلول مع الحلول عندهم تمييز بين المخلوق والخالق.

وكل هذه الأقوال ضالة، وكل هذه الأقوال مخرجة أصحابها من دين الله عز وجل، على أن أصحابها هم أنفسهم ليسوا بمطردين، يعني: تارة تجد من هو من أهل وحدة الوجود يتكلم بمذهب أهل الاتحاد، وتارة يتكلم بمذهب أهل الحلول.

وعلى كل حال، هي مذاهب متقاربة في الضلال، وكلها كفرٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما النوع الثاني الذي أشار إليه: وهو شرك الملاحدة من الفلاسفة، سواء أكانوا من الملاحدة أو كانوا من الوجوديين أو كانوا من المؤلِّهة الذين سبق الحديث عنهم في الدرس الماضي، فكل هؤلاء في حقيقة حالهم ما أثبتوا وجود الله الذي هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أثبتوا وجودًا له وجود مطلق لا يصدر منه شيء، لا يخلق ولا يفعل ولا يصنع، وليس منه شيء، بل لا يتصف بأيِّ شيء البتة، وأضافوا الفعل والخلق إلى العقل الفعال الذي هو الفلك العاشر عندهم، ومنه فاض ذلك إلى النفوس الخيّرة الناطقة، وبعد ذلك تكون هذا الكون، إلى غير ذلك من هذه الترهات التي سبق الحديث عنها، حقيقة حال هؤلاء أنهم ما أثبتوا وجود الله سبحانه فعطلوا المخلوقات عن خالقها.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنه شرك معطلة الأسماء والصفات، كالجهمية والقرامطة وغلاة المعتزلة.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

معطلة الأسماء والصفات الغلاة منهم لا شك أنَّ تعطيلهم من التعطيل الأول، حقيقة قولهم نفي وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن ذلك هؤلاء الذين ذكر.

أولًا: الجهمية أتباع جهم بن صفوان، مذهب الجهمية هو نفي أسماء الله عز وجل بالكلية ونفي صفاته تعالى بالكلية، وروي عن جهمٍ أنه أثبت اسمين فقط: الفاعل والقادر، ونفى ما سوى ذلك، وإثباته لهما لأنه جبري، فلا أحد يفعل -عنده- أو يقدر إلا الله.

أما القرامطة؛ فإنهم من غلاة معطلة الأسماء والصفات، وهؤلاء نفوا النقيضين في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأتوا بمذهبٍ عجيب، قالوا: لا نقول إنه عالم ولا نقول إنه جاهل، ولا نقول إنه قادر ولا نقول إنه عاجز، ولا نقول إنه كذا ولا نقول إنه كذا، وشبهتهم في هذا شبهة عليلة، قالوا: لو نفينا الإثبات فإننا نكون قد شبَّهناه بالمعدومات، وإذا نفينا النفي فنكون قد شبَّهناه بالموجودات، وبالتالي فنحن ننفي الاثنين، والواقع أنهم ما صنعوا شيئًا، وقعوا في شر مما فروا منه، فقد شبهوه بالممتنعات، وإن كان ولابد من التشبيه فتشبيهه بالموجودات أو على الأقل بالمعدومات أهون.

أما غلاة المعتزلة - وهذه الكلمة لم يوردها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إنما أوردها المقريزي- المشهور من مذهب المعتزلة أنهم يثبتون أسماء مجردة لله جل وعلا ليست متضمنة لصفاته، وينفون صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويؤولونها ويعيدونها إلى الذات، فيقولون: إن الله جل وعلا عليم بعلم وعلمه ذاته، أو يقولون: عليمٌ بذاته، إما يقولون: عليمٌ بذاته، قديرٌ بذاته، يعني: لا يمايزون بين صفة وذات، ليس عندهم الصفة قدرًا زائدًا على الذات كما عليه أهل السنة والجماعة، إنما يعيدون كل هذه الصفات الثابتة لله جل

وعلا إلى الذات، أو يتحذلقون فيرجعون إلى القول الأول ولكن بنوعٍ من الحذلقة، يقولـون: عليمٌ بعلـم وعلمه ذاته، وهذا وذاك لا يظهر بينهما فارق كبير.

فهذه بعض الطوائف المعطلة بل التي غلت في تعطيل أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصفاته.

والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

النوع الثاني: شرك التمثيل، وهو شرك من جعل معه إلهًا آخر، كالنصارى في المسيح، واليهود في عزير، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

إنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أنَّ الشرك في الربوبية نوعان، مضى الكلام عن الأول منهما وهو شرك التعطيل، ثم انتقل إلى النوع الثاني فقال: شرك التمثيل، وهذه الكلمة ليست من الأصل المنقول عنه وهو كلام ابن القيم، إنما جعل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا النوع هو شرك من جعل مع الله إلهـًا آخر، ومراده: من جعل الله ربـًا آخر، فإن البحث هاهنا ليس في شرك الإلهية، إنما هو في شرك الربوبية، وكلامه له وجه، وذلك أن الرب هو الإله الحق، وعليه؛ فمن أشرك في الربوبية فقد أشرك في الإلهية لهذا الوجه.

أما المؤلف فاختار أن يعبِّر بشرك التمثيل عن هذا النوع، ومراده هو أن هذا المشرك الذي أشرك في هذا النوع جعل مع الله ربـًا مثل الله، وبالتالي فيكون قد وقع في التمثيل. وسيأتي أن أصل هذا الشرك وحقيقته راجعة إلى التشبه والتشبيه، والتشبيه والتمثيل معنيان متقاربان جداً، وبينهما فارقٌ دقيق في حال الاجتماع، أما في حال الافتراق فإذا ذُكِر التشبيه فهو التمثيل، وإذا ذُكِر التمثيل فهو التشبيه.

المقصود: أن هذا النوع مضى الحديث فيه ومضى الكلام في الأمثلة التي ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومما يُلاحظ على هذه الرسالة: التكرار، فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كرر الكلام في هذا النوع وفي هذه الأمثلة قبل قليل ثم أعادها مرة أخرى هاهنا، والسبب أن هذه الرسالة انتخبها انتخابـًا ونقلها نقلاً من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ غالبـًا، وإلا ثمة نُقُولٌ عن غير ابن القيم، لكن جُلّ الرسالة عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا سيما في كتابيه الداء والدواء ومدارج السالكين.

قال: (**وهو شرك من جعل مع الله إلهًا آخر، كالنصارى في المسيح**)، في المسيح وأيضًا في روح القدس، وروح القدس هو عند النصارى في جُلِّ المواضع التي ورد ذِكْره في كتابهم المقدس فإنما يُراد به جبريل عليه السلام.

المقصود: أنهم جعلوا تدبير هذا الكون وأفعال الربوبية موزَّعة بين الأرباب الثلاثة: الأب الذي هو الله، والابن الذي هو عيسى، وروح القدس الذي هو جبريل عليه السلام.

ولا شك أن هذا من أعظم الضلال وأشنع الكفر، أن يُجعل الإله واحدًا في ثلاثة وثلاثة في واحد، وهذا عدا كونه خروجًا عن المعقول وعن الفِطَر جميعًا فهو كفرٌ قبيح، بل غاية في الكفر، والله جل وعلا نهى أتباع هذا القول عن ذلك: ﴿**وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ**﴾[النساء: ١٧١].

فالقول بأن الله عز وجل ثلاثة أقانيم لا شك أنه كفرٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وشرك في الربوبية.

كذلك اليهود في عزير، فعزيرٌ عند اليهود ابن الله، والابن يأخذ خصائص والده، فإذا كان الله هو الرب فابنه له حظٌّ من الربوبية أيضًا، كما هو الشأن في عيسى، لما كان ابن الله -في زعمهم تعالى الله عن قولهم جميعًا- كان له حظٌّ من الربوبية، كذلك الشأن في عزير بالنسبة لليهود.

قال: (**والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة**) ومضى الكلام عن المجوس في درسٍ ماضٍ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وشرك القدرية المجوسية مختصرٌ منه.

وهؤلاء أكثر مشركي العالم، وهم طوائف جمة.

قال الشّارح وفّقه الله:

شرك القدرية مضى الحديث فيه، **وقلنا**: إن المراد بالقدرية هاهنا هم القدرية النفاة، وهذا هو المصطلح الغالب عند المتأخرين أنه إذا أُطلق القدرية فالمراد النفاة، وأما ما يقابلهم فالغالب عند المتأخرين أن يُسمَّوا الجبرية، وأما عند المتقدمين فإنهم يطلقون القدرية على هؤلاء وعلى هؤلاء، أقول: المتقدمون يكثر فيهم إطلاق القدرية على هؤلاء وهؤلاء، فكل من ضل في باب القدر عندهم فإنه قدري، قد يكون قوله قول القدرية المجوسية النفاة، وقد يكون قوله قول القدرية المشركية الجبرية الذين يزعمون أن العبد مجبور، وأنه لا قدرة له ولا مشيئة ولا اختيار، وبالتالي فإنه لا فِعْل له، وسيأتي الكلام عن هؤلاء.

المقصود: أن هؤلاء القدرية المجوسية -وأبرز من يمثلهم: المعتزلة- ينفون تعلق مشيئة الله وقدرته وخلقه بأفعال العباد، وبالتالي فإنَّ أفعال العباد حادثة من قِبَل العباد، يعني: هم الذين خلقوا أفعالهم، ولا تعلق لمشيئة الله وقدرته وخلقه بأفعال العباد، وبالتالي فيكونون جعلوا مع الله عز وجل خالِقِين، كما أن المجوس جعلوا الخالق اثنان فهؤلاء جعلوا الخالق كثيرين، فهذا وجه تسميتهم بالمجوسية.

قال: (**وهؤلاء أكثر مشركي العالم، وهم طوائف جمة**) وبدأ يمثِّل لهؤلاء.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهم طوائف جمة، منهم من يعبد أجزاء سماوية.

قال الشارح وفقه الله:

منهم من يعبد أجزاء سماوية كالصابئة المشركة الذين كانوا يعبدون الكواكب، وكان قوم إبراهيم الذين بُعِث فيهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منهم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنهم من يعبد أجزاءً أرضية.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

كالذين يعبدون الأحجار والأشجار والأصنام، وكذلك الذين يعبدون القبور ويعتقدون أن أصحابها وهم في قبورهم يتصرفون في هذا الكون، ولذا هم يدعون أتباعهم إلى أن يلجؤوا بعد موتهم إليهم في قبورهم، فهؤلاء كلهم من هذا الصنف المشرك في توحيد الربوبية.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إلهٌ من جملة الآلهة.

قال الشّارح وفّقه الله:

بينهم اختلافات وطرق متعددة، منهم من يزعم أن الذي يعبده هو الإله الكبير، ومع ذلك هناك آلهة صغار معاونون له، فهؤلاء لا فرق بينهم وبين من يجعل معبوده -وهو الله جل وعلا- إلهًا من جملة الآلهة، ولا فرق بينه وبينه، فالكل شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن اعتقد أن الله عز وجل هو الرب الأعظم ودونه أرباب يرجعون إليه لكنهم معاونون له، أو من اعتقد أنهم بمثابة واحدة وبمستوىً واحد فلا فرق بين هذا وهذا، كله كفرٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنهم من يزعم أنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه أقبل عليه واعتنى به.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

الجملة في الداء والدواء ليس فيها: (**ومنهم من يزعم**) إنما هذه الجملة تابعة لما قبلها، فالجملة في الداء والدواء: (ومنهم من يزعم أنه إلهٌ من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه أقبل عليه واعتنى به)، وأظن أن هذا أصوب وأقرب للمعنى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى الأعلى الفوقاني، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقل.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

اتخاذ الوسائط هو السبب الذي لأجله أشرك المشركون، وفي الجملة الوسائط إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تكون من جهتين: وسائط في العبادة، ووسائط في تبليغ العبادة.

أما الوسائط في تبليغ العبادة فوجودهم ضروري، وحاجة الناس إليه أعظم حاجة، وهؤلاء هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم وسطاء بين الله عز وجل وخلقه في تبليغ الرسالة وتبليغ العبادة وبيان ما يحبه الله عز وجل وما يبغضه.

أما الوسائط في العبادة، بمعنى: أنهم يُعبدون –أعني: هؤلاء الوسائط- ليقرِّبوا إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ويرفعوا إليه الحوائج، فهذه هي الوسائط الشركية، وهي التي كان عليها المشركون الأولون.

الواسطة التي تنفع العبد هي التقرب إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بعبادته وِفْق ما شرع، هذه الواسطة الصحيحة، هذه الوسيلة النافعة، ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[المائدة:٣٥] يعني: عبادة الله عز وجل وفق ما شرع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

أما اتخاذ وسائط يُتقرب إليهم لأجل أن يجعلون العبد مقربًا إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فهذا هو حقيقة الشرك، وكل المشركين يرجع شركهم إلى الرغبة في اتخاذ الوسائط مع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، والحق أنه لا واسطة بين العبد وبين ربه في هذا الباب، فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله جل وعلا حرَّم الله سبحانه على هذا المتخذ الوسائط الوصول إليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا عرفت هذه الطوائف، وعرفت اشتداد نكير الرسول ﷺ على من أشرك به تعالى في الأفعال والأقوال والإرادات كما تقدم ذكره، انفتح لك باب الجواب عن السؤال، فنقول:

قال الشّارح وفّقه الله:

كلام ابن القيم السابق كله انتهى عند قوله: (وتارة تَقِل) ثم بدأ جملة جديدة من الداء والدواء من قوله: (اعلم)، وبينهما حوالي ثماني صفحات، يبدأ الآن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالجواب عن الشبهة السابقة، ما هي هذه الشبهة؟

أن المشرك إنما أراد تعظيم الله عز وجل باتخاذ الوسائط ولم يُرِد أن يستهين بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالآن جاء وقت الجواب عن هذه الشبهة، وما سبق كان تمهيدًا موصلًا إلى هذا الجواب.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فنقول: اعلم أن حقيقةَ الشرك: تشبيه المخلوق بالخالق، وتشبه المخلوق بالخالق.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

التشبيه الممنوع نوعان: تشبيه المخلوق بالخالق، ومحله في باب توحيد الإلهية. وتشبيه الخالق بالمخلوق، ومحله باب توحيد الأسماء والصفات.

فتشبيه الخالق بالمخلوق هو اعتقاد أن صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تشبه صفات المخلوقين، كمن يقول: إن يد الله عز وجل كيد المخلوق، أو أن وجهه كوجه المخلوق، أو أنه ينزل كنزول المخلوق، إلى غير ذلك، والبحث في هذا له محلُّه من مباحث الأسماء والصفات، إنما الذي نبحث فيه هاهنا هو النوع الأول وهو تشبيه المخلوق بالخالق.

قال: (**حقيقة الشرك: تشبيه المخلوق بالخالق، وتشبه المخلوق بالخالق**)، تشبيه المخلوق بالخالق شيءٌ يرجع إلى العابد، وتشبُّه المخلوق بالخالق شيءٌ يرجع إلى المعبود، وسيتضح هذا فيما سيأتي.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أما الأول: فإن المشرك شبَّه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، وهي التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى، وسوَّى بين التراب ورب الأرباب، فأي فجور وذنب أعظم من هذا؟

قال الشّارح وفّقه الله:

خصائص الإلهية الحقَّة، هو يتكلم الآن عن الإله الحق لا مطلق الإله، الإلهية الحقَّة خاصيتها التفرد بملك الضر والنفع، الإله الحق الذي يستحق أن يُعبد هو الذي يملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، وعليه؛ فمن علَّق ذلك بالمخلوق فقد شبَّه بالخالق تعالى وسوَّى بين التراب الذي منه المخلوق وبين رب الأرباب وهو الإله الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**فأيُّ فجورٍ وذنبٍ أعظمُ من هذا؟**) وبه تعلم أن الشرك أعظم الظلم، ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[لقمان:١٣] إذ فيه وضع الشيء في غير موضعه، أنَّى يكون المخلوق العاجز الضعيف الفقير بمثابة ومساويًا للإله العظيم الكبير القدير العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا شك أن هذا فجورٌ ما بعده فجور، وظلمٌ ليس وراءه ظلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن من خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلًا وشرعًا وفطرةً، فمن جعلَ ذلك لغيره فقد شبَّه الغير بمن لا شبيه له، ولشدة قُبحه وتضمُّنه غايةَ الظلم أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبدًا.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

وجهٌ آخر يُبين لنا أن الشرك ظلمٌ عظيم، وأنه وضعٌ للشيء في غير موضعِهِ، فاستحق صاحبه أعظم العقوبة، وذلك أنه تشبيهٌ للكامل من كل وجه بالضعيف الناقص من كل وجه.

قال: (**واعلم أن خصائص الإلهية**) يعني: الحقَّة، (**الكمال المطلق من جميع الوجوه**) وهذا ثابتٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عقلًا وشرعًا دون أدنى شك.

(**وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلًا وشرعًا وفطرة، وعليه؛ فمن جعل ذلك لغيره فقد شبَّه الغير بمن لا شبيه له، فاستحق أن يكون هذا الذنب غير مغفور أبدًا**) ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:٤٨]، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ لما سُئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»، فهذا أعظم الذنوب على الإطلاق أن يُجعل لله ند يُنادُّه ويدانيه ويكافئه ويساويه عند المخلوق مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي خلق وهو الذي برأ وهو الذي يدبر ويرزق، وليس هذا للمخلوق البتة، فأيُّ ذنبٍ أعظم من هذا الذنب؟ فاستحق صاحبه -إذًا- أن لا يغفر الله عز وجل له، وأن يخلده في النار، وأن يحبط أعماله كلها.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي لا تقوم إلا على ساقي الحب والذل، فمن أعطاهما لغيره فقد شبهه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خالص حقه. وقُبْح هذا مستقرٌّ في العقول والفطر.

قال الشارح وفقه الله:

ولذا كان الشرك مضادًا للغاية التي لأجلها خلق الله الخلق، كان غاية المعاندة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله عز وجل خلق الخلق لعبادته، فجاء المشرك وأتى بضد ذلك، الله خلقك للتوحيد وأنت يا أيها المشرك تأتي بضدِّ ذلك، هذا معاندة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والعبودية من جهة التعبُّد، من جهة ما يقوم بالعبد هي ما جمع كمال الحب مع كمال الذل.

وعبادة الرحمن غاية حُبِّه ... مع ذُلِّ عابده هما قطبان
وعليهما فَلَكُ العبادة دائرٌ ... ما قام حتى قامت القُطبان

فمن أحب دون أن يذل فما عبد، ومن ذل دون أن يحب فما عبد، ومن أعطى شيئًا من الحب مع شيء من الذل فما عبد العبودية المطلقة، أما من جمع بين غاية الحب وغاية الذل فهذا الذي أشرك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن توجه بهذا لغير الله، أو وحَّد الله سبحانه وعبده إن توجه بهذا لله المعبود الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا: هذا يدلُّك على أن الشرك غاية المعاندة لله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لكن لما غيَّرت الشياطين فِطَر أكثر الخلق، واجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، كما روى عن الله أعرف الخلق به وبخلقه، عَمُوا عن قبح الشرك حتى ظنوه حسنًا.

قال الشّارح وفّقه الله:

أشار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الجملة إلى ما أخرج الإمام مسلم عن النبي ﷺ من حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيما يرويه عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم**»، الله جل وعلا خلق العباد حنفاء، يعني: مائلين عن الشرك إلى التوحيد، كلهم خلقهم الله عز وجل وفطرهم على التوحيد، ويؤيد هذا قوله ﷺ الآخر: «كل مولودٌ يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء فهل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم الذين تجدعونها، ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾[الروم:٣٠]».

فالله عز وجل خلق الناس جميعًا على التوحيد، بمعنى: لو تُرِك الإنسان وفطرته التي فطره الله عز وجل عليها وجبله عليها ولم يكن ثمة مؤثرٌ خارجي عليه كأبويه، كتعليم، كمجتمع؛ فإنه سينشأ موحدًا قطعًا، لو افترضنا أن إنسانًا نشأ في بريَّة وتيسرت له أسباب المعاش دون أن يخالط أحدًا من الناس، فإنه سينشأ قطعًا عابدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبودية مطلقة، لن يهتدي إلى تفاصيل العبادة، فهذا لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق الأنبياء، لكنه في الجملة سيعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سيخضع، سيذل، سيحب إلهه الذي خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولن يشرك به أحدًا، هذا أمرٌ قطعي تدل عليه شواهد الشرع والحس والعقل.

إذًا يقول ربنا جل وعلا: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين**» أخذتهم الشياطين، جرتهم الشياطين إلى مستنقع الشرك.

«**فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يعبدوا بي ما لم ينزل الله به سلطانًا**»، فالشرك كان عن أز وكان عن دفع وكان عن تزيين من الشيطان، ولذا كل مشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن شركه يؤول إلى عبادة الشيطان لأنه أطاعه في الشرك الذي زيَّنه له، فرجعت العبادة إلى هذا الشيطان المسبِّب، إلى هذا الشيطان الدافع، إلى هذا الشيطان المزيِّن.

فالمقصود أنَّ هذا الحديث يدل على أن الأصل في الخليقة: الإسلام، وأن الأصل في الخليقة: التوحيد، وأن الأصل في الخليقة ليس هو الشرك، إنما الأصل في الخليقة هو التوحيد، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعثهم الله لتكميل هذه الفطرة، وللارتقاء بهذه الفطرة إلى معرفة تفاصيل ما يحبه الله عز وجل وما يرضاه، وما يكون من جزاءٍ على قبول عبادة الله أو عدم قبولها.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن خصائص الإلهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبهه به.

قال الشارح وفقه الله:

مضى الكلام عن السجود.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

كذلك مضى الكلام عن التوكل.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

كما مضى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومنها: الحلف باسمه، فمن حلف بغيره فقد شبهه به.

ومنها: الذبح له، فمن ذبح لغيره فقد شبهه به.

قال الشارح وفقه الله:

أظن أنه مضى الكلام -أيضًا- عن الذبح، وقلنا: إن الواجب على العبد أن يذبح لله باسم الله، وبذلك يكون جامعًا بين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، أن يذبح لله قاصدًا التقرب إلى الله، فيحقق معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وأن يذبح باسم الله، أن يُهِل باسم الله، أن يستعين في ذبحه بالله فيقول: (باسم الله) عند الذبح، وبهذا يكون ذبحه عبادة وقربة وتوحيدًا.

ويخالف ذلك **ثلاثة أحوال**:

أن يذبح باسم لغير الله، يقول: (باسم الله) وقصده التقرب إلى المقبور أو الصنم أو غير ذلك.

أو العكس: أن يذبح باسم غير الله لله، وهذا -كما ذكرت لكم فيما مضى فيما أظن- أن هذا ربما لا يُتصور حصوله لكن نذكره تتمة للقمة.

أن يذبح باسم المسيح، يقول: باسم المسيح، أو يذبح باسم السيد الفلاني أو الولي الفلاني ويريد التقرب إلى الله بإراقة الدم، وهذا شركٌ في الاستعانة.

والأمر الثالث: أن يذبح باسم غير الله لغير الله، أن يقول: باسم السيد الفلاني ويريد التقرب إليه، فهذا ضلالٌ فوق ضلال، جمع صاحبه بين مضادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومضادة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إذًا: لا يكون التوحيد بالذبح إلا بأن يذبح باسم الله لله تعالى.

وله أن يذبح ذبحًا عاديًا لا يريد به التقرب إلى الله، إنما يريد أن يأكل اللحم، فقصده اللحم والذبح تبع، ومثل هذا يُكتفى فيه بأن يذبح باسم الله، وإن كان قصده إكرام الضيف أو إطعام أهله أو ما شاكل ذلك، فهذا لا بأس به ولا حرج، لكن لابد أن يذبح باسم الله، لابد أن يُهِل باسم الله، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ

يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾[الأنعام:١٢١]، ﴿**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ**﴾[الأنعام:١١٨]، قال ﷺ: «**ما أنهر الدم وذُكِر اسم الله عليه فكل**».

إذن: هذا شرط حِلِّها أن يكون ثمة ذبح، لا ضرب على الرأس أو صعق بالكهرباء أو تغريق بالماء، إنما يكون ذبحًا، فريًا للأوداج.

والأمر الثاني: أن يذكر الإنسان اسم الله عز وجل عند الذبح، يقول: باسم الله، بهذا تصبح الذبيحة حلالًا طيبة زاكية، فذِكْرُ اسم الله على الذبيحة يطيبها ويزكيها ويجعل فيها بركة بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: حلق الرأس. إلى غير ذلك. هذا في جانب التشبيه.

قال الشَّارح وفّقه الله:

(**هذا في جانب التشبيه**) يعني: من جانب العابد، من جهة مَن يتقرب إلى غير الله عز وجل، فحقيقة حاله أنه شبَّه معبوده بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وثمة شِقٌّ آخر وهو التشبه، وهو ما يرجع إلى المعبود، وهو ما يرجع إلى ما يُتقرب إليه بالعبودية وما يُتقرب إليه باعتقاد الضر والنفع والإعطاء والمنع، هذا هو التشبه، وهو يرجع إلى **حالتين**:

الحالة الأولى: أن يُعبَد فيرضى، لا يدعو الناس إلى عبادة نفسه، لكن يعبده العابدون فيقع منه هذا موقع الرضا، لا بأس يوافق، لا يكره، لا ينكر، فهذا قد تشبه بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والحال الثانية: أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه، فإنه يكون قد وقع منه التشبه الشركي ولو لم يعبده أحد، يكفي أن يترشح للعبادة، أن يقول: اعبدوني، أنا يقول: أنا أهلٌ أن أُعبَد، أنا أهلٌ أن أفعل وأفعل مما يرجع إلى خصائص الإلهية الحقة، فيكون بذلك مُشركًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل يكون طاغوتًا، الطاغوت هو الذي أشرك شركًا مبالغًا فيه، ليس أيَّ شرك، ليس أيَّ كفر، بل كفرٌ وزيادة، فيه مبالغة وفيه معاندة وفيه طغيان، الطغيان هو الزيادة، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾[الحاقة:١١] زاد عن الحد.

فليس الطاغوت أيَّ كافر، بل هو مبالغٌ في الكفر، وذكر علماء التوحيد -ومنهم إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ- رؤوس الطواغيت الخمسة وذكر منهم هذين، قال: من عُبِد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه. هذان طاغوتان، هؤلاء في أعلى درجات الكفر، عافاني الله وإياكم من ذلك!

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما في جانب التشبه: فمن تعاظم وتكبر، ودعا الناس إلى إطرائه ورجائه ومخافته؛ فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته، وهو حقيقٌ بأن يهينه الله غاية الهوان، ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه.

قال الشارح وفقه الله:

الذي يقول للناس: الجؤوا إلي عند الحاجة، إذا مِتُّ عليكم بقبري فإني لا أتخلى عنكم، ويقول: بئس الشيخ الذي يحجزه عن مريديه شبرٌ من تراب. لا فرق بين أن يكون فوق الأرض أو تحت الأرض، الجؤوا إلي، أيّ نائبة تنوبكم فما عليكم إلا أن تهتفوا باسمي ولو من مكان بعيد فإني أفعل وأفعل، فمن كان هذا شأنه –والعياذ بالله– فقد تشبه بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوقع في أعظم الكفر.

قال: (**وهو حقيقٌ بأن يهينه الله غاية الهوان، ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه**) لأنه اتصف بالكبر وتعاظم واختال، وإذا كان المتكبرون –جنس المتكبرين– قد جاء الوعيد في حقهم، كما جاء عن النبي ﷺ بإسنادٍ حسن وهو عند الترمذي وصححه قال: «**يُحشر المتكبرون كأمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان**».

سبحان الله العظيم! تخيل إنسان ولكنه في حجم النملة الصغيرة في صور.. قال: «**يُحشر المتكبرون كهيئة الذر في صور الرجال**» يعني: إنسان ولكن هذا حجمه جزاءً وفاقًا، لما تعاظم في الدنيا عوقب بنقيض قصده، فأصبح في غاية الصغار وغاية الذل، أصبح صغيرًا لأنه أراد أن يكون عظيمًا عظمة لا تليق به، فالكِبْر إنما هو لله عز وجل لأنه يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما بالمخلوق فهو غير مناسب وغير لائق وهو غير حقيقٍ به.

وأيضًا هو أراد أن يُعظَّم، تعاظم في نفسه وأراد أن يُعظَّم فعوقب بضد ذلك فأصبح ذليلًا يغشاه الذل من كل مكان، نسأل الله العافية والسلامة!

أقول: إن هذا في حق جنس المتكبرين، فكيف بهذا الذي أدَّاه كِبْره إلى أن يدَّعي الربوبية والإلهية مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا شك أنَّه أولى الناس بهذه العقوبة، نسأل الله العافية والسلامة!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته».

وإذا كان المصور الذي يصنع الصور بيده من أشد الناس عذابًا يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة، فما الظن بالمتشبه بالله في الربوبية والإلهية؟ كما قال ﷺ: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم».

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»، فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما.

قال الشارح وفقه الله:

هذه لفتة حسنة من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبين لك عظيم قُبْح الشرك وعظيم عقوبته، فإذا كان الذي يصور مجرد تصوير فإنه يُعاقَب بهذه العقوبة حيث قال ﷺ -وهو الصادق المصدوق-: إن من كان كذلك فهو ذو عذاب هو أشد العذاب، «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون**»، فكيف بمن تشبه بالله عز وجل في الربوبية جملة، أو في الإلهية جملة؟! إذا كان مجرد تصوير كان صاحبه أشد الناس عقوبة، فكيف بمن ترشح للعبادة وقدم نفسه للناس على أنه رب يفعل باستقلال ويضر باستقلال وينفع باستقلال، لاشك أنه أجدر أن يكون أشد الناس عذابًا.

وبمناسبة ذكر التصوير تلاحظ - يا رعاك الله- في هذه النصوص التشديد العظيم في حق التصوير، النبي ﷺ يخبر عن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون، وأنهم أعظم الناس ظلمًا، قال: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة**»، الصحيح أن هذا أمر تعجيز، ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**﴾[الطور:٣٤]، فهذا أمر تعجيز، من جملة تعذيبهم أن يُؤمروا بهذا الأمر الذي هم لا يستطيعونه.

فالشريعة شددت في جانب التصوير لحكمتين:

الأولى: ما جاء هنا في هذه الأحاديث وهو أن التصوير يتضمن مضاهاة الله عز وجل في خلقه.

والثانية: أن التصوير سبب وذريعة وقوع الشرك في الغالب، أكثر الشرك وأغلب الشرك الذي وقع في الأرض إنما كان سببه التصوير، ومن ذلك أول شرك وقع على وجه الأرض وهو الذي كان في قوم نوح عليه السلام كان سببه التصوير.

فلأجل هذين الأمرين كان التصوير أمرًا محرمًا، وقد اتفق العلماء على تحريم نوعين من أنواع التصوير:

الأول: التصوير الذي له ظِلٌّ لما فيه روح، يعني: الذي يكون على هيئة صنم، على هيئة تمثال، له ظل.

والثاني: التصوير الذي لا ظل له لما فيه روح، يعني: الذي يكون على الأوراق والذي يكون على القماش وما شاكل ذلك، فإن النبي ﷺ أنكر كما في حديث: «**أشد الناس عذابًا**» على عائشة رضي الله عنها أنها وضعت ستارة عليها تصاوير، ستارة، والتصوير الذي فيها لا ظل له.

كذلك النبي ﷺ غسل بيده الكعبة لما وجد فيها تصاوير لإبراهيم عليه السلام ولغيره.

فدل هذا على أن التصوير ولو لم يكن له ظل فإنه محرم لا يجوز.

بل ذهب بعض أهل العلم -وهو وجهٌ عند الشافعية وقال بعض التابعين به- أنه يحرم تصوير كل ما خلقه الله عز وجل، حتى الشجر، حتى الثمر، حتى البحر، كل ما خلقه الله عز وجل لا يجوز تصويره، لكن الذي عليه الجماهير هو الصواب.

وفي صحيح البخاري سأل رجلٌ ابن عباس رضي الله عنه عن أن صنعته التي يأكل منها هي هذه التصاوير، فشدد عليه ابن عباس رضي الله عنه وروى له وعيد النبي ﷺ في التصوير ثم قال: «**فإن أبيت فعليك بالشجر والحجر ونحو ذلك**».

فهذا هو الصحيح أنه يجوز تصوير ما ليس له روح، وأما ما له روح فإنه لا يجوز تصويره لهذين الأمرين.

وأما قوله ﷺ: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**» هذا يدل على أن المصور له **حالتان**:

أن يقصد مضاهاة الله عز وجل في خلقه، يقصد أن يتشبه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في فعله.

وأن يكون ندًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذا الأمر، فهذا لا شك أنه كافر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبالتالي فيستحق أن يكون أشد الناس عذابًا على الإطلاق.

وأما الحال الثانية فهي أن يصوّر ويصنع هذه التصاوير ولا قصد له في أن يكون مضاهيًا لله عز وجل في خلقه، فهذا فِعله محرم لا كفر، والقصد هاهنا مؤثِّرٌ في التكفير وعدمه.

وعليه؛ فيكون قوله ﷺ في حقه: «**أشد الناس عذابًا**» على تقدير (مِن)، يعني: من أشد الناس عذابا. وهذا التوجيه تنبه إليه فإنه يحل لك إشكالات كثيرة فيما يأتي في النصوص مما فيه أفعل تفضيل، (أشد الناس عذابًا) أو فيما فيه تفضيل أنه أحب العمل إلى الله وأفضل الأعمال كذا مع أن غيره قد يدل الدليل على أنه أفضل منه؛ فإنه محمولٌ على تقدير (مِن)، وهذا أسلوب عربي صحيح أن يُذكر أفعل التفضيل والمراد أنه من أحسن ومن أفضل أو من أشد وما شاكل ذلك.

فالذي لا يقصد مضاهاة خلق الله لا يكفر بذلك، ولكن فعله مجرد الفعل فيه نوع مضاهاة دون قصد، وبالتالي استحق أن يكون فعله محرمًا.

وإنكار النبي ﷺ على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذلك يدل على أن القصد لا أثر له في التحريم، بل له أثر في التكفير، أما مجرد وجود الصورة سواء كان من حيث تصويرها أو حتى من حيث تعليقها، فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تكن هي المصورة، إنما استعملت التصوير بالتعليق، علقت الصورة ومع ذلك واجهها النبي ﷺ بهذا الكلام.

فدل هذا على أن مجرد الصورة أو مجرد التصوير لا يجوز، والله أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك من تشبه به تعالى في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، كملك الملوك، وحاكم الحكام، وقاضي القضاة، ونحوه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أخنع الأسماء عند الله رجل تسمى بشاهان شاه، ملك الملوك، لا مالك إلا الله»، وفي لفظ: «أغيظ رجل عند الله رجل تسمى ملك الأملاك».

ﮋﮋ◈ﮊﮊ

قال الشّارح وفّقه الله:

هذا -أيضًا- مما فيه تشبه من المخلوق بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أن يتشبه به تعالى في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، كملك الملوك، وقد ثبت في الصحيحين هذا الحديث الذي ذكره لنا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إن أخنع الأسماء عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله**» أو «**لا مالك إلا الله**» روايتان في الصحيحين، وكلاهما حق. فالله المَلِك والله المالك، (مَلِك يوم الدين)، ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾[الفاتحة:٤].

وتنبه إلى أنه ليس في الصحيحين من قول النبي ﷺ: «**رجلٌ تسمى بشاهان شاه**» النبي ﷺ ما تكلم بهذا، إنما هذا تفسيرٌ من الراوي، أحد الرواة وهو سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فسَّر ملك الأملاك أو ملك الملوك بشاهان شاه، وهذه الكلمة يبدو أنها وُجِدت أو انتشرت في عهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأراد أن ينبه إلى أن بمعنى ملك الملوك ما يزعمونه من هذه الكلمة وهي: شاهٍ شاه أو شاهان شاه، وشاهٍ شاه أو شاهان شاه كلمة فارسية بمعنى ملك الملوك.

وقد يطلقونها (شاهٍ شاه) وقد يقولون: (شاهان شاه) (شاهان) ملوك، و(شاه) ملك، ومن عادتهم تقديم المضاف إليه على المضاف، (شاهان شاه) يعني: ملك الملوك، فهذا الاسم قبيح، بل هو أعظم ما يكون في القُبْح، ولذا كان -كما قال النبي ﷺ-: «**إنه أخنع اسم**»، هكذا جاءت الرواية في الصحيحين. وجاء عند البخاري: «**أخنى اسم**»، وجاء في رواية عند مسلم: «**أغيظ اسم**»، والمقصود أنه أقبح ما يكون.

«**أخنع الأسماء**» من الخنوع وهو الذل، فهو أذل اسم، وبالتالي يكون صاحبه أذل الناس يوم القيامة، كما جاء في رواية عند الترمذي بتقييد هذا في يوم القيامة: «**أخنع الأسماء عند الله يوم القيامة**»، فصاحب هذا الاسم سواء تسمى به أو سُمِّي به ورضي فإنه يكون حاله أنه يكون أذل الناس يوم القيامة، عافاني الله وإياكم من ذلك!

وجاء -أيضًا- أنه أغيظ اسم كما عند مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالله عز وجل يشتد غضبه على من يكون هذه حاله، من تكون هذه حاله فالله عز وجل يشتد غضبه عليه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لأنه سبحانه ملك الملوك أو ملك الأملاك كما جاء في الصحيحين، والأملاك جمع مَلِك، وكذلك تأتي جمع مَلَك، بالفتح وبالكسر، و(مَلِك) تُجمع على ملوك وأملاك.

فالله عز وجل هو ملك الملوك سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهذا الذي تشبه به سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالاسم الذي اختص به والذي لا يليق إلا به كانت عقوبته أنه يكون ذليلًا عنده سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وذلك معاقبة بنقيض مقصوده، مقصوده التعاظم والتعالي والتكبر فالله جل وعلا يجعله أذل الناس، وربما عاجله بالعقوبة في الدنيا، الذي يتشبه بالله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في اسمه أو في صفته يتعالى على الناس ويتكبر بذلك هذا حريٌّ أن يقصم الله عز وجل ظهره في الدنيا.

وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البداية والنهاية في ترجمة عضد الدولة البويهي أنه تسمى بشاهٍ شاه، وذكر أنه أول من تسمى بهذا، مع أنَّ الواقع أنه قد سُمِّي بهذا قبله، فسفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هذه الكلمة وهو قبل هذا بكثير، بأكثر من مائة سنة، لكن يبدو أنه انتشر واشتُهر بهذا فكان أول من اشتُهر بهذا.

بل أنه أنشأ قصيدة وقيل: إنها أُنشئت وأُنشد إياها فرضيها، وفيها أنه وصف نفسه أو وُصِف ورضي بأنه غلَّاب القدر، فلما قال هذا وتسمى قبل هذا بملك الملوك يقول ابن كثير نقلًا عن ابن الجوزي ونقلًا عن غيره -أيضًا- أنه أهلكه الله عز وجل بعدها، عاجله الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالعقوبة على أنه تعالى وتكبر.

فمن تسمى بالاسم الذي اختص الله عز وجل به نفسه فحكمه كما جاء في هذا الحديث يوم القيامة، ولربما عاجله الله عز وجل بالعقوبة في الدنيا.

كذلك الذي يتسمى بالاسم الذي يختص به كالرحمن أو القدوس أو الخلاق أو البارئ، أو غير ذلك من هذه الأسماء التي اختُص بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فحكمه حكم ملك الأملاك، لأنه تشبه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما اختص به.

والضابط في المنع من التسمي بالأسماء الحسنى هو النظر إلى المعنى، فالمعنى الذي لا يليق أصله بالمخلوق لا يجوز التسمي بالاسم الذي تضمنه، وأما ما كان من الأسماء يليق بالمخلوق الاتصاف بأصله فإنه لا حرج في التسمي، كالعزيز مثلًا، ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾[يوسف:٥١]، أو الرحيم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨] كذلك الرؤوف. فللعبد عزة تليق به، وعند العبد رحمة لائقة به ورأفة لائقة به، وهكذا.

إذًا: هذا من التشبه الذي يوقع صاحبه في الشرك، عياذًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبالجملة: فالتشبيه والتشبه هو حقيقة الشرك، ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادة ما يقربه ذلك الغير إليه تعالى فإنه يخطئ، لكونه شبهه به، وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا له، فأشرك معه سبحانه فيه غيره، فبخسه سبحانه حقه، فهذا قبيح عقلًا وشرعًا.

قال الشارح وفقه الله:

إذًا: الشرك بالله عز وجل قبيحٌ شرعًا وعقلًا، وهذا هو السؤال الذي أورده آنفًا ثانيًا، حينما قال: هل الشرك قبيح في الشرع والعقل أو في الشرع فقط؟ الصواب أن الشرك قبيحٌ شرعًا وعقلًا، وأن العقول تدرك ولو لم يأت الشرع بمنع الشرك فإن العقول تدرك قبحه، وأنه لا يجوز بحال، لا يجوز ولا يليق أن يُشرك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيره.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولذلك لم يُشرع ولم يُغفر، فاعلمه.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

إذن: اتضح لنا أن الشرك أعظم الذنوب، وذكرنا لهذا خمسة أسباب، من يذكِّرنا بها؟

أولًا: أنه أظلم الظلم.

ثانيًا: أن فيه غاية المعاندة لله سبحانه.

ثالثًا: أن فيه غاية التنقص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ربعًا: أنه يتضمن إساءة الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

خامسًا: أنه لا سبب يدعو إليه، لا شهوة تدعو إلى أن يُشرك بالله سبحانه.

إذن: هو فسادٌ محض في قلب المشرك بالله عز وجل.

اتضح لنا إذًا أن الشرك أعظم الذنوب، وبالتالي فإن عقوبته أعظم العقوبات، وقلنا: إن هذا يظهر من ثلاثة أوجه:

أنه الذنب الذي لا يغفره الله البتة.

محبطٌ لجميع الأعمال.

أنه يخلد صاحبه في النار.

إذن: هذه ثلاثة أسباب تجعل عقوبة الشرك أعظم العقوبات.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن الذي ظن أن الرب سبحانه لا يسمع له، أو لا يستجيب له إلا بواسطة تطلعه على ذلك، أو تسأل ذلك منه؛ فقد ظن بالله ظن السوء، فإنه إن ظن أنه لا يعلم أو لا يسمع إلا بإعلام غيره له وإسماعه؛ فذلك نفيٌ لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبًا.

وإن ظن أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يُلَيِّنه ويعطِّفه عليه، فقد أساء الظن بأفضال ربه وبرِّه وإحسانه وسعة جوده.

ﮋﮋ ♦ ﮊﮊ

قال الشَّارح وفَّقه الله:

وهذا حال المشركين، حال المشركين أنهم ظنوا بالله ظن السوء، ظنوا بالله ظن الجاهلية، ﴿**يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾[آل عمران:١٥٤]، وظن الجاهلية -كما سيأتي- هو ظن السوء، وضابطه أنه ظَنٌّ غير ما يليق بالله، فمن ظن بالله غير ما يليق به فقد ظن به ظن السوء، وهذا أعظم الذنوب.

قال: (**فمن ظن أن الرب سبحانه لا يسمع له أو لا يستجيب له إلا بواسطة تطلعه على ذلك**) إذًا هذا يتنافى وإيمانه بسعة سمع الله سبحانه وأنه وسع سمعه الأصوات، أو طعنٌ وسوء ظن برحمته أنه لم يسع كل شيء رحمة وعلمًا كما أخبر عن نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدليل أنه يحتاج إلى من يزيِّن له هذه الرحمة، من يُحسِّن له هذه الرحمة، فلا يستجيب إلا إذا كانت واسطة تدفعه وتؤزه إلى هذه الرحمة، وهذا سوء ظن بالله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (فإنه إن ظن أنه لا يعلم أو لا يسمع إلا بإعلام غيره له وإسماعه فذلك نفيٌ لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبًا.

قال: (**وإن ظن أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يليِّنه ويعطِّفه عليهم فقد أساء الظن بأفضال ربه وبرِّه وإحسانه وسعة جوده**) وبالتالي فقد أساء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا حال المشركين، حال المشركين يتلخص في كلمة واحدة: أنهم أساؤوا الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعليه؛ فلم

يقدروه حق قدره جل وعلا، فاستحقوا أن يكونوا أعظم الناس ذنوبًا، وأن يُعاقبوا أشد العقوبة على الإطلاق.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبالجملة: فأعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظن، ولهذا يتوعدهم في كتابه على إساءة الظن به أعظم وعيد، كما قال الله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[الفتح:٦].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:٨٦-٨٧]، أي: فما ظنكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضرورات عباده لمن يكون بابًا للحوائج إليه، ونحو ذلك.

وهذا بخلاف الملوك، فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم، وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا حقيقة حال هؤلاء المشركين، أساؤوا الظن بالله عز وجل فأوردهم سوء الظن الموارد، ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[فصلت:٢٣]، فهذا هو الذي جعلهم في هذا الدَّرَك وفي هذه الحفرة من العذاب، عافاني الله وإياكم من ذلك! ظنوا بالله عز وجل خلاف ما يليق به جل وعلا، ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران:١٥٤]، فظن الجاهلية هو ظن السوء، ظنوا ما لا يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإن كنت طالبًا للفائدة فأوصيك بالرجوع إلى موطنٍ في غاية النفع لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الجزء الثالث من زاد المعاد، فقد فسَّر ظن السوء بالله عز وجل بأحسن ما يكون وأوضح ما يكون.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأما من لا يشغله سمعٌ عن سمع، وسبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، فما تصنع الوسائط عنده؟

فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظن به أقبح الظن، ومستحيلٌ أن يشرعه لعباده، بل ذلك يمتنع في العقول والفطر.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

توقفت في الدرس الماضي عند الكلام عن حكم قول (قاضي القضاة) أو (أقضى القضاة)، وذكرت أن المسألة ثمة أهون من قول (ملك الملوك) أو (ملك الأملاك)، فهذه محرمة بالنص كما قد علمت.

أما قول (قاضي القضاة) فقد وقع خلاف بين العلماء في هذا الكلام، يعني إذا قال: فلان قاضي القضاة أو أقضى القضاة. والذي رجحه جماعة من المحققين ومنهم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ المنع من ذلك، قياسًا على تحريم قول (ملك الأملاك) وذلك أنَّ قول (ملك الأملاك) يجتمع فيه أمران:

الأول: أنه كلامٌ يتضمن غاية الكمال وكمال التعظيم، وعليه فلا يليق إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونسبته لغيره لا تجوز.

الثاني: أن في هذا القول ما فيه من التعالي والتعاظم، وهذا إنما يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا بخلقه، وعليه فمحض القياس -كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- هو منع قول قاضي القضاة، وذلك أن الله جل وعلا هو قاضي القضاة الذي لا يحكم إلا بالعدل وهو خير الفاصلين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويجوز أن يُقيَّد هذا بمنطقة فيقال: قاضي قضاة كذا، قاضي قضاة مصر، قاضي قضاة المملكة، قاضي قضاة المدينة، فمثل هذا التقييد يزول معه ما لوحظ من معنى التعظيم وكماله.

توقف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:٨٦-٨٧] قال: (**أي فما ظنكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضرورات عباده لمن يكون بابًا للحوائج إليه، ونحو ذلك**).

ما ظنكم بربكم وهو العظيم العزيز الجبار المتكبر، الذي ينتقم من المجرمين ولا يُرد بأسه عن القوم الظالمين، الذي هو شديد العذاب وشديد العقاب، الذي يغار وغيرته أن تُنتهك محارمه، ما ظنكم بالله الذي هذا وصفه إذا لقيتموه وقد أشركتم معه غيره جل وعلا؟ فهذا فيه أعظم رادع وأعظم تخويف عن الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (**وهذا بخلاف الملوك، فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورة، لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين**) نعم، البلاء الذي وقع فيه المشركون من ذاك القياس الفاسد وهو قياس ربنا جل وعلا في ملكه وملكوته وقدرته وجبروته على ملوك الأرض الذين يُحتاج إلى التوسط عندهم، فيُرغب إلى هؤلاء الوسائط وهم بالتالي يرفعون الحاجات إلى الملوك.

هذا لائقٌ بملوك الدنيا لأنهم ضعفاء ولأنهم عاجزون ولأنهم فقراء، الملك مهما علت منزلته ومهما عظم ملكه فإنه محتاج، ليس محتاجًا إلى الشفعاء والوسائط والوزراء ونحوهم فحسب، بل هو محتاجٌ إلى ما هو أقل من ذلك، هو محتاج إلى أدنى الأشياء، كما قال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ: لولا نفَّاط الملك ووقاد أتونه ما طاب عيشه.

انظر إلى هذه الوظيفة التي هي من أحقر الوظائف، الملك محتاج إلى من يوقد الأتون، الأتون يعني المواقد الكبيرة، لو لم يوجد للملك من يرمي النفط أو يوقد هذه المواقد ويسوس خيله وينظف حدائقه ما طاب له عيشه، فهو محتاج، ومن باب أولى أن يكون محتاجًا إلى هؤلاء الوسطاء وإلى هؤلاء الشفعاء من جهة أنهم يعلمونه ما غاب عنه، ينهبونه خطورة الطغيان والظلم، يليِّنونه، يعطِّفونه، يبصرونه بما هو الأحسن وما هو الأفضل، وما شاكل ذلك، وهو مضطرٌ إلى طاعتهم أحيانًا، فلولا أنه يطيعهم فإنهم سينفضون عنه، ولن يكون ولاؤهم له، فهو مضطر إلى طاعتهم وإلى مداراتهم حتى ولو لم يكن راغبًا في قبول كلامهم.

إذن: هو محتاج، والوسطاء محتاجون، ومن يرغب إلى الوسطاء محتاج، أما الله فهو الغني من كل وجه، وهو العظيم من كل وجه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فما وجه اتخاذ الوسائط معه تبارك وتعالى؟

قال: (**فأما من لا يشغله سمعٌ عن سمع، وسبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، فما تصنع الوسائط عنده؟ فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظن به أقبح ظن، ومستحيلٌ أن يشرعه لعباده، بل ذلك يمتنع في العقول والفِطَر**).

إذن: تنبه إلى هذا المأخذ الأول وهو أن التلازم حاصل بين اتخاذ الوسائط والعجز، فاتخاذ الوسائط يستلزم العجز ولابد، هذه قاعدة: اتخاذ الوسائط يستلزم العجز. ونسبة ذلك إلى الله جل وعلا لا شك أنها غاية الضلال وظنُّ أقبح الظن، لأن هذا مضادٌّ من كل وجه لغنى الله سبحانه ولعظمته ولكبريائه، ولكونه السلام، لكونه المهيمن تبارك وتعالى.

فنسبة الوسائط إلى الله تعني نسبة العجز إليه ولابد، وهذا ظنُّ الجاهلية بالله سبحانه هو ظن السوء، هو من عدم إقدار الله عز وجل حق قدره.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن الخضوع والتأله الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيحٌ في نفسه، كما قررناه، لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للملك العظيم الرحيم القريب المجيب، ومملوكًا له، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[الروم:٢٨] أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفردٌ به، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصلح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق تعظيمي.

قال الشَّارح وفقه الله:

لاحظ معي أن في الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الأمور التي ذكرها الشيخ:

الأول: اتخاذ الوسائط من حيث هو يستلزم نسبة الحاجة إلى الله عز وجل، والله منزه عن ذلك.

الثاني: أن في الشرك بالله عز وجل صرف خالص حقه لغيره، وهذا لا شك أنه اعتداءٌ على حق الله سبحانه، فالطاعة لا تجوز إلا له ولا تنبغي إلا له، وصرفها لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تعدٍّ على حقه جل وعلا. هذا أمر ثانٍ. فكيف إذا كان هذا الغير عبدًا مملوكًا لله جل وعلا؟ وهذا أمرٌ ثالث يدلك على قبح الشرك، وأنه غاية الضلال، وأنَّ من أشرك مع الله فقد ضل ضلالًا بعيدًا.

وبيَّن لنا ربنا جل وعلا ذلك بضرب الأمثال، والأمثال ترجع -أعني: ضربها- يرجع إلى تشبيه حالةٍ بحالة لأخذ العبرة والعظة، هذا هو المثل وهذا ضرب المثل، هو تشبيه حالة بحالة لأخذ العظة والعبرة، نستفيد من ضرب المثل هذه الفائدة أننا نأخذ عبرة وعظة من ذلك المثل وهو التشبيه، تشبيه الحالة بالحالة.

قال: (**لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للملك العظيم القريب المجيب**)، وكل ما سوى الله كذلك، لا فرق بين معبود ومعبود ولا بين مشارك ومشارك، لا فرق بين صنم ولا نبي ولا ولي ولا

مَلَك ولا شجر ولا حيوان ولا أي شيء، الكل يشترك في هذا الوصف أنه مملوكٌ وعبدٌ للملك العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[الروم:٢٨]) تأمل هذا المثل العظيم.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[الروم:٢٨]، هل لكم يا أيها العقلاء من المماليك الذين هم أرقَّاء تحت أيديكم، هل لكم منهم شركاء يشاركونكم في أموالكم وعقاركم وما تملكون مما رزق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأنتم وإياهم فيه سواء، لكم الحق كما أن لهم الحق، بل إنكم تعاملونهم بحذر، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم، يعني: كخيفة الأحرار مثلكم الذين هم شركاء معكم، هل تعاملون مماليككم كذلك؟ بل هل ترضون أن يكون مماليككم كذلك؟ أحدٌ يرضى من مملوكه ذلك؟ أن يكون مملوكًا له اشتراه بخالص ماله من ذهب أو وَرِق ثم أصبح المملوك مُشَارِكًا له في ماله يتصرف فيه كتصرف الشريك، وصاحب المال يحذره ويخاف أن يتصرف في ماله تصرفًا يغضب ذلك الشريك، هل أحد يقبل من شريكه ذلك؟ لا أحد يقبل، فكيف يكون ذلك في حق الله سبحانه؟ تجعلون المملوك له جل وعلا مثله؟ تعطونه ما تعطون الله من الحق؟ إذا كنتم لا ترضون هذا في أنفسكم فكيف ترضونه في حق الله جل وعلا؟!

ولذا قال جل وعلا عقيب ذلك: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم:٢٨]، لكن المشركين لا عقول لهم، فلو كانوا يعقلون لارتدعوا عن الشرك بالله سبحانه.

ثم لاحظ ماذا عقَّب جل وعلا على ذلك قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾[الروم:٢٩]، حقيقة الحال لا كما جاء في تلك الشبهة أنَّ المشركين أرادوا تنزيه الله، كلا والله، ما أرادوا تنزيه الله، خلاصة الحال وحقيقة الواقع تتلخص في هذه الجملة: أنَّ هؤلاء اتبعوا أهواءهم، ما دفعهم إلى الشرك الرغبة في التنزيه، كلا والله، بل دفعهم إلى ذلك اتباع أهوائهم، الله جل وعلا بكل شيء

عليم وبكل شيء خبير، فهو يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حال هؤلاء المشركين على وجه الدقة، فيعلم أنَّ هؤلاء المشركين حقيقة حالهم أنهم اتبعوا أهواءهم، ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[الروم:٢٩].

ووالله ما أرادوا تعظيم الله، ولو أرادوا تعظيم الله لكان عظيمًا في نفوسهم ولتوجهوا له وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة.

فهذا مثَلٌ يدل على أن شأن الشرك عظيم، وأنه قبيحٌ في العقل كما أنه قبيحٌ في الشرع.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبالجملة فما قدر الله حق قدره من عبد معه من ظن أنه يوصل إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾[الحج:٧٣] الآية، إلى أن قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:٦٧]، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

قال الشَّارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وبالجملة: فما قدَر الله حق قدره من عبد معه من ظن أنه يوصل إليه**) هذا مآل وحقيقة بل سبب الشرك الذي وقع من هؤلاء المشركين أنهم ما قدروا الله حق قدره، ولو قدروا الله حق قدره وعظموه حق تعظيمه ما وقعوا في الشرك به، وما أحسن ما قال إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ قال: وأما توحيد الربوبية فهو الأصل، وما غلِط في الألوهية إلا من لم يعطه حقه. حقيقة الحال أن هؤلاء ما كمل عندهم تعظيم الله ولا توحيده في ربوبيته، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك في الإلهية.

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾**[الحج:٧٣] هذا مَثَل آخر، فاسمع يا رعاك الله، **﴿فَاسْتَمِعُوا﴾**[الحج:٧٣] فعل أمر من الله جل وعلا، أرعِ هذا المثل سمعك وافتح له قلبك تُفِد منه علمًا وإيمانًا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾[الحج:٧٣]، الذباب هذه الحشرة الحقيرة التي هي من أصغر وأحقر الحشرات، والتي هي مكروهة ومبغوضة ولا قيمة لها ولا تساوي شيئًا، كل من يُدعى مع الله سواء كان الدعاء دعاء عبادة أو دعاء مسألة لن يستطيع البتة أن يخلق ذبابًا فضلًا عمَّا هو فوقه، فضلًا عن هذه السماوات والأرض، لا يستطيع.

ليس هذا فحسب، بل لو كان هؤلاء المعبودين من دون الله عز وجل مجتمعين، اجتمعوا في مؤتمر عظيم كلهم من أطراف الأرض والسماوي منه والأرضي، اجتمعوا وتعاونوا وتساعدوا وتكاتفوا، فالنتيجة أنهم لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابة واحدة.

ليس هذا فحسب، بل ثمة درجة أقل من ذلك لا يستطيعونها، ﴿**وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ**﴾[الحج:٧٣]، لو أنه وقع على طعام فمصَّه وأخذ منه شيئًا فإنهم لا يستطيعون أن يعيدوا هذه الجزئية اليسيرة التي أخذها هذا الذباب. سبحان الله العظيم!

﴿**ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾[الحج:٧٣] ضعف الداعي والمدعو، كلهم ضعفاء، وبالتالي فهم لا يستحقون أن يُعبدوا مع الله عز وجل، ومن دعا هؤلاء مع الله جل وعلا فإنه حرِيٌّ به أن يكون قد وقع في إثمٍ عظيم وافتراءٍ كبير على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتأمل هاهنا هذا المثل فإن فيه ردًا على شبهة القبوريين المعاصرين الذين يقولون: نعم، الشرك ممنوع والشرك قبيح وعبادة غير الله عز وجل قبيحة وآيات الكتاب في هذا كثيرة، ولكن كل تلك الآيات إنما تعلقت بمن يعبد الأصنام ومن يعبد الأشجار ومن يعبد الأحجار، أما كونك تتوجه إلى نبي أو تتوجه إلى ولي فهذا لي بشرك، النصوص كلها تتعلق بحال أولئك الذين نزل في حقهم القرآن كانوا يعبدون اللات والعزى ومناة.. إلى آخره، لكن ما كانت نازلة في الذين يعبدون النبي محمدًا ﷺ، أو يعبدون الحسن والحسين، أو يعبدون فاطمة وعلي، أو يعبدون البدوي والدسوقي وأمثال هؤلاء.

والجواب عن ذلك: أنَّ الذين بُعِث فيهم النبي ﷺ ومن قبلهم -أيضًا- كانت عباداتهم متفرقة، منهم من كان يعبد الأصنام، ومنهم من كان يعبد الملائكة، ومنهم من كان يعبد الصالحين، ومنهم من كان يعبد الأنبياء كالذين كانوا يعبدون عيسى وأمه في عهد النبي ﷺ وما فرَّق النبي ﷺ بينهم في الحكم، هذا شيء.

الشيء الآخر: ماذا تقولون في هذ الآية وأمثالها: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا**﴾[الحج:٧٣]، هذا الوصف يصدق على الأصنام، أليس كذلك؟ الأصنام لا تخلق ذبابًا، أليس كذلك؟

طيب. هل يصدق هذا الوصف على الأولياء؟ هل يُقال: إن الأولياء أو هل يصح أن يقال: الأولياء لن يخلقوا ذبابًا؟ نعم، وهل يصح أن يقال: إن الأنبياء لن يخلقوا ذبابًا؟ نعم، إذًا: كل من سوى الله جل وعلا فإنه يدخل في حكم هذه الآية، لأن كل ما سوى الله جل وعلا لن يستطيع أن يخلق ذبابًا البتة، بل لن يستطيع أن يستنفذ من الذباب ما أخذ من حاجات الناس.

إذًا: دلت هذه الآية وأمثالها على أن الشرك بغير الله عز وجل مطلقًا ممنوع، سواء أكان ذلك بنبي أو ولي، بملك، بشجر، بحجر، بحيوان، أيًا كان فالحكم واحد، فكل ما سوى الله عز وجل فإن عبادته ضلال، مهما ارتفعت منزلة المعبود أو نزلت، لا فرق، وهذا من الشبه التي ينبغي أن يتنبه أهل التوحيد إلى جوابها، الجواب عليها له أوجه متعددة ولعله يأتي -إن شاء الله- الكلام عن ذلك في شرح القواعد الأربع إن يسر الله عز وجل ذلك لاحقًا.

ثم ختم الله جل وعلا هذه الآية بقوله: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:٧٤]، هذه الخاتمة للآية تلخص لك -يا عبد الله- حال هؤلاء المشركين أنهم ما قدروا الله حق قدره، والحال أنه القوي العزيز.

إذًا: هو الذي يستحق العبادة دون غيره جل وعلا.

قال: (**وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:٦٧] قال: فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل**) يعني: إذا كان هذا وصْفه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذا الوصف العظيم الذي لا يمكن أن يقرُب منه أحد، بل أن يكون دونه بمراحل، لا يمكن لأحد أن يصل إلى هذه المنزلة العظيمة من العزة والقوة والقدرة، وهو أن تكون الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، وأن تكون السماوات هذه العظيمة بطباقها وما فيها كلها مطوية بيمينه جل وعلا، إذًا من هذا شأنه؟ أيجوز في العقل أن يُشرَك معه غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ لا شك أن هذا غاية الضلال، والله المستعان!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أنك إذا تأملت جميع طوائف الضلال والبدع، وجدت أصل ضلالهم راجعًا إلى شيئين:

أحدهما: ظنهم بالله ظن السوء.

والثاني: أنهم لم يقدروا الرب حق قدره، فلم يقدره حق قدره من ظن أنه لم يرسل رسولًا، ولا أنزل كتابًا، بل ترك الخلق سدى، وخلقهم عبثًا.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

أشار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى خلاصة مهمة وهي: أنَّ جميع أهل الضلال من أهل الشرك -وقد سبق الحديث عنهم- وما هو أعم من ذلك، كل أهل الضلال ولو كانوا من أهل البدع فإنَّ حالهم يشهد بأن ضلالهم راجعٌ إلى سببين، والسببان متلازمان.

قال: (**أحدهما: ظنهم بالله ظن السَّوء**) يجوز أن تقول: السُّوء، لكن الأفصح (السَّوء)، هؤلاء أول حالهم أنهم ظنوا بالله ظن السَّوء، وقلنا: إن ضابط ظن السوء هو أن يُظن بالله خلاف ما يليق به جل وعلا.

والأمر الثاني: أنهم لم يقدروا الله حق قدره. والواقع أن هذين الأمرين أحدهما سبب والآخر نتيجة، فالثاني سبب، الأصل أنهم ما قدروا الله حق قدره فكانت النتيجة أن أساؤوا الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم بدأ بضرب أمثلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكما ذكرت لك هذه الأمثلة أخذها أو هي منقولة كما أن هذه القطعة من الرسالة منقولة برمَّتها من ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الداء والدواء مع تصرف يسير، ضرب أمثلة وأغفل أمثلة أخرى ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الفصل نافع جدًا، وأوصيك بقراءته ومراجعة ما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومراجعة الأمثلة التي ضربها مما لم يذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنها مفيدة لك يا طالب العلم فائدة كبيرة.

قال: (**فلم يقدره حق قدره من ظن أنه لم يرسل رسولًا ولا أنزل كتابًا، بل ترك الخلق سدىً وخلقهم عبثًا**)، كما قال جل وعلا: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**﴾[الأنعام:٩١]، سبحان الله! إنكار إرسال الرسل وإنزال الكتب قدحٌ في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قدحٌ في رحمته وقدحٌ في حكمته، قدْحٌ في رحمته وهو أن يترك العباد بلا سبب يهديهم ويدلهم على الطريق

المستقيم، وهؤلاء هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة السلام وما أنزل الله عليهم من كتبه التي هي كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذا -أيضًا- في هذا الزعم قدحٌ في حكمة الله جل وعلا، وهو أن يخلق الخلق عبثًا ويتركهم سدى، يخلق هذا الكون العظيم ويخلق هذه المخلوقات العجيبة البديعة ثم بعد ذلك لا شيء، لا أمرٌ ولا نهي ولا جزاء ولا حساب، لا شك أنَّ هذا عبث يتنزه عنه ربنا العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لو رأيت وأنت تمشي في فضاء في صحراء، لو رأيت قصرًا عظيمًا ومُزَينًا غاية التزيين ومحسنًا غاية الحُسْن ثم قيل لك: إن الذي صنع هذا صنعه فقط هكذا، لا يسكنه ولا أحد يسكنه وإنما فقط هكذا، لا شك أن هذا يدل على عبثٍ من صانعه إن صح ذلك، إن كان صنعه ثم تركه هكذا هذا دليل على أنه رجلٌ غير حكيم، ولو كان حكيمًا ما صنع هذا الشيء العظيم المكلِف المتقَن ثم بعد ذلك يتركه سدى مهملًا، فكيف بهذا الكون العظيم عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه بهذه المخلوقات وبهذا الإنسان العجيب الذي آتاه الله عز وجل في نفسه من الآيات ما يقف الإنسان أمامه عاجزًا في إدراكه ومعرفة كنهه فضلًا عن معرفة كيف خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الخلق.

العباد العلماء جميعًا عاجزون عن إدراك كل شيء عن ذبابة واحدة، ابحث وانظر جميع علماء الأحياء والكيمياء والفيزياء وغير ذلك كلهم عاجزون عن إدراك كل شيء عن ذبابة واحدة، فكيف بما هو أعظم من ذلك؟ ثم بعد ذلك يُقال: الله جل وعلا خلق هذا الخلق هكذا، سبهللًا دون غاية ولا حكمة. لا شك أن هذا قدحٌ في حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذا وصف الله هؤلاء المشركين المنكرين للبعثة والمنكرين للكتب بأنهم ما قدروا الله حق قدره ﴿**إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ**﴾[الأنعام:٩١].

ويا لله العجب! انظر إلى هذه العجرفة وهذا الغباء الذي هم فيه، من أنتم حتى تحكمون على أن الله ما أنزل على أيِّ بشرٍ أيَّ شيء؟ ما أدراكم؟ ما هو مستوى إحاطتكم بالبشر قبلكم في هذه الأرض جميعًا؟ فمن أين لكم أن الله عز وجل ما أنزل على بشر من شيء؟

ولذا انظر إلى الرد العظيم، الرد كانت في كلمتين ألزمتهم وأبطلت حجتهم تمامًا، هم احتجوا بحجة يعني كما يقولون كلِّية سالبة، وكان نقضها بجزئية موجبة واحدة فقط، ﴿**قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى**﴾ [الأنعام:٩١]، من جاء به وأنتم تعلمون؟ وقد تواتر عند العرب جميعًا وعند الناس كافة في ذلك الزمان أن هناك كتابًا أنزله الله عز وجل على موسى هو التوراة، هذا قَدْر لا ينكرونه بل يُسلِّمون به.

إذًا: حجتهم باطلة، الكلية السالبة تُنقض بجزئية موجبة، واحدة فقط تدل على أن كلامهم كله ممنوع.

وإذا كان الله عز وجل قادرًا على أن ينزل على موسى فما الذي يحول بينه وبين الإنزال على محمدٍ ﷺ؟ أصار هذا معجزًا له؟ تعالى الله عن ذلك!

إذًا: هؤلاء الذين نفوا أن يكون الله عز وجل قد أرسل الرسل وأنزل الكتب حقيقة حالهم أنهم ما قدروا الله حق قدره.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا قدره حق قدره من نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده، من طاعتهم ومعاصيهم، وأخرجها عن خلقه وقدرته.

قال الشّارح وفّقه الله:

قلنا: هؤلاء هم القدرية، وأصل شبهتهم أنهم اعتقدوا أن كل ما أراده الله عز وجل فقد أحبه، والله لا يحب المعاصي، وبالتالي فلابد من إخراجها عن إرادة الله جل وعلا، ولا نستطيع أن نخرج المعاصي ونبقي الطاعات لأنها كلها من جنسٍ واحد وهو الأفعال، أفعال العباد، وبالتالي فأخرجوها جميعًا من قدرة الله ومن إرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن خلقه، فلا يتعلق بها قدرته ولا يتعلق بها إرادته ولا يتعلق بها خلقه، بل هي حادثة ومخلوقة من قِبَل العباد. وهذا سبق الحديث عنه غير مرة وصدق وصفهم بأنهم مجوس هذه الأمة إذ أثبتوا مع الله عز وجل خالِقين.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا قدر الله حق قدره أضداد هؤلاء، الذين قالوا: إنه يعاقب عبده على ما لم يفعله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه.

وإذا استحال في العقول أن يُجْبِرَ السيد عبده على فعل ثم يعاقبه عليه، فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟، وقول هؤلاء شرٌّ من أشباه المجوس القدرية الأذلين.

قال الشارح وفقه الله:

هؤلاء مقابلون للأولين، هؤلاء الجبرية الذين يقابلون القدرية، وإن شئت فسمِّهم القدرية المشركية الذين أنكروا فعل العبد ومشيئته، هؤلاء يعتقدون أنَّ العبد ليس بفاعل بل مفعول به، ونسبة الفعل إليه مجاز كما يقولون، فكما تقول: تحركت الشجرة والواقع أنها حُرِّكت، الرياح حركتها، فهؤلاء الجبرية شَرٌّ من أولئك القدرية، وكلهم شر لكنه ضلال بعضه أشد من بعض.

هؤلاء اعتقدوا أن الذي يفعل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والعبد مسكين مجرد آلة ليس منه شيء ولا صدر عنه شيء، ونتج عن هذا أنهم أساؤوا الظن بالله جل وعلا، إذ اعتقدوا فيه الظلم، ويجيش هذا في صدروهم وربما ظهر من بعض فلتات كلامهم أنه يجبرهم ثم يحاسبهم ويعاقبهم، بمقتضى عقيدتهم أن الذي سرق ليس هو السارق، السارق مسكين، السارق سُرِق به، والفعل حقيقة إنما كان من الله، تعالى الله عن قولهم!

كذلك الزاني، كيف تأخذونه بعد ذلك وتعاقبونه ثم يُتوعد ذلك بعذاب النار في الآخرة مع أنه مسكين مجبور، ما صنع شيئًا، هم اعتقدوا في الله عز وجل أنه ظالم وإن كانوا يتحاشون عن قول هذه الكلمة، حتى إنهم غيروا معنى الظلم حتى يخرجوا عن هذا الإشكال، الظلم عندهم هو غير المقدور، الذي لا يدخل تحت القدرة الإلهية ومثَّلوا له بالجمع بين النقيضين أو رفع النقيضين، قالوا: هذا هو الظلم فقط الذي هو خارج عن القدرة، وما سواه فليس بظلم.

ولا شك أنَّ هذا ليس هو الذي تنزه الله عز جل عنه، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:٤٠]، النبي ﷺ أخبر عن ربه جل وعلا أنه حرم الظلم عل نفسه، «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»، لا شك أن هذا ليس هو الظلم الذي زعمه هؤلاء الجبرية، بل الظلم مقدورٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هو يقدر أن يظلم ولكن يتنزه عنه، لأنه يتنافى وصفاته العظيمة الجليلة ونعوته الجميلة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فقولهم لا شك أنه غاية في الضلال، بل الفعل إنما صدر من العبد، هو الذي فعل، ولذا يتحمل مسؤولية فعله، (جزاءً بما كنتم تعملون)، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة:٢٨٦]، والله ليس بظلام للعباد.

إذًا: الفعل صادرٌ من العباد حقيقة، فلهم قدرة ولهم استطاعة، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، إذًا للعبد استطاعة وله قدرة.

وله مشيئة، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:٢٨]، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[البقرة:٢٢٣]، إذًا أنتم تشاؤون، لكم مشيئة وإن كانت مشيئتكم لا تخرج عن مشيئة الله، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[الإنسان:٣٠].

إذًا: للعبد قدرة بها يفعل، وللعبد مشيئة بها يفعل، وبالتالي فالفعل منه حقيقة، هو الذي فعل، وبالتالي فإذا جوزي على فعله كان هذا محض العدل. انتبه! للفعل طرفان من لم يفرِّق بينهما ضل، طرف يتعلق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وطرف يتعلق بالعبد، ما يتعلق بالله عز وجل هو ما يرجع إلى تقديره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو كونه علم وكتب وشاء وخلق، وما يرجع إلى العبد هو كونه اكتسب، هو كونه فعل، هو كونه قدر، هو كونه شاء، وبهذا تجتمع الأدلة وتلتئم، فالفعل يُنسب إلى الله عز وجل تقديرًا وخلقًا، ويُنسب إلى العبد قدرة وفعلًا. تنبه إلى هذا الفرقان في هذه المسألة التي بها توسط أهل السنة والجماعة بين القدرية والجبرية ففازوا بالحق.

والعقل يشهد بكذب قول هؤلاء الجبرية، وأنهم ما قالوا الصواب، العقل يدرك الفرق بين الفعل الاختياري والفعل غير الاختياري، أنا أعلم من نفسي ضرورة وأنتم تعلمون مني ضرورة أني رفعت هذا الكأس بمحض مشيئتي وقدرتي، ولو أردت أن لا أرفعه لن أرفعه، صح وإلا لا؟

أنا أدرك الفرق بين حركة يدي هذه وبين حركة قلبي، حركة القلب إرادية أو غير إرادية؟ غير إرادية، ولذلك لا أستطيع أن أقول لقلبي: توقف، لكن حركة يدي إرادية.

لو كان إنسان عنده رُعاش، يده ترتعش لا إراديًا ويدٌ سليمة، ألا نفرِّق -يا معشر العقلاء- بين حركة اليدين؟ نعم، هذه حركة بإرادة وهذه حركة بغير إرادة، فكيف يقال بعد ذلك: إن العبد يفعل بغير إرادته؟ هذا مخالفٌ لما يعقله العقلاء جميعًا، فدل هذا على أن قولهم غاية في الضلال.

ثم ترتب على هذا أمور وضلال بعضه فوق بعض حتى وصل من بعضهم إلى حد الانسلاخ من الشريعة بالكلية، حتى اعتقد بعض هؤلاء أن كل ما يصدر من العبد فهو طاعة، لم؟ لأنه فعل الله عز وجل حقيقة، حتى ولو كان الفاحشة، حتى ولو كان غاية المعاصي، حتى قال قائلهم:

أصبحت منفعلًا بما يختاره　　　مني ففعلي كله طاعات

كل ما يفعل فهو طاعة، فخرجوا إلى مذهب الإباحية، أصبح كل شيء مباحًا بل طاعة حتى ولو كان السرقة، ولو كان الزنا، ولو كان القتل، ولو كان ما كان. فحقيقة فعل هؤلاء هو هذا، حقيقة قول هؤلاء واعتقادهم هو هذا أنَّهم ما قدروا الله عز وجل حق قدره ولا قدروه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حق قدره.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا قدره حق قدره من نفى رحمته ومحبته، ورضاه غضبه، وحكمته مطلقًا، وحقيقة فعله، ولم يجعل له فعلًا اختياريًا، بل أفعاله مفعولات عنه منفصلة عنه.

قال الشّارح وفّقه الله:

هؤلاء الجهمية وأتباعهم، وفي لسان السلف: كل من خاض في صفات الله سبحانه بالباطل فنفى وعطَّل فإنه جهمي، فيه تجهُّم، فيه تعطيل لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهؤلاء فِرَقٌ متعددة، وقد مضى شرح مذهب هؤلاء في درس القواعد المثلى وبيان شبهتهم والرد عليها.

المقصود: أن هؤلاء الذين نفوا أن يكون لله عز وجل هذه الصفات، فلا رحمة له ولا محبة له ولا رضا ولا غضب ولا حكمة ولا فعل، وكل ما يُنسب إليه من ذلك مجاز، إذا قيل: إن الله يحب، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، مباشرة يقول لك: لا، حاشا وكلا! الله لا يحب، الله منزَّه عن المحبة. سبحان الله! وهذا الذي في كتاب الله نقرؤه. قال: نعم، هذا موجود في القرآن لكنه مجاز، ليس على ظاهره ولا يُحمل على حقيقته، إنما له معنى آخر.

وتأويلات هؤلاء للصفات كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤولون بمفعولات منفصلة عنه، أو يؤولون بالذات، أو يؤولون بصفة يثبتونها، هذا بالنسبة لمن يثبت بعضًا وينكر بعضًا. وغالبًا يدور تأويلهم على صفة الإرادة، فيُحب يعني يريد أن ينعم، ويُبغض يعني يريد أن يعاقب.

وقد يؤولون بمخلوقات، فالمحبة هي النعمة نفسها، وكل ذلك لا شك أنه ضلال، وزَعْمهم أن هذا النفي إنما كان لأجل تنزيه الله عز وجل عن التشبيه، عن تشبيهه تعالى بالمخلوقات.

فالجواب: أنهم ما صنعوا شيئًا، وقعوا في شَرٍّ مما فروا منه، فإذا كانوا فرُّوا من تشبيه الله عز وجل بالإنسان الذي يحب ويبغض، والذي يفعل ويأتي، والذي ينزل ويستوي فإنه شبَّهوه تعالى إما

بالناقصات، وإما بالجامدات، وإما بالمعدومات، وإما بالممتنعات، وإذا كان ولابد من التشبيه فلا شك أن التشبيه الأول أولى وأقل شرًا.

والواقع أنه لا تشبيه، الواقع أن هذا الذي زعموه تشبيهًا ليس بتشبيه، يعني: ليس بتمثيل، فالله منزَّه عن التمثيل، الله يحب والله يبغض، والله يأتي، والله يجيء، والله له يد، والله له وجه، إلى غير ذلك مما أخبر به سبحانه في كتابه أو أخبر عنه نبيه ﷺ ولكن كل تلك الصفات لها قدْرٌ يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، فالعبد له وجهٌ يليق به ولله وجهٌ يليق به. وأنَّى يكون وجه العبد كوجه الله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! يا لله العجب! الله وجهه عظيم، ذو الجلال والإكرام، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، كيف يقال بعد ذلك إن هذا الوجه العظيم كوجه المخلوق؟ يا لله العجب!

كيف يقال: إن يد الله عز وجل -إذا قلنا إن لله يد حقيقية- إنها تكون مشبَّهة بيد الإنسان؟ سبحان الله! هل الله عز وجل وصف نفسه بيد هكذا وإلا وصف نفسه بيدٍ تليق به، مضافة إليه؟ بل موصوفة بصفات لا يمكن أن يخطر على العقول هذا اللازم إلا لمن كان فاسد القلب مريضه، الله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]، يَدٌ بهذه العظمة كيف يقال بعد ذلك إنه يقع في النفس تشبيه مع يد الإنسان؟ سبحان الله العظيم!

فهذا يدلك على أن هؤلاء ما قدروا الله حق قدره، فإن حقيقة قولهم: الله أخبرنا بكلام ظاهره يضلنا، بل ظاهره يوصلنا إلى الكفر، مع أنه يخبرنا أنه جعل هذا الكتاب هداية ونورًا وبشرى للمسلمين. سبحان الله العظيم! هل صفات الله في القرآن قليلة أو كثيرة؟ كثيرة جدًا، بل أكثر ما في القرآن هو ما يتعلق بالصفات، ومع ذلك هي عند هؤلاء لو حُمِلت على ظاهرها لضللنا لأننا شبهنا، بل لكفرنا لأن المشبهة كفار.

هل يليق بحكمة الله جل وعلا أن ينزل قرآنًا ظاهره الضلال في جُلِّ آياته، ظاهره التشبيه ثم يقول إنه كتاب هداية ونور ويرشد إلى الطريق المستقيم؟ لا يتأتى هذا، بل هذا لا يليق بآحاد الناس أنه يتكلم بكلام ظاهره شيء والمراد شيء آخر، هذا لا يفعله من يريد الهداية.

أقول لك: أحضر لي ماءً، فإذا أحضرت الماء أقول: لا، الكلام على غير ظاهره، المفروض تفهم أن هذا الماء يعني طعام. هل يفعل هذا من يريد الهداية وإلا من يريد التعجيز؟ والله جل وعلا يقول: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ**﴾[النساء:٢٦]، الله يريد أن يبين لنا، فكيف يأتي بكلام ظاهره الضلال يا عباد الله!

ثم نبينا ﷺ ليل نهار يتلو على أصحابه آيات الصفات، بل ويخبرهم من كلامه هو ﷺ الذي هو وحي من الله جل وعلا يخبرهم بصفاته، يخبرهم كثيرًا كثيرًا في نصوص يرويها عشرات الصحابة، مثلًا: «**إن الله ينزل إذا بقي ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا**»، عند هؤلاء إذا اعتقدت أن الله ينزل حقيقة فقد شبهت الله بخلقه فكفرت.

النبي ﷺ ولا مرة واحدة يقول لأصحابه: احذروا، أنا أقول ينزل لكن لا تفهموا أنه ينزل، إنما ينزل أمره أو ينزل مَلَكٌ من ملائكته كما يقول هؤلاء المعطلة، ما قال هذا ولا مرة واحدة مع أنه الرؤوف الرحيم بنا ﷺ، أهذا حال الرؤوف الرحيم يقول كلامًا ظاهره يضل وهو يريد غيره؟ إذًا لماذا ما تكلم ﷺ بصراحة وفصاحة وقال: المراد هو كذا وكذا، ينزل لا ما ينزل، ينزل أمره وانتهت القضية.

إذًا: هذا يدلُّك على أن هؤلاء ما قدروا الله حق قدره، هؤلاء أضافوا إلى الله جل وعلا ما لا يليق بحكمته وما لا يليق برحمته، ما قدروه سبحانه حق قدره، الذي قدر الله عز وجل حق قدره هو الذي عظَّم الله، هو الذي اعتقد أن الله رحيم، هو الذي اعتقد أن الله حكيم، وبالتالي فكتابه سبحانه غايةٌ في البيان وغاية في الوضوح، ويهدي إلى الحق، ولا يمكن أن يكون ظاهره فيه شيء يضل البتة، مستحيل! زعْمهم أن ظاهره يفيد الضلال أو يفيد التشبه هذا كلامٌ فاسد، إن حصل تشبيه فليس من ظاهر القرآن إنما من خلل في قلوب وعقول من وقع في ذلك، أما الله عز وجل ورسوله ﷺ فهم بريئان من ذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا قدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدًا، أو جعله يحل في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود.

ﮋﮋ◊ﮊﮊ

قال الشَّارح وفَّقه الله:

أشار هنا إلى ثلاثة أقوال ضالة.

قال: (**ولا قدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدًا**)، الذي يزعم أن الله اتخذ صاحبة -يعني: اتخذ زوجًا، أي: زوجة كما يتخذ الناس زوجات- فما قدره حق قدره، لأن الصاحبة، لأن الزوجة من جنس الزوج، أليس كذلك؟ يعني لا يتزوج الإنسان حجرًا أو شجرًا، إنما يتزوج من كانت من جنسه، فمن زعم هذا في حق الله جل وعلا فإنه ما قدره حق قدره، فإن الله هو الواحد وهو الأحد، وهو الذي لم يكن له كفوًا أحد، فمن زعم أن له صاحبة فما قدره حق قدره.

ويبدو أن حصول هذا قد وقع، يعني هذا القول قد اعتقده من اعتقده إما من الإنس وإما من الجن، لأن الجن تبرؤوا من هذا القول: ﴿**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا**﴾[الجن:٣]، فيبدو أن هذا القول وإن لم يكن يُعرف في فرقة من فِرَق الناس أنها زعمت أن الله اتخذ صاحبة -يعني: زوجة- كما يتخذ الناس زوجات، لكن يبدو أن هذا القول قد وقع، وإلا فما تبرأ منه هؤلاء الجن المسلمون.

قال: (وولدًا) يعني: من جعل له -أيضًا- ولدًا ما قدره حق قدره. وهؤلاء كثيرٌ في البشر، فالمشركون زعموا أنَّ الملائكة بناتُ الله، واليهود زعموا أن عزيرًا ابن الله، والنصارى زعموا أن عيسى ابن الله، وكل هذا لا شك أنه ضلال بل ضلال مبين، بل هذا قولٌ عظيم كادت السماوات والأرض أن تضطرب وتضمحل من أجله، ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾[مريم:٨٨-٩٣].

نسبة الولد إلى الله جل وعلا تعني إثبات مثيل لله جل وعلا؛ لأن الولد من جنس والده ويأخذ خصائص والده، وهذا يتنافى مع أحديته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثم الولد يستلزم الحاجة، الذي يتخذ ولدًا إنما يتخذه لحاجته، إمَّا حاجته النفسية أو حاجته المادية، والله عز وجل هو الغني، فما حاجته إلى الولد؟

ثم إنَّ الولد إنما يتخذه الذي لا يستطيع أن يخلق، أما الله عز وجل فقد خلق كل شيء، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾[الأنعام:١٠١] ثم قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٠١]، إذًا هو خالقٌ لكل شيء، فما حاجته إلى أن يتخذ ولدًا؟ أما الإنسان فيتخذ ولدًا لأنه لا يستطيع أن يخلق.

ثم أمرٌ رابع: الولد لا يكون إلا من صاحبة، يعني: من زوجة، والله عز وجل منزه عن ذلك، لأن الزوجة -كما أسلفنا- من جنس الزوج، والله عز وجل لم يكن له كفوًا أحد وليس له مثيل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فدل هذا على أن من زعم هذا الزعم فما قدر الله حق قدره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (**أو جعله يحلُّ في مخلوقات، أو جعله عين هذا الوجود**)، هذان قولان لغلاة الضُّلَّال المبتدعة الذين هم أهل الحلول، الذين قالوا: إنَّ الله عز وجل يحلُّ في مخلوقاته إما حلولًا كليًا أو حلولًا جزئيًا كما سبق بيان هذا، أو قالوا بوحدة الوجود، وهو أخبث، يعني: أن المخلوق عين الخالق، بل لا خالق ولا مخلوق، كله شيء واحد، وهؤلاء المشهورين عند بعض الناس والذين ربما غفلوا عن ضلالهم العظيم كابن عربي وابن الفارض والحلاج وابن سبعين والتلمساني وأمثال هؤلاء الضُّلَّال أهل الاتحاد والوحدة، الذين يزعم زاعمهم أن الله عز وجل عين كل شيء، حتى صرَّح ابن عربي الطائي أن الله -تعالى الله عن قوله وعليه من الله ما يستحق- هو الناكح والمنكوح، تعالى الله عن قوله! لأن كل شيء في هذا الكون إنما هو الله، شيءٌ واحد لكن الصور مختلفة، كالبحر له أمواج والبحر واحد، تعالى الله عن قولهم وإفكهم!

ولا شك أن هذا أعظم الكفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأعظم الضلال، ولأجل هذا على الإنسان أن يحذر ويتنبه، فكتب هؤلاء وضلالهم -مع الأسف الشديد- ربما تكون في أيدي بعض المسلمين ولا يتنبهون

إلى خطورة هذا الكلام العظيم، مذهب هؤلاء هو من شر أقوال أهل البدع والضلال بل الكفر، نسأل الله السلامة والعافية!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا قدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداء رسوله ﷺ وأهل بيته، وجعل فيهم المُلْك، ووضع أولياء رسوله ﷺ وأهل بيته، وهذا يتضمن غاية القدح في الرب، تعالى الله عن قول الرافضة! وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في قول رب العالمين: إنه أرسل ملكًا ظالمًا، فادعى النبوة، وكذب على الله، ومكث زمنًا طويلًا يقول: أمرني بكذا ونهاني عن كذا، ويستبيح دماء أنبياء الله وأحبابه، والرب تعالى يظهره ويؤيده، ويقيم الأدلة والمعجزات على صدقه، ويقبل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويقيم دولته على الظهور والزيادة، ويذل أعداءه أكثر من ثمان مائة عام.

فوازِن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين سواء.

قال الشّارح وفّقه الله:

فلا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يورد جملة من الأمثلة التي تؤكد القاعدة التي أشار إليها آنفًا وهي: أن جميع طوائف الضلال والبدع أصل ضلالهم راجعٌ إلى **أمرين**:

أولهما: أنهم ظنوا بالله ظنوا السوء.

والثاني: أنهم لم يقدروا الرب تعالى حق قدره.

ومن الأمثلة التي ذكرها قول أعداء أصحاب النبي ﷺ، بل أعدائه هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذين قدحوا في أصحاب النبي ﷺ وزعموا أن الله جل وعلا آتاهم ما آتاهم من محبة الخلق والرفعة في قلوبهم، وما آتى جملة منهم من الحكم والسلطة وإقامة الدين والجهاد في سبيل الله، ومع ذلك فحقيقة حالهم أنهم منافقون بل مرتدون، وحاشاهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

فإن هذا لو تأمل فيه المتأمل بغض النظر عن عشرات الأدلة التي تدل على بطلان هذا القول، لو نظر الناظر فقط من هذه الجهة وهي من جهة أن هذا يتنافى مع تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومع إقداره حق قدره فإنه لا يمكن في حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يمكّن لهؤلاء الأصحاب الأخيار وهم على هذا الوصف السيء الذي وصفهم به أعداؤهم وأعداء المسلمين، قبحهم الله!

أنَّى يكون في حكمة الله عز وجل أن يجعل أحباب النبي ﷺ وأصحابه وإخوانه ووزراءه ومن كانوا معاشريه في حياته ومن كان سادتهم -وهم الشيخان- ضجيعيه في قبره، أن يكونوا هؤلاء جميعًا على هذا النعت الذي ذكروا، لا شك أن هذا لا يتأتى مع ثبوت حكمة الله عز وجل وعزته.

ثم نظَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القول بقولٍ قريب منه، وهو قول مكذِّبي رسول الله ﷺ الذين لازم قولهم أن يكون النبي ﷺ مدعيًا للنبوة ويزعم أنه رسولٌ من عند الله وهو في حقيقة الحال -كما يزعمون- يكذب على الله، وحاشاه ﷺ، ومع ذلك فالله جل وعلا ينصره ويمده ويقبل بقلوب الخلق إليه، ولم يزل دينه في رفعة، ولم يزدد الداخلون إلا كثرة، ومع ذلك هذا كله افتراءٌ على الله عز وجل، هذا لا يمكن أن يكون، أن يستمر الحال هكذا إلى ثمانمائة عام، يعني: إلى عهد المؤلف، وإلى أكثر من ألفٍ وأربعمائة من السنين إلى هذا اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كل هذا الذي يكون من الرفعة والتمكين لدين النبي ﷺ وهو يفتري على الله، هذا لا يمكن أن يتأتى وحكمة الله وعزة الله جل وعلا.

إذًا: هذا من الدلائل والبراهين على أنه رسولٌ من عند الله حقًا، وأن قول هؤلاء إنما هو الكذب والافتراء.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا قدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور ليبين لعباده الذي كانوا فيه يختلفون، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

قال الشارح وفقه الله:

كذلك ما قدر الله حق قدره الذي نفى بَعْث الله جل وعلا للأموات يوم القيامة ثم أنه يحاسبهم ويجازيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن هذا يقتضي أن هذا الخلق إنما خُلِق عبثًا، خلق الله هذا الخلق العظيم البديع العجيب ثم أفنى ذلك كله ولا شيء وراء ذلك، هذا لا يتأتى وإقدار الله حق قدره، بل حكمة الله عز وجل تنافي ما زعموا.

وهؤلاء هم المشركون، وقضية البعث أعظم قضية أنكروها بعد التوحيد، ولذا رد الله جل وعلا عليهم قولهم: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ**﴾[النحل:٣٨]، أعظم الأيمان وأعظم الأقسام بذلوها لتأكيد إنكارهم لبعث الله سبحانه الأموات يوم القيامة، فرد الله جل وعلا ذلك: ﴿**بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾[النحل:٣٨] يعني: هؤلاء المشركون، ثم قال: ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ**﴾[النحل:٣٩] اللام هنا لام الحكمة أو لام التعليل، فمن حكمة البعث أن الله جل وعلا يبين الحق فيما اختلف الناس فيه، ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ**﴾[النحل:٣٩]، فالله جل وعلا يوم القيامة يفصل بين عباده ويحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويبين لجميع الخلق الحق من الباطل جل وعلا.

فهذا من حِكَم البعث: بيان ما تنازعَ واختلف الناس فيه يوم القيامة، فيوم القيامة يوم ظهور الحق، ويوم جلائه ويوم بيانه، فلا يخفى الحق حينئذٍ، ولا يلتبس على أحد، ولكن لا ينفع هذا الظهور لمن أعرضَ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدنيا، إنما يستبشر بذلك أهل الإيمان، ويزداد الذين كفروا يزدادون خيبة وحسرة، ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ**﴾[النحل:٣٩].

الحقيقة: أن المؤلف اختصر أشياء مفيدة من هذه الأمثلة الطيبة التي أوردها، وأنا أوصيتك وأؤكد عليك أن تراجع ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجواب الكافي ونظيره -أيضًا- ما أورده في مدارج السالكين، كله في بيان بعض الفوائد التي تُلتمس من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾[الزمر:٦٧].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبالجملة: فهذا باب واسع، والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فإنه عبد شيطانًا.

قال الشارح وفقه الله:

لأنه هو السبب، ولأنه هو الداعي، ولأنه هو المزيّن، وتنبه هنا -يا رعاك الله- إلى أن هذه قاعدة مطردة: كل من عبد مع الله غيره فإنه عبد شيطانًا. واستدل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا بقوله: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[يس:٦٠]، ونحوه -أيضًا- قوله جل وعلا: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ**﴾[سبأ:٤٠-٤١].

كذلك في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**﴾[مريم:٤٤]، كذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا**﴾[النساء:١١٧].

فهذه آيات مؤكدات أن كل من عبد غير الله جل وعلا فإنما يكون قد عبد الشيطان، وهذا المقام فيه تفصيل، وذلك أن عبادة الشيطان تكون على ثلاثة أنحاء: تأتي على نحوٍ عامة في كل عابدٍ لغير الله وعبادةٍ لغير الله، وتكون في حالتين خاصة.

أما الحالة العامة: فما سبق أن كل من عبد غير الله جل وعلا فالحقيقة أنه عبد الشيطان، والسبب أنه سببُ عبادة غير الله، والداعي لعبادة غير الله، والمزيّن لعبادة غير الله، فمن هذا الوجه عادت العبادة إليه. وهذا -كما ذكرت- عام في كل عبادة لغير الله.

الحالة الثانية: هي أنه في بعض الأحوال التي يُعبد فيها غير الله جل وعلا يتمثل الشيطان وينتصب الشيطان أمام العابد حتى يكون له قسط من العبادة، يعني: يناله حظٌّ من العبادة، وذلك كما يكون في حال

عُبَّاد الشمس حينما يعبدونها حين الشروق وحين الغروب فإن الشيطان ينتصب أمامهم ويقوم أمامهم حتى يقع له السجود من هؤلاء العُبَّاد، فهذا -أيضًا- يصدق عليه أنه عبادةٌ للشيطان.

الصورة أو الحالة الثالثة وهي: أن يُعبد الشيطان قصدًا، يعني: أن يعبد العابد الشيطان قصدًا، وهذا واقعٌ من بعض المشركين قديمًا وحديثًا، فطوائف من القدماء في ديانات شتى كانوا يعظمون الشيطان ويقدسونه ويعبدونه، وهذا -أيضًا- موجودٌ إلى هذا العصر الحاضر، فإن من الناس اليوم من يعبد الشيطان ومن يتسمى ويفتخر بأنه من عبدة الشيطان، فأقدس مقدَّس وأعظم معظَّم عندهم هو الشيطان، عافاني الله وإياكم من هذا الضلال! هؤلاء الذين يسمون عبدة الشيطان لهم وجود، لهم مراكز، ولهم كنيسة في أمريكا ولهم كتاب مظلم يسمى الإنجيل أو إنجيلهم، الإنجيل الأسود الظالم إنجيل الشيطان، ولهم دعاة وينشطون بين الشباب، ومع الأسف الشديد وصل بلاؤهم إلى بعض بلاد المسلمين وانغَرَّ بهم قلة من أبناء المسلمين هنا وهناك، وهؤلاء من أخبث خلق الله ومن أرذل الناس على الإطلاق ومن أحقرهم ظاهرًا وباطنًا.

وقد اطلعت على شيءٍ من أحوالهم، ولا أظن أن أحدًا من الناس يصل إلى مستواهم في الخبث والقبح، فإنهم لا يجدون مُتعتهم إلا في اللذات الشاذة، حتى إنهم من الخُبث الذي بلغوه يستخرجون الجثث من القبور ويمارسون معها الفاحشة، يجدون لذتهم في هذا، يجدون لذتهم في مص الدم، يجدون أعظم اللذة في التعاطي مع النجاسات.

المقصود: أنهم أناس في غاية القُبْح والشناعة، ويحبون الظلام ويحبون الفواحش ويحبون الظلم، ويعشقون كل لذة شاذة، ويمررون أفكارهم ويجذبون الشباب إليهم عن طريق وسائل إغرائية، فإنهم إباحيون إلى آخر درجة، فيزينون للشباب هذه اللذة ويمررون أفكارهم من خلال بعض الأغاني وبعض الموسيقى، يبثون من خلالها أفكارهم حتى تتشبع بها عقول ضعيفي الإيمان والعقل.

وهؤلاء فتنتهم فتنةٌ عظيمة، ولا يُستهان بأي داعٍ للشر، فلكل ساقطةٍ في الحي لاقطة كما يقولون، ووجدنا مع الأسف الشديد من أبناء المسلمين مَن ينجر وراءهم، ينخدع بشعار الحرية الذي يكثر رفعهم

له، فمثل هذه الدعوات الهدَّامة الكفرية الخبيثة ينبغي أن يُحذر منها الناشئة وأن يُنبَّهوا عليها. نسأل الله العافية والسلامة من حالهم!

إذًا: كل من عبد مع الله غيره فإنه عبد شيطانًا. هذه قاعدة مطردة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[يس:٦٠]، فما عبد أحد أحدًا من بني آدم كائنًا من كان إلا وقد وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى، وذلك غاية رضى الشيطان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ﴾[الأنعام:١٢٨] أي: من إغوائهم وإضلالهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٢٨].

قال الشَّارح وفَّقه الله:

الشرك ما كان ليقعَ لولا الرَّغبة في حصول نفعٍ وفائدةٍ، ولا يوجد عاقلٌ يفعل فعلًا إلا وهو يرجو من ورائه فائدة، ومن ذلك هذا الشرك، لكن عَمِيَ هؤلاء عن أن ما ظنوه فائدة هو في الحقيقة ليس بفائدة، بل هو شَرٌّ ووبال عليهم.

في هذه الحال التي بيَّنها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهي أنه إذا عُبِد غير الله والمعبود راضٍ فإنه قد حصل استمتاعٌ من الجانبين، ولأجل هذا وقع هذا الشرك ووقعت هذه العبادة.

أما بالنسبة للمعبود: الذي عُبِد وهو راض: فإنه قد حصل له منفعة من جهة الشهوة النفسية التي يطلبها والتي يلتذ بها، وهي أن يحصل له تعظيم وأن يحصل له تقديس، وأن يحصل الخضوع بين يديه، وهذا الذي أراده الشيطان، ولهذا ينتصب أمام عابدي الشمس لأجل هذه الرغبة.

وأما بالنسبة للعابد: فإنه يطلب حصول غرضه من المعبود، هذا الذي أراده، كل عابد لغير الله إنما يريد طلبًا ويريد غرضًا ويريد شيئًا من عابده وإلا ما عبده، وتختلف أغراض هؤلاء العابدين بين رغبة لمنفعة دنيوية وبين رغبة في منفعة أخروية وشفاعة وتقريب إلى الله جل وعلا، إلى غير ذلك، وكل هذا لا ينفع هؤلاء المشركين شيئًا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه موجبٌ للخلود في العذاب العظيم، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه فقط، بل يستحيل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يشرع عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله.

قال الشارح وفقه الله:

إلى هنا انتهى كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الداء والدواء، وما بعده إلى آخر الكتاب كله من كتاب مدارج السالكين لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجزء الأول.

المقصود أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ختم هذا الفصل النافع بخلاصة بيَّن فيها أن قُبْح الشرك معلومٌ من جهتي الشرع والعقل، وأن الشرك أقبح الأمور وأشنعها على الإطلاق لأمرين: لأنه أعظم الذنوب، ولأن عقوبته أعظم العقوبات. وعرفنا سبب ذلك فيما مضى، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به على أربعة أقسام:

أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم، ولهذا كان أفضل ما يسأل الرب تعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: «يا معاذ، والله إني أحبك، فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته تعالى.

قال الشّارح وفّقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد بيان الشرك وما إليه إلى بيان ضدِّه وهو عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، وبدأ بالتنبيه على أن الناس منقسمون في عبادة الله والاستعانة به إلى أربعة أقسام.

الله جل وعلا هو الصمد، والصمد -كما قد علمت سابقًا- هو الغني عن كل شيء، الذي يفتقر إليه كل شيء، فغنى الله جل وعلا وصْفٌ ذاتي، يعني: ملازمٌ له، يستحيل أن يخلو عنه، كما أن الفقر للعبد وصْفٌ ذاتي ملازمٌ له يستحيل أن يخلو عنه.

فالفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي

فالله جل وعلا غناه غنىً ذاتي، كما أن فقر العبد إليه فقرٌ ذاتي ملازمٌ له، لا غنى للعبد عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من جهة كونه ربه ومن جهة كونه إلهه، فلا صلاح لقلبه ولا طمأنينة ولا سكينة ولا راحة ولا سعادة إلا بأن يكون الله جل وعلا ربه، وإلا بأن يكون الله جل وعلا إلهه ومعبوده ومحبوبه، والذي إليه المنتهى في كل شيء، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، منتهى القصد ومنتهى الرغبة ومنتهى المحبة إلى هذا الإله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا الذي يجب وينبغي، بل لا يصلح الحال إلا به، وما سواه ففسادٌ عظيم، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، لو كان هناك آلهة سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تستحق

العبادة لاضطرب حال هذا الكون بالكلية، فإنه لا استقامة لأحوال الناس ودنياهم ومعاشهم إلا بأن يكون الإله المعبود الحق واحدًا لا شريك معه.

إذًا: سعادة العباد ونجاحهم وفلاحهم مرتبطٌ بأن يكون الله سبحانه هو المعبود وهو المستعان، وهاتان عِلَّتان للعبد.

أما كون الله وعلا هو المعبود فعلَّةٌ غائيةٌ له، وأما كونه تعالى هو المستعان فعلة فاعلية له، يعني: للعبد، والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية: أن العلة الغائية هي التي لأجلها يكون الشيء، وأما العلة الفاعلية فهي التي بها يكون الشيء، فلا يمكن أن يكون شيء إلا بإعانة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يصح أن يكون شيء إلا لأجله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه خلاصة كل شيء، لا يمكن أن يكون شيء البتة، و(شيءٌ) هنا نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء، لا يمكن أن يكون شيء إلا بإعانته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإعانته علة فاعلية لكل شيء، كما أنه لا يصح ولا ينفع أيُّ شيء إلا ما كان لأجله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إلا ما كان هو المقصود به جل وعلا، فهو العلة الغائية لكل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإذا كان ذلك كذلك فالناس أمام هذه الحقيقة انقسموا إلى أربعة أقسام ولا خامس لها.

أُناسٌ وفقهم الله جل وعلا للجمع بين الأمرين، فكان الله معبودهم وكان الله مستعانهم.

وقسم ضيعوا الأمرين، فلا عبدوا الله ولا استعانوا بالله.

وقسم عبدوا الله لكنهم ما استعانوا بالله أو كانت استعانتهم بالله ضعيفة.

والقسم الأخير ضد هذا القسم، عندهم استعانة بالله جل وعلا لكنهم لا يعبدون الله، أو عبادتهم له ضعيفة، فهذا خلاصة ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قد اختصر كلام الشيخ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي اختصر كلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن هذه الأقسام الأربعة قد شرحها شيخ الإسلام في مواضع من كتبه ومنها ما أورده في المجلد الأول من مجموع الفتاوى.

قال: (**أجلُّها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها**)، هؤلاء جمعوا بين ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، هؤلاء هم الذين حققوا قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾[هود:١٢٣]، ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ**

﴿أُنِيبُ﴾[الشورى:١٠]، هؤلاء أهل السعادة، هؤلاء أهل التوفيق، هؤلاء هم الذين أراد الله عز وجل بهم الخير.

قال: (**فعبادة الله غاية مرادهم، فطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم**)، عبدوا الله -ومضى معنا تعريف العبادة وبيان ما هي- واستعانوا بالله.

الاستعانة: الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به.

إذًا: الاستعانة تجمع أصلين: تجمع الاعتماد والتفويض، وتجمع -أيضًا- الثقة وحسن الظن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمتى ما اجتمع الأمران حصلت الاستعانة، فالله جل وعلا هو الذي يجب أن يكون المستعان سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كل شيء من أمري الدنيا والآخرة، وهؤلاء جمعوا بين الأمرين: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.

تنبه هنا إلى أن الاستعانة يعني طلب العون -الألف والسين والتاء للطلب- جزء من العبادة، فلم عطفها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على العبادة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾؟

قال أهل العلم: الاستعانة جزء من العبادة، لكن إفرادها حتى يقصدها العابد بخصوصها، ذلك أنه لا يتحقق شيء من أنواع العبادة إلا بها، لا يمكن أن يتحقق شيء من العبادة إلا بها، إلا بالاستعانة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وبذلك تعلم مسألة مهمة يخطئ فيها كثير من الناس -وسيأتي الكلام عنها- وهي أن بعض الناس إذا جاء موضوع الاستعانة وموضوع التوكل فلا ينصرف ذهنه إلا إلى الاستعانة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في تحصيل الرزق ودفع المضار الدنيوية، وهذا مما يجب أن يُستعان بالله عليه، لكن ثمة درجة أرفع وهي التي ينبغي أن يكون الاهتمام بها أكبر، ألا وهي الاستعانة بالله جل وعلا على عبادته، فإنه لا يمكن أن يعبد الإنسان ربه جل وعلا إلا بإعانته، الله سبحانه لم يُعبد إلا بإعانته، كما أنه لم يُعصَ إلا بمشيئته جل وعلا.

فطلب العون على طاعة الله عز وجل هذا من أهم الأمور وأعظمها، ولذا شُرِع لنا إذا دُعينا إلى الصلاة، إذا قيل لنا: (حي على الصلاة، حي على الفلاح) أن نستعين بالله جل وعلا، أن نطلب منه العون وأن نبرأ من حولنا وقوتنا، فنقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

إذًا: أشرف ما يكون من الاستعانة حينما تكون استعانة بالله على طاعة الله، وهذا من الأمور التي ينبغي أن تتنبه لها، وأن تحرص عليها، شتان بين من يستعين بالله على تحصيل رغيف، وبين من يستعين بالله على أداء عبادته جل وعلا، هذه استعانة وتلك استعانة وكلها عبادة، ولكن بين العبادتين بونٌ شاسع.

إذًا: هؤلاء أهل العبادة والاستعانة، عبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم أن يعينهم نهاية مقصودهم، لهذا كان أفضل ما يُسأل الرب تعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه.

معاذ صحابي جليل يحبه النبي ﷺ وبيَّن له أنه يحبه، فقال: «**يا معاذ، والله إني أحبك**»، وهكذا ينبغي للمسلم إذا أحب أخاه أن يعلمه بذلك، فإن هذا من أسباب توثيق هذه المحبة، فلا تدع.. لاحظ أنه عقَّب على كونه يحبه النصيحة والتوجيه والحض على الخير والأمر بالمعروف، هذه هي المحبة الصادقة، محبةٌ يتبعها أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر ونصيحة وترغيب في الخير، «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

هذه هي المحبة التي تنفعُ، صديقك من صَدَقك لا من صدَّقك. المحبة التي تنفع بين الإخوة والمتصادقين هي التي تثمر النصيحة والحض على الخير والتوجيه والتنبيه على الأخطاء، وإلا ما الفائدة من هذه المحبة؟ ستكون وبالًا على الإنسان يوم القيامة، أما أهل الإيمان والتقوى فحالهم كما أرشد وأومأ إليه النبي ﷺ في هذا الحديث: «**والله إني أحبك، فلا تدع أن تقول**».

قال: «**فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»، وهل هذا القول يكون دبر الصلاة بمعنى في آخرها قبل السلام أو يكون بعد السلام؟ خلافٌ بين أهل العلم، والأقرب -والله أعلم- أنها تكون قبل السلام، فدُبر الشيء منه، والله أعلم.

قال: (**فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته تعالى**)، وهذه الكلمة نقلها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدارج في الموضع الذي ذكرته لك عن شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أنفع الدعاءُ طلب العون على مرضاته تعالى، وبيَّن في هذا الموضع أنَّ كل دعاءٍ سواه فإليه يرجع، كل دعاءٍ سوى هذا الدعاء فإنه راجعٌ إلى هذا المعنى.

وهاهنا تنبيه وهو أن من أهل العلم ومنهم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضعٍ من كتبه أشار إلى أن سعادة العبد هي أن يجتمع له عبادة الله والاستعانة به مع الهداية إلى الصراط المستقيم، وإلا فاستعانة على غير هدى أو عبادة بغير اتباع فإنَّها لا تنفع، كم من الناس من عنده اعتماد وتفويض وثقة واستعانة بالله ولكن يعبدون الله جل وعلا بغير طريق سنة النبي ﷺ، فإن هذا لا ينفع أصحابه، إنما الذي ينفع والذي يحصل من ورائه ثواب أن تكون العبادة وِفْق سنة النبي ﷺ، فمن جمع هذه الأمور الثلاثة فقد جمع بين قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[الفاتحة:٥-٦].

إذًا: هي أمور ثلاثة.

والذين لم يذكروا هذا فإن كلامهم متضمِّنٌ لهذا المعنى، وذلك أن العبادة بـ(أل) العهدية لا تكون كذلك إلا إذا كانت وفق هدي النبي ﷺ، فمعنى هذا أن يجتهد الإنسان في العبادة وأن تكون عبادته وفق سنة النبي ﷺ.

بقي -أيضًا- تنبيه ثانٍ: وهو أن الاستعانة بالله جل وعلا والاعتماد عليه والثقة به لا تتنافى واتخاذ الأسباب، بل اتخاذ الأسباب مما أمر الله عز وجل به وهو من مستلزمات أو من مضمونات الاستعانة والتوكل.

وقد بيَّن هذا النبي ﷺ في حديث عظيم، بيَّن معاقد هذه المسائل التي ندور حولها، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير، احرص عل ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**»، انتبه! «**احرص على ما ينفعك**» سعادة الإنسان في أن يكون له حرص، وأن تكون عنده هِمَّة، وأن يكون حرصه على ما ينفعه.

أما ذاك المهين الذي هو بليد لا همة له في شيء، إنما هو كسول وخامل فإنه لا يصل إلى خير لا في أمور الدين ولا في أمور الدنيا.

وذاك الذي عنده همة وعنده حركة وعنده حرص ولكن في غير ما ينفع -أيضًا- لا ينتفع بهذا الحرص.

إذًا: السعادة في اجتماع الأمرين: أن يكون عندك حرص، وأن يكون حرصك على ما ينفع، «**احرص على ما ينفعك**».

ثم قال: «**واستعن بالله ولا تعجزن**»، مع هذا الحرص ومع هذا البذل تنبه إلى أهم ما ينبغي أن تحرص عليه وهو أن تستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فاجمع بين الأمرين، وإياك وظن التنافي بينهما، «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**»، إياك والعجز، والعجز هو التكاسل عن تحصيل الأسباب الممكنة، ليس المقصود هنا بالعجز يعني العجز الاضطراري، شخص مقعَد ما يستطيع أن يتحرك، إنما المقصود أن يعجز عن الأسباب الممكنة، يستطيع ويمكنه وفي قدرته أن يفعل وأن يذهب وأن يحصل ولكنه يتكاسل، هذا هو الذي جاء النهي عنه: «**ولا تعجزن**».

ثم قال: «**وإن أصابك شيء فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»، يعني: هذا قدر الله، طمِّن نفسك وأربع على نفسك، هذا قَدَر الله.

وبالتالي نعلم أن الواجب على العبد أن يتنبه إلى الأمرين في المستقبل وفي الماضي، ما نتحدث عنه من العبادة والاستعانة فإنهما يتعلقان بالمستقبل، وأما بالماضي فإنما يتعلق بذلك الصبر والرضا، فالرضا والصبر يتعلقان بالماضي، والعبادة والاجتهاد والاستعانة يتعلقان بالمستقبل وأيضًا بالحاضر، وبالتالي فيجب على العبد أن يجمع بين الأمرين، في المستقبل وفي الحاضر لا يعجز، وفي الماضي لا يجزع، يجمع بين ترك العجز وترك الجزع، يلجأ إلى الله جل وعلا ويعتصم بالصبر والتسليم والرضا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبهذا تتحقق سعادته في الدنيا والآخرة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويقابل هؤلاء القسم الثاني: المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة لهم ولا استعانة، بل إنْ سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسأله من في السموات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، فيمد هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض خلقه إبليس ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا على مرضاته كانت زيادة في شقوته وبعده.

قال الشارح وفقه الله:

القسم الثاني هم الذين لم يحققوا العبادة والاستعانة، وانتبه إلى أنه أراد بهذا القسم: الذين ما حققوا العبادة ولا الاستعانة النافعة، وإلا فإن ترك الاستعانة بالكلية هذا أمرٌ لا يمكن أن يكون من إنسان، لابد أن يستعين بالله جل وعلا ولو كان كافرًا، بل ولو كان ملحدًا، لابد أن يستعين بربه وخالقه شاء أم أبى، لأنَّ الاضطرار إلى ذلك اضطرار العبد إليه -كما أسلفت- قضية ذاتية لا انفكاك للعبد عنها، شاء أم أبى، إنما مراده أن يعبد الله وأن يستعين بالله على ذلك، وهذا لم يتحقق من هؤلاء الذين شر الأقسام، هؤلاء ما عبدوا الله جل وعلا، والمقصود أنهم ما عبدوه العبادة التي تليق به ويستحقها وهي العبادة الخالصة، ربما يكون هناك من يعبد الله لكنه يعبد معه غيره، هذا كأنه ما عبد الله، لا فرق بين أن يترك عبادة الله وبين أن يعبده ويعبد غيره، الذي ينفعه هو أن يعبده وأن تكون عبادته خالصة له جل وعلا، ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣].

قال: (**فلا عبادة لهم ولا استعانة، بل إن سأله تعالى أحدهم**)، وهذا الذي ذكرته من أنه لا انفكاك للعبد عنه، لابد أن يستعين بربه جل وعلا في أمور الدنيا، لابد أن يسأله، لابد أن يدعوه، لابد أن يضطر إلى أن يثق به وأن يعتمد ويفوض الأمور إليه.

قال: (**فعلى حظوظه وشهواته**) همَّته مقصورة على الدنيا، وبالتالي فاستعانته تتعلق بهذه الدنيا لا غير.

قال: (**والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسأله من في السموات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، فيمد هؤلاء وهؤلاء**)، إجابة الدعاء من فروع الربوبية، من فروع ربوبية الله سبحانه على كل شيء، فكما أن الله جل وعلا هو ربُّ كل شيء فإنه يجيب كل من دعاه إذا شاء، ولذا يقول جل وعلا: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة:١٨٦]، أيّ داعٍ كان مسلمًا كان أو كافرًا، ولذا جاء الأمر بعد ذلك بماذا؟ ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي**﴾ [البقرة:١٨٦]، إذًا يجب عليهم أن يعبدوني، أنا أجيب كل داع لكن الذي يجب على العباد وعلى هؤلاء الداعين أن يستجيبوا لله وأن يؤمنوا به.

ولذا فإن الله أجاب دعاء شر الخلق وأبغضهم إليه وهو إبليس، سأل الله أن يمده في هذه الحياة وفي العمر حتى يبقى إلى آخر هذه الحياة، فأجابه الله جل وعلا إلى ذلك.

وبه تعلم أن إجابة الدعاء ليست متعلقة بتحقيق العبادة، نَعَم أقرب الناس إلى إجابة الدعاء هم أهل التوحيد والعبادة له جل وعلا، ومع ذلك فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجيب غيره، هذا وجه.

ووجه آخر: أن الله جل وعلا إنما يجيب العباد لما ينفعهم، أقصد بالعباد يعني أهل الإيمان به وتوحيده، فإنه يجيبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما ينفعهم ولابد، لابد أن تكون إجابة الله لعباده المؤمنين فيما ينفعهم، ولذا فهذه الإجابة قد تكون بتعجيل مطلوبهم وإعطائهم سؤلهم في الدنيا، وقد يكون ذلك تأخيرًا للثواب، يجعل الله عز وجل مقابل هذا السؤال ثوابًا أخرويًا ينتفع به العبد في الآخرة، وقد يصرف الله عز وجل عن العبد سوءًا مقابل ما دعا.

إذًا: لابد أن تحصل له فائدة ونفعٌ من إجابة الله عز وجل له في دعائه، هذا إذًا فرقٌ ثان بين دعاء الموحد ودعاء المشرك.

إذًا: الموحِّد أقرب إلى الإجابة، والموحِّد إجابة الله له نافعة ولابد، أما المشرك فإن الله جل وعلا إذا شاء أن يجيبه فلا يلزم أن تكون هذه الإجابة إجابة نافعة له، بل قد يجيبه سبحانه إلى سؤله الذي فيه شقوته، ولذا كان بقاء إبليس خيرًا له أو شرًا بالنسبة له؟ لا شك أنه كان شرًا، لأنه ازداد معصية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبالتالي يكون عقابه ويكون جزاؤه عند الله عز وجل أعظم.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجيب المؤمنين ويجيب غيرهم، ولكن غير المؤمنين لا يلزم أن تكون إجابتهم إجابة تنفعهم، بل قد تكون إجابتهم مما يمكر الله عز وجل بهم، لأنه أهلٌ أن يُمكر بهم، هم ما عبدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما استجابوا لله، وربما حادوا دين الله وعارضوا شرع الله ومكروا بأهل الإيمان، فالله جل وعلا يجيبهم إلى سؤلهم مع علمه سبحانه أن هذه الإجابة فيها شقوتهم وفيها خيبتهم وحسرتهم. فهذا من عِزِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحكمته جل وعلا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على ما لم يكن عونًا له على طاعته، كان سؤاله مبعدًا له عن الله.

ﮧﮧ◈ﮧﮧ

قال الشّارح وفّقه الله:

ولذلك إذا سألت الله عز وجل شيئًا من أمور الدنيا مستقبلًا فاسأله أن يجعل فيه النفع لك وأن يكون في طاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنك لا تدري لربما تسأل الله شيئًا من أمور الدنيا فيكون سببًا لإبعادك عن الله ولضلالك، نسأل الله العافية! لا تدري، الأمور مغيَّبة بالنسبة لك، فإذا سألت الله في أمرٍ مستقبل فاسأله أن يجعله عونًا على طاعته، واحرص -أيضًا- على الاستخارة إذا أقدمت على أمر مستقبلي، مع استعانتك بالله عليه احرص على الاستخارة، ولا تكون استخارتك لله جل وعلا استخارة الغافل اللاهي الذي يصلي هذه الاستخارة ويدعو الله عز وجل في هذه العبادة ومع ذلك فإنه لا يظهر اضطراره إلى الله جل وعلا، إنما الذي ينبغي والذي ينفعك هو أن تكون استخارتك استخارة مفوِّض الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه لا يدري وأن الخير كله بيد الله جل وعلا، وأن الذي يختاره الله عز وجل لعبده هو الذي ينفعه، لتكن حالتك كحال الطفل الصغير الذي يفوض الأمر لوالديه، لا يدري، إنما ما يختاره والداه يقبل به ويرجع إلى ما يقولان، والحال في هذه الصورة التي نتحدث عنها لا شك أنها أعظم ولكن هذا لتقريب الأمر.

هكذا ينبغي أن يكون العبد فيما يستخير به ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يفوض الأمر لله جل وعلا، فإذا صُرِف الأمر عنك فاعلم أن هذا من خيرة الله عز وجل وخيرته لك خيرٌ من خيرتك لنفسك.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فليتدبر العاقل هذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه، بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

سبحان الله! يقضيها له وفيها هلاكه، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١٦].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويكون منعه منها حماية له وصيانة، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة.

وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر إذا رآه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **يقضي حوائج غيره يسيء ظنه به تعالى، وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر، وأمارة ذلك: حمله على الأقدار، وعتابه في الباطن لها.**

ولقد كشف الله تعالى هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ كَلَّا﴾[الفجر:١٥ -١٧] **أي: ليس كل من أعطيته ونعَّمْته وخوَّلته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي، ولكن ابتلاء مني وامتحان له، أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأحوله عنه لغيره؟، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له، أيصبر فأعطيه أضعاف ما فاته، أم يتسخط فيكون حظه السخط؟.**

قال الشَّارح وفقه الله:

هذه الحال التي شرحها لنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال الجاهل بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي الميزان عنده والمعيار في قربه وبعده من الله جل وعلا ومحبته وعدمها وكرامته على الله وعدمها إنما هو ما يحصل من النعيم الدنيوي.

السؤال: أبي متوفى وأريد أن أحج عنه، هل أحج متمتعًا أو مفردًا؟

الجواب: أنت مخيَّر بين الأنساك الثلاثة: إن شئت أن تحج عنه متمتعًا أو مفردًا أو قارنًا، والأفضل أن تحج عنه متمتعًا.

السؤال: هل امتثال الشيطان أمام الشمس عند سجود المشركين لها هو المقصود بقول النبي ﷺ عن الشمس: «**إنها تطلع بين قرني الشيطان**»؟

الجواب: هذا ما ذكر طائفة من شُرَّاح الحديث.

السؤال: إذا رقى الإنسان نفسه هل يخرج من حديث: «**لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون**»؟

الجواب: فرْقٌ بين أن ترقي وأن تسترقي، فرُقية الإنسان لنفسه هذه لا بأس بها بل هي مشروعة مستحبة مسنونة، النبي ﷺ رقى ورُقِي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

إذًا: عندنا هاهنا أحوال:

الحال الأولى: الأولى: أن ترقي نفسك، فهذا لا بأس به وهذا مشروع.

الحال الثانية: أن ترقي غيرك، وهذا -أيضًا- مشروع، وهذا -أيضًا- من الإحسان إلى إخوانك المسلمين، والنبي ﷺ لما سئل عن هذا قال: «**من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل**».

الحال الثالثة: أن تُرقى بلا طلب، يعني: يأتي إنسان يراك مريضًا مثلًا ويقول: أريد أن أرقيك، اسمح لي أن أرقيك، فلا بأس أن تسمح له، فرُقيتك بلا طلب منك هذا لا بأس به، والنبي ﷺ رُقِي، رقاه جبريل عليه السلام ورقته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، فهذا لا بأس به.

الحال الرابعة: أن تسترقي، أي: أن تطلب الرقية، وهذا فيه تفصيل: أن تسترقي لغيرك، أو أن تسترقي لنفسك.

أما استرقاؤك لغيرك فلا بأس به، يعني: أن تطلب الرقية لغيرك، والنبي ﷺ -كما في الصحيح- لما رأى في وجه صبية شيئًا قال: «**استرقوا لها، فإن بها النظرة**» يعني: بها شيءٌ من العين، فقال: «**استرقوا لها**» اطلبوا لها من يرقيها، فهذا -أيضًا- لا بأس به.

والحال الثانية: وإن شئت تجعلها قسمة خماسية: هي أن تسترقي لنفسك، يعني: أن تطلب الرقية لنفسك، تأتي إلى إنسان فتقول له: ارقني. هذا جائز لا حرج فيه ولا بأس به، إذا كان ليس من أهل الشرك والشعوذة فلا بأس به، لا بأس بأن تطلب منه الرقية، ولكن الأولى بك أن تترك ذلك حتى لا يفوتك هذا الفضل العظيم، أن يكون الإنسان من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وفي المسألة تفصيل أكثر من هذا.

السؤال: هذا يسأل عن مسألة التحسين والتقبيح العقلي، وأن في كلام ابن القيم ردٌّ عليهم ويطلب شيئًا من الشرح لهذا الأمر؟

الجواب: طائفة من المتكلمين ذهبوا إلى أن العقل لا يحسِّن ولا يقبِّح البتة، اللهم إلا من جهة إدراك اللذة والمنفعة أو إدراك ضدها، أما أن يكون في ذات الشيء حُسْنٌ يعلمه العقل وأن يكون فيه قُبْحٌ يعلمه العقل فإن العقل لا يهتدي إلى هذا، إنما هذا مستفادٌ من جهة الشرع فقط، ولذا فإنهم يقولون: لا فرق عقلًا بين النكاح والسفاح، إلا أن هذا أذن فيه الشرع وهذا حرمه، ولو عُكِست القضية لجاز، لم يكن هناك ما يمنع، وبالتالي كل الأمور القبيحة إنما عُلِم قبحها عندهم من جهة الشرع فقط.

والصواب الذي لا شك فيه: هو ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو أن العقل قد يدرك حُسن الأشياء وقبحها وقد لا يدرك، لكن الإيجاب والتحريم لا يُعلم إلا من جهة الشرع.

إذًا: الشرع يحسِّن ويقبح، يعني: يُعلِمنا بحسن الأشياء وقبحها، والعقل قد يدرك حسن الأشياء وقبحها ولكن العقل لا يوجب ولا يحرم، إنما يكون هذا من قِبَل الشرع فقط.

ويدل على هذا قول الله جل وعلا: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾[الأعراف:٢٨]، والفاحشة هنا هي طوافهم بالبيت عراة.

فقوله: ﴿**قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾[الأعراف:٢٨] يعني: قل إن الله لا يأمر بما تعلمون أنه فاحشة، وإلا فلو كان المقصود: قل إن الله لا يأمر بما ينهى عنه ما كان في الآية كبير فائدة، فدل هذا على أنهم يعلمون بعقولهم أن هذه فاحشة وبالتالي يجب أن ينزهوا أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن ذلك الأمر.

السؤال: هل من الجن من يدخل الجنة؟ وهل إذا دخلوا الجنة يكونون أصدقاء للبشر؟

الجواب: هم سيدخلون الجنة نعم، مؤمنوهم من أهل الجنة دون شك، يقول جل وعلا: ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ**﴾[الرحمن:٥٦] يعني: الحور في الجنة، فدل هذا على أنه يتأتى إتيانه من قِبَل الجن كما أنه يتأتى إتيانه من قِبَل الإنس، أما أنهم يكونون أصدقاء للبشر فإن شاء الله، نرجو، ما .....

السؤال: هل تقبيل المصحف بعد الانتهاء من القراءة بدعة؟

الجواب: هذه المسألة ونظائرها الضابط فيها مسألة الاستمرار، مسألة التكرار، مسألة المداومة، مسألة الالتزام، يعني: يلتزم دائمًا أنه يفعل ذلك، فمثل هذا إن كان الإنسان يتعبد به لله جل وعلا فلا أعلم دليلًا عليه فهو أمرٌ محدث، وإن كان يداوم عليه فهذا -أيضًا- يفتقر إلى دليل ولا أعلم دليلًا عن النبي ﷺ أو عن أصحابه رضي الله عنهم أنهم كانوا يداومون على تقبيل المصحف بعد الانتهاء من القراءة فيه، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ.

أما إن حصل هذا الأمر نادرًا، فعله الإنسان مرة فإن هذا أرجو أنه من جملة المباحات، والله أعلم.

السؤال: هل يجوز تعظيم غير النبي ﷺ من المخلوقات؟

الجواب: التعظيم يحصل للمخلوق كما أنه يكون لله جل وعلا، فللمخلوق تعظيمٌ يليق به ويناسبه ولله جل وعلا تعظيمٌ يليق به ويناسبه، وتعظيم الخالق ليس كتعظيم المخلوق، والمقصود بالتعظيم هنا هو الاحترام والتقدير وإظهار رفعة المنزلة، فهذا إذا كان في حدود المباح ما لم يصل إلى ما حرم الله جل وعلا فإنه لا بأس به، أن يعظِّم الإنسان -مثلًا- والديه، أن يعظِّم أهل العلم، أن يعظِّم كتب حديث النبي ﷺ مثلًا، فإن مثل هذا لا بأس به، والله أعلم.

السؤال: هل اليزيدون من عُبَّاد الشيطان؟ وما علاقتهم بعُبَّاد الشيطان الذين بأمريكا؟

الجواب: كما ذكرت أن عبادة الشيطان أو تعظيمه وتقديسه شيءٌ كثير ومنتشر، وهذه الطائفة عندها تعظيمٌ للشيطان، نعَم، وعندها تقديس له، وهذا في غيرهم أيضًا، قدماء المصريين من الفراعنة وقع في كتب أهل العلم بيان أنه كان عندهم شيء من التعظيم له..

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فليتدبر العاقل هذا، وليعلم أنَّ إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه، بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه، ويكون منعه حماية له وصيانة، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة.

وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر، إذا رآه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **يقضي حوائج غيره يسيء ظنه به تعالى، وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر.**

وأمارة ذلك: حمله على الأقدار، وعتابه في الباطن لها.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

فقد وقف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تنبيهٍ مهم، وهو أنَّ إجابة الله عز وجل لدعاء الداعين قضيةٌ راجعة إلى حكمة الله عز وجل، وحكمةُ الله لا يمكن للعبد أن يحيط بها، فإذا عجَّل سبحانه بإجابة الدعاء فهذا من حكمته، وإذا أخر ذلك عن العبد فهذا -أيضًا- من حكمته، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١٦].

وهذه القضية مثار إشكالٍ عند الجاهل الذي لم يَقْدُر الله جل وعلا حق قدره، ولم يستيقن بحكمة الله الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذا فإنه إذا تأخر مطلوبه مع اجتهاده في الدعاء ساورته الشكوك وحامت في قلبه الخواطر، ولربما نَطَقَ بلسانه فعبَّر عما يجول في قلبه، وربما أرداه ذلك وألقاه في وادٍ سحيق إذا أساء الأدب مع ربه وعارض الله عز وجل في حكمه القدري.

فتأخيرُ الإجابة ربما كان لمصلحة العبد، وربما كان عقوبةً من الله سبحانه لذنبٍ اقترفه الداعي، وليس تعجيل المسؤول في الدعاء علامة على كرامة العبد، بل قد يعجِّل الله إجابة الداعي وفيما دعا هلاكه، وهذا واقع لا يُنكر.

قال: (**وعلامة ذلك أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر إذا رآه**) يعني: رأى أن الله سبحانه (**يقضي حوائج غيره ولا يجدُ أنَّ مطلوبه قد أُجيب فإنه يسيء الظن بربه وقلبه**

محشوٌّ بذلك وهو لا يشعر) وربما نطق بذلك، وربما قال ما يكون سببًا لعدم الإجابة، كأن يقول: دعوت ودعوت فلم أُرَ إجابة، فهذا من أسباب منع هذا السؤال.

وسوء الظن بالله جل وعلا ليس من حال أهل الإيمان، بل من حال ضدهم، فمر بنا سابقًا أن أعظم ذنبٍ عُصي الله عز وجل به هو سوء الظن به، فهذا الذي يسيء الظن بالله إذا رأى أن الله أخَّر مطلوبه ولم يجبه إلى ما دعاه فلربما أساء الظن بالله جل وعلا، وربما وقع في شيء عظيم، وقد سمعنا وقرأنا من هذا أشياء ربما توقع صاحبها في الكفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فعلى العبد أن يعلم أنَّ لله عز وجل الحكمة في كل شيء، وأن الدعاء نافع ولابد، ولكن تعجيل ذلك أو تأخيره أو تغييره راجعٌ لحكمة الله عز وجل، فقد يعجل ذلك وقد يؤخره وقد يغيره بما هو خيرٌ له.

والمقصود أنَّ العاقل خصيم نفسه، إذا رأى تأخر الإجابة فإنه يرجع إلى نفسه باللائمة، وأما الجاهل فإنه خصمٌ لأقدار ربه، وشتان بين هؤلاء وهؤلاء.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولقد كشف الله تعالى هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ كَلَّا﴾[الفجر:١٥ -١٧]، أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذلك لكرامته علي، ولكنه ابتلاء مني وامتحان له، أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأحوله عنه لغيره؟، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاءٌ وامتحانٌ مني له، أيصبر فأعطيه أضعاف ما فاته، أم يتسخط فيكون حظه السخط؟.

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذه آية عظيمة تنفعُ من تدبرها، وهي آية الفجر: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾[الفجر:١٥]، النعم ابتلاء كما أنَّ المصائب والمحن ابتلاء، والله عز وجل يبتلي بالخير ويبتلي بالشر، وهذا الذي أكرمه الله جل وعلا إنَّما هو من أعطاه الله عز وجل النعمة الدينية، ولذا تنبه إلى الفرق بين هذه الكلمة التي تكررت، فإنَّ بين الأولى والثانية فرقًا.

قال: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾[الفجر:١٥]، والجوابُ بعد ذلك جاء بـ﴿كَلَّا﴾، يعني نفي فـ(أكرمه) الأولى ليست هي (أكرمن) الثانية، فالإكرام الأول هو الإعطاء والمَن والهبة في أمور الدنيا، ولكن ليس هذا دليل على أن هذا العبد كريمٌ على الله عز وجل، وأن له عنده المنزلة، بل الله عز وجل يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، فانتبه واحذر أن تظن أن فتح أبواب الدنيا والسعة ورغد العيش علامة على محبة الله ورضاه، الأمر ليس كذلك، والعكس صحيح، قال جل وعلا: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾[الفجر:١٦] يعني: ضيَّق عليه وقلَّل عليه في المعاش ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[الفجر:١٦] يظن في ربه أنه لا يرضى عنه، لا يعطيه، هذا دليل على أن الله لا يحبه، الأمر ليس كذلك، بل الله عز وجل قد

يضيق في الرزق على من يحب، وقد يوسع على من لا يحب، فالدنيا لا تساوي عند الله شيئًا، ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء.

وأنت ترى حال كثير من الكفار كيف أنَّ الله عز وجل وسع عليهم في الرزق وأعطاهم من القوة وأمدهم بالمال، وجعل بلادهم جنات وأنهارًا، ومع ذلك فهم أبغض الخلق إلى الله جل وعلا، وربما تجد من المسلمين من حاله حالٌ صعبة وضيقة وبئيسة، وهذا كله ليس بمعيار يُحكم به على من رضي الله عنه ومن لم يرض عنه، هذا كله ابتلاء وامتحان، ابتلاءٌ للمُصاب ولغيره، وكذلك ابتلاءٌ للمنعَم عليه ولغيره أيضًا، فالقضية قضية ابتلاء وامتحان.

ولذا نفى الله سبحانه هذا الظن الخاطئ فقال: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر:١٧] أي: ليس كل من أعطيته ونعَّمته وخوَّلته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي، ولكنه ابتلاءٌ مني وامتحان له، وكذلك هو ابتلاء وامتحان لغيره، فإن من الناس من إذا رأى العاصي أو الكافر قد فُتِح عليه من أبواب الدنيا ربما ظن أن هذا بسبب ما هو عليه، وبالتالي فإنه ربما يقول: أفعل كما يفعل، فإذا كان يسرق، وإذا كان يرتشي، وإذا كان يُزَوِر ومع ذلك فالله عز وجل يعطيه إذًا الأمر هين ولا يشدد الإنسان على نفسه، فيفعل كما فعل، وهذا -أيضًا- من ابتلاء الله عز وجل لهؤلاء.

قال: (**وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقَدَرٍ لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي، ولكن ابتلاءٌ وامتحان مني**).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبالجملة: فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذه قاعدة مهمة تنبه لها يا أيها المسلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه يوسِّع على الكافر لا لكرامته، ويقتِر على المؤمن لا لهوانه عليه، وإنما يكرِم سبحانه من يكرم من عباده بأن يوفقه لمعرفته ومحبته وعبادته واستعانته.

قال الشّارح وفّقه الله:

هذه هي الخلاصة، هذا هو الإكرام الحقيقي، إنما يُكرم سبحانه من يكرم من عباده بأن يوفقه لمعرفته ومحبته وعبادته واستعانته.

السعادة الحقيقية هي ما اتصل بالنعيم الأبدي، وما يعقل هذا إلا العالمون.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فغاية سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به عليها.

قال الشارح وفقه الله:

ما أحسن هذه الكلمة! (**غاية سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به عليها**)، وفي المدارج: فعادت -من العود- سعادة الأبد إلى عبادة الله والاستعانة به عليها. وكله صحيح.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان.

قال الشارح وفقه الله:

هؤلاء قسمٌ ثالث، مر بنا قسمٌ جمعوا بين عبادة الله والاستعانة به، وقسمٌ أضاعوا الأمرين، فلا عبادة ولا استعانة، وهذا هو القسم الثالث: هو من عنده عبادة أو نوع عبادة ولكنه فاقدٌ للاستعانة أو ضعيف الاستعانة بالله جل وعلا، وهؤلاء افترقوا إلى صنفين.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أحدهما: أهل القدر، القائلون بأنه سبحانه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبقَ في مقدوره إعانةٌ له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق وإرسال الرسول، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعدها إعانة مقدورة يسأله إياها.

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذا الصنف الأول وهم القدرية، وقد تكرر الكلام فيهم، نريد القدرية النفاة، المعتزلة ومن ركب في ركابهم، هؤلاء ينفون تعلق قدرة الله عز وجل ومشيئته وخلقه بأفعال الحيوانات، فالعباد هم الذين أحدثوا أفعالهم فخلقوها بقدرتهم هم ومشيئتهم هم دون أن يكون لله جل وعلا تعلقٌ بها في إيجادها ولا أنه هو الذي شاءها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وبالتالي نشأ عن هذا أنَّ الهداية والإضلال عندهم ليست راجعة إلى الله جل وعلا، إنما حَسْبُ ما يكون هو أن يلطف الله عز وجل، فاللطف -الذي أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند المعتزلة، يعني: عند هؤلاء القدرية- هو أن يفعل الله عز وجل ما يقرب العبد إلى الطاعة، يعني: ما ينبغي أن يطيع عنده، وليس ثمة قدْرٌ زائدٌ على ذلك، بمعنى: أنَّ الله جل وعلا هدايته لا تتجاوز أنه يُرسل الرسل وينزل الكتب ويعطي العقول والأسماع والأبصار ولا شيء وراء ذلك، ليس هناك قدْرٌ زائد على هذا، وكلُّ آيات الهداية وكل آيات الإضلال والختم والصرف عن الحق ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[التوبة:١٢٧] وأمثال هذا من الآيات فإنها عندهم مؤولة، ولذا لو تأملت وقرأت فيما يقرره -مثلًا- الزمخشري في تفسيره -وهو على عقيدة أهل الاعتزال- تجده يقرر هذا المعنى، تجده يؤول آيات الهداية والإضلال، أو المشيئة المتعلقة بأفعال العباد إلى ما ذكرت لك.

ولا شك أن هذا ضلال، ولا شك أن هذا انحراف، ولا شك أن هذا قدحٌ في قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا كان الله جل وعلا إنما يَلْطُف بعباده المؤمنين إلى هذا الحد فقط، فمعنى هذا أنه ليس ثمة فرقٌ بين

المؤمن والكافر من حيث لطف الله عز وجل به، هذا القَدْر الذي هو تقريب العبد إلى الطاعة ووضْع علامات الهداية على طريقه من إرسال الرسل والتمكين وسلامة الحواس إلى غير ذلك، هذا قَدْرٌ يشترك فيه المؤمن والكافر، يعني: ليس شيئًا اختص الله عز وجل به المؤمن، والأمر ليس كذلك، بل الله عز وجل له نعمة خصَّ بها المؤمن زائدةٌ على ما ذُكِر، الله عز وجل وفَّق، الله عز وجل هدى هداية توفيق، الله عز وجل حرَّك قلوب العباد إلى الخير، وهذه نعمة زائدة وفضلٌ خاص خصَّ الله عز وجل به من شاء من عباده المؤمنين.

ولذا تأمل إلى الفرق بين ما ذكروه من هذا اللطف الذي لا يخرج عن كونه الهداية الأولى التي هي هداية الدلالة والإرشاد وأنها لا تصل إلى أن تكون هداية التوفيق، تأمل قول الله جل وعلا: ﴿**وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلامِ**﴾[يونس:٢٥]، وهذا أمْرٌ عام يشمل جميع الناس: المسلم والكافر، ثم اختص الله عز وجل من هؤلاء طائفة بمزيد من النعمة والتوفيق فقال: ﴿**وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[يونس:٢٥].

إذًا: هذا من الباطل، بل مما تنفر منه قلوب أهل الإيمان والتعظيم لله أن يقال ليس لله نعمة زائدة على المؤمن خصه بها زيادة على الكافر، هذا لا يمكن أن يقوله مسلم عظَّم الله عز وجل حق تعظيمه.

ولذا تأمل قول الله جل وعلا: ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[الحجرات:٧-٨]، هل هذا يقال في حق الكافر أيضًا أنَّ الله حبب إليه الإيمان؟ وهل هذا هو مجرد إرسال الرسل وإنزال الكتب؟ هذا قَدْرٌ زائد، هذا توفيق، هذا هداية، هذا إصلاحٌ من الله عز وجل للقلوب.

إذًا: من علم الله عز وجل فيه الخير وأنه أهلٌ للهداية فإنَّه سبحانه يقرِّبه إليه، يجذب قلبه إليه ويوفقه إلى طاعته، وهذا المعنى لم يهتدِ إليه هؤلاء القدرية.

إذا كان ذلك كذلك أثمر هذا الانحراف في الاعتقاد أثرًا في العمل والسلوك، وهذا أمْرٌ مطَّرِد، أيُّ انحرافٍ في الاعتقاد لابد أن يظهر أثره في العمل وفي السلوك وفي الأخلاق، لابد، الارتباط بين الباطل

والظاهر ارتباطٌ وثيق، فمتى ما كان هناك انحرافٌ في العقيدة التي محلها القلب فلابد أن يكون هناك أثرٌ لهذا الانحراف على الظاهر، والعكس بالعكس.

لمَّا اعتقد هؤلاء هذه العقيدة ولما ظنوا هذا الظن في الله عز وجل أضعف عندهم جانب التوكل على الله والاستعانة به سبحانه فيما يفعلون وفيما يأتون، لماذا يستعينون بالله والله لا تعلق لقدرته ولا لمشيئته ولا لهدايته بأفعالهم؟ اعتقادهم أثَّر في كونهم ما استعانوا بالله عز وجل على طاعته، وكانوا بالتالي ممن عندهم عبادة ربما عبدوا، ربما كان عندهم شيءٌ من الاجتهاد في الطاعة، لكن جانب الاستعانة، جانب التوكل على الله عز وجل عندهم ضعيف، وهذا نتيجة لهذا الاعتقاد الذي اعتقدوه.

قال: (**أحدهما: أهل القدر، القائلون بأنه سبحانه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبقَ في مقدوره إعانة له على الفعل**)، الله المستعان! أين إيمانهم بقول الله جل وعلا: ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[الحشر:٦]، وهذا عمومٌ محفوظ ما خُصَّ منه شيء.

قال: (**فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسول وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعدها إعانةٌ مقدورة يسأله إياها**) الله المستعان!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهؤلاء مخذولون موكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريقة الاستعانة والتوحيد.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده».

ꕥꕥ◈ꕥꕥ

قال الشارح وفقه الله:

نعم، لا شك أنَّ هؤلاء أهل خذلان، فكما أن من توكل على الله فهو حسبه، كذلك من أعرض عن الله فإنه يخذله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[التوبة:١٢٧].

فالإعراض عن الله عز وجل سواء كان إعراضًا عن عبادة أو إعراضًا عن الاستعانة به فإن ثمرته الخذلان -والعياذ بالله- وسدُّ باب التوفيق، وهذا ما كان في حق هؤلاء.

قال: (**قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «الإيمانُ بالقدر نظام التوحيد»**) يعني: هو ميزان التوحيد، يستقيم التوحيد متى ما استقام الإيمانُ بالقدر.

(**فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده**)، فإيمان العبد بقدر الله عز وجل الذي ينتظم الأمور الأربعة التي يقوم عليها باب القدر وهو علم الله عز وجل، وكتابته، ومشيئته، وخلقه، فإن الارتباط بين هذا القدر -إن تأملت- والتوحيد بأنواعه الثلاثة -الربوبية والألوهية والأسماء والصفات- ارتباط وثيق، وبالتالي فإن من كمل توحيده فإنه ولابد يكون محققًا للإيمان بالقدر، ومتى ما كان هناك نقصٌ في الإيمان بالقدر وضعفٌ في الإيمان بالقدر فإن ثمرة ذلك أن يكون توحيده ناقصًا، بل هذا مسبَّبٌ عن ضعف توحيده.

ولذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره -أيضًا- من السلف: القدر قُدْرة الله. من عظَّم الله عز وجل واعتقد أن الله عز وجل له القدرة العظيمة فإنه سوف يذعن بتحقيق الإيمان بالقدر، فمباحث القدر كلها تدل على قدرة الله العظيمة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالمخلوق قد يجعل مخلوقًا مثله يفعل الشيء لا عن رضا، خذ هذا المثل: ربما يجبر شخصٌ قوي وجبار شخصًا على فعل شيء، ولكنه يفعله كارهًا له، أما الله عز وجل فإنه إذا شاء من عبده شيئًا جعله يفعله بمشيئته ورضاه، وهذا دليل على قدرة الله العظيمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا: مباحث القدر كلها تشهد بقدرة الله العظيمة، سواء تعلقت بعلم الله السابق الشامل لكل شيء، أو تعلقت بكتابة الله لكل ما يكون في هذا الكون، أو تعلقت بمشيئة الله لكل ما شاء حدوثه ووقوعه، أو تعلقت بخلقه سبحانه لكل شيء من الأعيان ومن الأفعال والصفات.

إذًا: الإيمان بالقدر شأنه عظيم وأثره في الفعل والسلوك والأخلاق -أيضًا- عظيم.

ثمة صنفٌ آخر ضَعُف عندهم جانب الاستعانة مع وجود شيء من العبادة فيهم، وهذا ما سيشرحه المؤلف الآن.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

النوع الثاني: مَن لهم عبادة وأوراد، لكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وأنها بدون المقدور كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعوَّل على المحرك الأول، فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبِّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فقَلَّ نصيبهم من الاستعانة. وهؤلاء لهم نصيبٌ من التصرف بحسب استعانتهم وتوكلهم، ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه لأزاله.

قال الشارح وفقه الله:

هذا الصنف الثاني ممن ضعفت استعانتهم وتوكلهم على الله عز وجل، هؤلاء هم الذين قصروا نظرهم على الأسباب المحسوسة، وضَعُفَ تعلقهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فضعف توكلهم واستعانتهم عليه، وهذا مع الأسف كثير، كثير من الناس إنما تتوجه قلوبهم وتتعلق قلوبهم بالأسباب المحسوسة، وبالتالي يضعف تعلقهم بمسبِّب هذه الأسباب، وهذا -مع الأسف- كثير لا سيما مع طغيان المادِّية على كثير من الناس وضعْف معرفتهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونعوت جلاله وعظيم سلطانه جل وعلا، فإنه مع ذلك أو مع حصول هذا عندهم يضعف جانب التوكل على الله عز وجل عندهم، وهذا لا شك أنه نقصٌ في الإيمان وضعفٌ في التوحيد، فالتعلق بهذه الأسباب دون أن ينفذ النظر في الأسباب إلى المسبِّب جل وعلا شك أنه نقصٌ عظيم، وربما يصل إلى أن يكون شركًا أصغر، وربما يفحش حتى يكون شركًا أكبر، إذا كان الاعتماد القلبي تامًا على السبب المخلوق لا على المسبِّب الخالق جل وعلا فقد يورد صاحبه موارد الشرك الأكبر، عياذًا بالله من ذلك!

قال: (**وهؤلاء لهم نصيبٌ من التصرف**) لهم نصيب من الفعل والنفوذ والتأثير (**بحسب استعانتهم وتوكلهم، ونصيبٌ من الضعف والخذلان**) لا شك أنهم يُخذلون بحسب ضعف توكلهم واستعانتهم على الله جل وعلا كما سبق.

(**ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبلٍ**) وكان مأمورًا بإزالته، هذا القيد قيَّد به الكلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في المدارج: لو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل وكان مأمورًا بإزالته، أمره الله عز وجل بإزالته فإنه سوف يزول عن مكانه بتوكله على الله سبحانه، والله عل كل شيء قدير، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قيل: ما حقيقة الاستعانة عملًا؟

قلنا: هي التي يُعبَّر عنها بالتوكل، وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى، وتفرده بالخلق والأمر والتدبير والضر والنفع، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتوجب اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وثقة به.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا الذي مضى في الدرس الماضي وقلنا: إن الاستعانة هي الاعتماد على الله جل وعلا في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به في ذلك. وبالتالي فإنها قائمة على أصلين: على اعتماد، وعلى ثقة، اعتماد على الله وعلى ثقة به وحسن ظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتصير نسبة العبد إليه تعالى كنسبة الطفل إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهمه ما عسى أن يدهمه من الآفات لم يلتجئ إلى غيرهما. فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التقوى، كانت له العاقبة الحميدة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣] أي: كافيه.

قال الشّارح وفّقه الله:

هذا مثالٌ تقريبي، وإلا الشأن في توكل العبد على ربه جل وعلا أعظم، إنما هو تقريبٌ للأفهام فحسب.

أرأيت حال طفل صغير تنوبه النوائب وأبواه أمامه، ماذا يصنع؟ سوف يفزع إليهما ويلتجئ إليهما، ويرى أن الشيء الذي يفعلانه ويختارانه هو الصواب وهو الذي به النجاة، وحال العبد مع الله عز وجل إن كان صادقًا في إيمانه وتوكله لا شك أنه أعظم من ذلك وأعظم.

قال: (**فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة**) لا شك في ذلك ولا ريب، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾[الطلاق:٢].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القسم الرابع: من له استعانة بلا عبادة، وتلك حالة من شهد تفرد الله بالضر والنفع، ولم يدرِ بما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه في حظوظه، فأسعفه بها. وهذا لا عاقبة له، سواء كانت أموالًا أو رياسات، أو جاهًا عند الخلق، أو نحو ذلك، فذلك حظه من دنياه وآخرته.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

نعم، لا حظَّ له في الآخرة، ربما يعطيه الله عز وجل، يُمِدُّه من شأن الدنيا لكن لا أثر لهذا نافعًا، فالأثر الذي ينفع هو ما اتصل بالنعيم الأبدي كما سبق، فهؤلاء همتهم مقصورة على الدنيا فحسب، فإذا استعان بالله عز وجل استعان به على شأن الدنيا لا غير، وأما العبادة فلا همة منصرفة عنده إليها، إنما عنده استعانة بالله جل وعلا لأنه يعلم أن الله على كل شيء قدير، يستعين به على تحقيق حظوظ نفسه، رئاسات، مناصب، قيادة، مال، تجارة، إلى غير ذلك، لكنَّه ما حقق العبودية لله تبارك وتعالى، وهذا إن شاء الله أعطاه وإن شاء لم يعطه، وإن أعطاه فحظه مقصورٌ في الدنيا لا في الآخرة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أنَّ العبد لا يكون متحققًا بعبادة الله تعالى إلا بأصلين:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: إخلاص العبودية.

قال الشّارح وفّقه الله:

بعد أن بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قضية كبيرة وهي الجمع بين العبادة والاستعانة؛ خَلَصَ إلى قضية أخص منها وهي قضية العبادة وما ركناها اللذان تقوم عليهما، أعني: الإخلاص والمتابعة. عرفت العبادة وأحوال الناس فيها مع الاستعانة، والآن ما حال الناس مع العبادة؟

بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ العبد لا يكون متحققًا بعبادة الله إلا بأصلين، وذكرت لك سابقًا أن العلماء قد يسمون هذين -الإخلاص والمتابعة- قد يسمونهما شرطين، وقد يسمونهما ركنين، وقد يسمونهما أصلين، وقد يقولان هما سببان، وقد يقولان هما شيئان يتحقق بهما قبول العبادة، إلى غير ذلك، والأمر في هذه التعبيرات يسير.

المقصود أنَّ العبادة لا تكونض نافعة ولا تكون محصِّلة لثمراتها، لا تكون مقبولة عند الله جل وعلا إلا باجتماع هذين الأمرين، إلا بتحقيق هذين الأصلين: الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ.

قد يقول قائل: وماذا عن شرط الإسلام؟ أليس الإسلام شرط قبول الأعمال الصالحة الأول؟

الجواب: نعم، الله جل وعلا يقول: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[النحل:٩٧].

إذًا: لابد من شرط الإسلام، فالله جل وعلا شرط في تحصيل ثمرة العمل الصالح: الإسلام، كما أنه بيَّن جل وعلا أن ضده -وهو الكفر والشرك- سببٌ لعدم قبول العمل الصالح، ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾[الفرقان:٢٣]، ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الأنعام:٨٨].

إذًا: هذان نوعان من الأدلة يدلان على أنَّ غير المسلم لا يقبل الله عز وجل منه عملًا صالحًا.

وعند التفصيل: الكافر أعماله الصالحة التي يعملها، وربما يعمل، الكافر ربما يعمل عملًا صالحًا، لكن ما أثرها وما حكمها عند الله جل وعلا؟

الجواب: التفصيل، حسنات الكافر وقيْد هذا فيما لا يفتقر إلى نية، فالصلاة والصيام والحج -مثلًا- عبادات تفتقر إلى نية، لو عملها الكافر فإنه لا أثر لهذه لفقد شرط النية.

أما إن عمل عملًا صالحًا لا يُشترط له نية، أنقذ غريقًا، ساعد مسكينًا، كفل يتيمًا، تصدق، مثل هذه الحسنات تنفعه في الدنيا لا في الآخرة، الله جل وعلا حكمٌ عدل جل وعلا لا يظلم مثقال ذرة، فالكافر إذا عمل حسنة في الدنيا جازاه عليها في الدنيا، ودليل هذا ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله لا يظلم حسنة**» فقال: «**فأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل لله في الدنيا**»، «**فيُطعم**» يعني: يُعطى، يُعطى الرزق، يُعطى الأكل، يُعطى الهواء، يُعطى الماء، «**فيُطعم بحسنات ما عمل لله**» هذا شرط، لابد أن يكون يريد وجه الله «**في الدنيا، فإذا لقي الله لم تكن له حسنةٌ يُجزى بها**».

إذًا: هو يُثاب على ذلك بأن يعطيه الله عز وجل من هذه النعم في الدنيا، وهذا القَدْر الذي هو مكافئ ومجازي لهذه الحسنات لا يُعاقَب عليه في الآخرة، فإن الكافر في الآخرة يُعاقَب على كفره، يعاقب على معاصيه، يُعاقَب على عدم شكر النعمة التي أنعم الله عز وجل عليه بها في الدنيا، الله ما أباح هذه النعم إلا لأهل الإسلام، الله ما أباح هذه النعم إلا للمؤمنين به جل وعلا، أما الكافر فإنه إذا تناول من نِعَم الله الدنيوية فإنه سيجازى على هذا ويُعاقَب على هذا في الآخرة لأنه ما أدَّى شكر هذه النعم، وشُكْر هذه النعمة هو توحيد الله عز وجل وطاعته.

إذًا: هذا القَدْر الذي كُوفئ به فإنه لا يُجازى عليه في الآخرة، أما في الآخرة فإنه لا يُثاب على حسنة البتة.

هذا هو التحقيق في هذه المسألة.

إذًا: الشرط في قبول العمل الصالح الأول هو أن يُبنى على عقيدة صحيحة، أن يكون هناك أصلٌ للإيمان عند هذا العامل، وأما إذا بُنِيَ على أساس الكفر فإنه لا ينفع صاحبه عند الله جل وعلا، على التفصيل الذي بيَّنته لك.

لكننا نجد كثيرًا من العلماء لا يذكرون هذا الأمر، والجواب عن هذا: أنَّهم إنما يتحدثون عن حسنات المسلمين، هم يتحدثون في دائرة معينة هي دائرة المسلمين، فهؤلاء حققوا هذا الشرط تلقائيًا، ولذا فإنهم يسلِّطون الضوء على هذين الشرطين: الإخلاص والمتابعة.

الإخلاص والمتابعة بهما يتحقق شرط التقوى، والله جل وعلا يقول: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[المائدة:٢٧]، ما المقصود؟ هل المقصود من وصل إلى درجة التقوى يعني الإيمان الكامل هو فقط الذي يقبل الله منه، أما من كان عاصيًا مثلي -مثلًا- ضعيف الإيمان لا يكون مقبولًا له أعماله الصالحة؟ الجواب: لا، إنما المقصود في هذه الآية: إنما يتقبل الله عمل المتقي الذي اتقى الله في هذا العمل، فحقق التقوى في هذا العمل، وهذا العمل إنما يكون مقبولًا إذا اجتمع فيه الإخلاص والمتابعة.

إذًا: تحقيق التقوى في العمل الصالح إنما يكون بالإخلاص والمتابعة، فمن اتقى الله في عملٍ بأن أخلص وتابع فإن الله يقبله، ومعلومٌ عندنا أن الشرط ما يلزم من عدمه العدم، متى ما فُقِد الشرطان أو أحدهما فالعمل بالتالي غير مقبول.

إذًا: الله جل وعلا خلق الخلق لعبادته، إذًا لا ينفع عنده إلا أن يُعبد هو وفق أمره، انتبه لهذا، لابد أن يُعبد هو وحده جل وعلا ولكن لا بالأهواء والآراء، إنما وِفْق ما أراده هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله يُعبد وحده ولا يُشرك به، والله يُعبد بما أراد أن يُعبد به جل وعلا، فمن حقق هذين الأمرين فقد تحقق بشهادتي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، بهذين الأمرين يقبل الله العمل الصالح.

الإخلاص: هو قَصْدُ المعبود وحده في العبادة، يريد بهذا العمل وجه الله لا غيره، وهذه القضية مضى الشرح لها وبيانها، وعلمنا أنَّ الله عز وجل إنما أمر بعبادة مُخْلَصة، ﴿**فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**﴾[الزمر:٢]، ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[البينة:٥].

وضع لنا النبي ﷺ قاعدة عامة: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه**».

إذًا: هذا الشرط الأول.

الشرط الثاني قال: متابعة –أو هو قدَّمه– متابعة الرسول ﷺ.

متابعة النبي ﷺ ينبغي أن تعلم أنها على درجتين:

- درجة واجبة.

- ودرجة كاملة.

وكلام أهل العلم في هذا المقام عن المتابعة الواجبة لا الكاملة.

المتابعة الكاملة يعني: أن يحقق العبدُ العمل كاملًا بمستحباته وسُنَنه، وهذا القَدْر لا شك أنه ليس مشروطًا في قبول العبادة من أصلها، هو مشروطٌ في تحصيل الثواب كاملًا، أما أن يكون مشروطًا في قبول العمل من أصله فالأمر ليس كذلك، وإلا فإنه بالتالي لا يُقبل من أعمال الناس إلا النزر القليل، فمن الذي أكمل العبادة على وجهها الذي يرضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كاملًا؟

إذًا: القَدْر الذي نتحدث عنه إنما هو في المتابعة الواجبة.

والمتابعة الواجبة: هي أن يُؤدَى العمل الصالح موافقًا لشرع الله عز وجل في أركانه وشروطه وواجباته، يعمل العمل الصالح لا كيفما يحلو له ولا كيفما يتفق، إنَّما أن يكون موافقًا لشرع الله عز وجل في الأركان، الشروط، الواجبات، هذا قَدْرٌ واجب لابد منه، وبالتالي إذا عمل العمل على هذا الوجه وضمَّ إليه الإخلاص لله عز وجل فقد وعد الله –وهو الذي لا يخلف الميعاد سبحانه– أنه يقبل هذا العمل، قال جل وعلا: ﴿**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾[لقمان:٢٢]، (أسلم لله) هذا الإخلاص، (وَهُوَ مُحْسِنٌ) وافق الشرع، تابع النبي ﷺ في العمل.

وقدَّمتُ لك أن الشرط يلزم من عدمه العدم، هذا كلامٌ عام، ولكن ثمة تفصيل وراء ذلك، دائمًا أهل العلم يقعِّدون قواعد عامة، يذكرون أصولًا عامة لكن عند التدقيق فإنهم يفصِّلون ويبينون الأحكام في أوجهٍ قد يكون فيها حكمٌ مستثنى من الأصل العام.

إذا فُقِدت المتابعة فإن عندنا هاهنا أحوال:

الحال الأولى: أن يكون العمل خارجًا عن حكم الله بالكلية، يعني: لا يوافق شرع الله في أصله ولا وصفه، فهذا لا شك أنه مردود، ولم يستفد صاحبه إلا العناء والتعب، إضافة إلى ما يناله من الإثم، وذلك بأن يتعبد بما لا أصل له شرعًا، كأن يتعبد لله -مثلًا- بصوم يوم العيد، نقول: هذا عملٌ مخالفٌ للشرع في أصله، وبالتالي فإنه لا ثواب فيه، الله لا يقبله.

أو شخصٌ يتعبد لله عز وجل بكشف رأسه في الشمس، يقف متعبد لله عز وجل في الظهيرة يتعبد الله بذلك، ماذا نقول؟ عبادة باطلة لا قيمة لها، الله عز وجل لا يقبلها؛ لأنها مخالفةٌ لشرع الله في أصله، والنبي ﷺ يقول: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»، وهذا أصلٌ أصيل ينبغي استصحابه عند المؤمن دائمًا، «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا**» ليس عليه أمر النبي ﷺ فالنتيجة «**فهو رد**».

الأمر الثاني: ما كان أصله مشروعًا ولكنه أَخَلَّ فيه بمشروع، الأصل مشروع ولكن في ضمنه وقع شيءٌ غير مشروع، وهذا فيه تفصيل، قد يقتضي هذا بطلان هذه العبادة وقد لا يقتضي.

مثال ذلك: أن يحج، فيأتي بالحج بكلِّ ما فيه، ولكنه أخلَّ -مثلًا- بالوقوف بعرفة، ما حكم هذا الحج؟ غير مقبول، أَخَلَّ فيه بركنٍ من أركانه، والحج عرفة، وبالتالي فهذا الحج غير مقبول، وبالتالي فإن الذمة لا تزال مشغولة، يعني: هذا الرجل عليه أن يحج مرة أخرى إن كان هذا الحج حج الإسلام.

وقد يُخِلُّ فيه بأمرٍ مشروع ولا يقتضي هذا بطلان العبادة، وقد يقتضي إخلاله هذا كفارة من الكفارات على أنواعٍ فيها في الشريعة، وقد لا يقتضي هذا إلا أن يستغفر الله عز وجل، كأن يُخِل في حجه بأداء واجبٍ من الواجبات، أو يصلي -مثلًا- فيُخِلُّ بصلاة الجماعة، يصلي لله عز وجل لكن في غير جماعة على القول الصحيح في أن صلاة الجماعة واجبة وليست شرطًا، بعض أهل العلم ذهب إلى أن الجماعة شرطٌ في قبول وفي صحة الصلاة، والصحيح أنها واجبة.

إذًا نقول: هذه العبادة مقبولة، ولكن عدم الواجب أو عدم فعل الواجب فيها فإنه مؤثرٌ في حصول الإثم أو في نقص الثواب بحسب قصد الفاعل.

الحالة الثالثة: أن يزيد في المشروع ما ليس مشروعًا، يعمل عبادة لها قَدْرٌ في الشريعة لا يلتزم بهذا القَدْر، يتعمد الزيادة فيه، وهذا –أيضًا– فيه تفصيل، قد يكون سببًا.. يعني: قد تكون الزيادة سببًا لردِّ العبادة وعدم قبولها، وقد تكون سببًا في نقص الثواب أو في حصول الإثم مع قبول هذا العمل.

كأن يصلي –مثلًا– صلاة العشاء خمس ركعات، هذه زيادة في المشروع ما ليس مشروعًا، ما حكم هذه الصلاة؟ غير مقبولة ولا تبرأ بها الذمة، صلاة باطلة. وقد يزيد ولا يترتب هذا الأثر، كأن يتوضأ –مثلًا– فيغسل العضو أربع مرات، نقول: أساء وتعدى وظلم ولكنَّ الوضوء لو صلى بهذا الوضوء صلاته صحيحة وإن كان أخطأ في هذه الزيادة.

بقي عندنا حالة رابعة وهو أن يبدِّل في المشروع ما ليس بمشروع، يعني: يبدل شيئًا من كونه مأمورًا بمشروع إلى غير مشروع.

مثال ذلك: أن يصلي وهو مأمورٌ في صلاته بأن يستر العورة، وإذا به يصلي بثوب مسروق، فهل هذا يؤثر في الصلاة أو لا يؤثر في الصلاة؟ أو أن يصلي –مثلًا– في أرض –كما يقول الفقهاء– مغصوبة، فهل هذه العبادة مقبولة أو غير مقبولة؟ هذا فيه بحثٌ وتفصيل وخلافٌ طويل بين أهل العلم، والذي يظهر –والله أعلم– أنه إن كان هذا الوصف غير المشروع الذي نهت عنه الشريعة عائدًا إلى معنىً في العبادة فإنه لا شك أن هذه العبادة غير مقبولة، أما إذا كان المعنى المنهي عنه راجعًا إلى أمر خارجي فإنه لا يؤثر في صحة العبادة.

الحال الخامسة: هي أن يفعل العبادة ولكن يصحبها أمرٌ غير مشروع مما حرم الله عز وجل، العبادة يؤديها بأركانها وشروطها وواجباتها لكنَّه يُخِلُّ فيها من حيث كونه صَاحَبَها معصية، صاحبها عصيان، فهل هذا يؤثر في العبادة أم لا؟

مثال ذلك: أن يحج، فيقع في وقت الحج أو في أثناء حجه سب وغيبة وفسق وجدال، إلى غير ذلك، فما حكم هذه العبادة؟ العبادة صحيحة وتبرأ بها الذمة وإن كانت المعاصي المصاحبة للعبادة مؤثرة في الثواب، تؤثر في الثواب، وقد مر معنا سابقًا أن للمعاصي أثرًا في الحسنات كما أن للحسنات أثرًا في

المعاصي، كما أن الحسنات مؤثرة في مغفرة السيئات وتكفيرها كذلك السيئات تؤثر في الحسنات من جهة الإحباط، إما أن يكون إحباطًا للعمل أو إنقاصًا لثوابه، وإن كان لا يُحبط كل العمل إلا بشيء واحد وهو الكفر بالله عز وجل، الأعمال كلها إنما تُحبط بالكفر، لكن الحبوط الجزئي لثواب الأعمال قد يكون بالمعاصي، وهذا ما فسَّر به السلف قوله تعالى: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد:٣٣].

والله تعالى أعلم.

الأسئلة

السؤال: ذكر عن بعض أهل العلم أنهم أضافوا شرطًا ثالثًا على الإخلاص والمتابعة وهو التوحيد؟

الجواب: تكلمنا عن هذا.

السؤال: هل الدعوة إلى التوحيد فرض عين؟

الجواب: أن الدعوة إلى الله جل وعلا إلى أصل الدين وفرعه فرض كفاية، فإذا حصل المقصود بالبعض سقط الإثم عن الآخرين، وإن أَخَلَّ الكل أثموا جميعًا، الدعوة إلى الله جل وعلا فرض كفاية.

السؤال: هل الاستمرار على بعض الذنوب يقدح في التوحيد؟

الجواب: لا شك أن الإصرار على المعاصي قادحٌ في كمال التوحيد الواجب، وقد ذكرنا سابقًا أن كمال التوحيد الواجب يقدح فيه الشرك الأصغر والبدعة والمعاصي، الكبائر أو الإصرار على الصغائر، وذلك أن هذا العاصي إما أن يكون نقص عنده التصديق بنهي الله عز وجل عن هذه المعصية أو نهي النبي ﷺ عنها، أو ضعف عنده التصديق بإثمها وعقابها الذي توعَّد الله عز وجل به، وضعف التصديق ضعفٌ في التوحيد.

وقد يكون إصراره على هذه المعاصي ناشئًا عن ضعف خوفه من الله جل وعلا، ولا شك أن هذا -أيضًا- مُخِلٌّ بالتوحيد، وقد يكون فعله لهذه المعصية مسبَّبًا عن ضعف محبته لله جل وعلا، وهذا -أيضًا- خللٌ في التوحيد وضعفٌ في التوحيد، فأصل التوحيد محبة الله جل وعلا.

فتجد أن الإصرار على المعاصي إنما ينشأ من ضعف التوحيد، أما مع كمال التوحيد، مع كمال التصديق والمحبة والخوف والرجاء فإنه لا يقع من العبد الإصرار على المعاصي.

السؤال: أريد الذهاب إلى العمرة ولكن أريد أن أذهب إلى جدة أولًا، فمن أين أحرم؟

الجواب: أنت بين **أمرين**:

إما أن تُحْرِم من هنا من المدينة وتذهب إلى جدة بإحرامك، فإذا قضيت شغلتك ذهبت إلى مكة.

أو أن تبدأ بمكة، ثم بعد ذلك إذا تحللت فإلى جدة، أو إن شئت تذهب إلى جدة ثم تعود إلى هذا الميقات الذي تركته وهو ذو الحليفة وتحرم منه.

المقصود أن هذا الميقات جعل الله عز وجل له حرمة، فليس لك أن تتجاوزه وأنت مريدٌ للنسك إلا بإحرام، سواء كنت تريد أن تبدأ بمكة أو كنت تؤخر الوصول لها، فهذه الخيارات الثلاثة أمامك، أما أن تذهب إلى جدة ثم تحرم من هناك فإن هذا ليس لك، النبي ﷺ قال لما حدد المواقيت: «**هُن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة**».

السؤال: هل يجوز تقديم طواف الإفاضة بسبب الازدحام والتسهيل؟

الجواب: لا يجوز بنص القرآن، الله جل وعلا قال: وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[الحج:٢٩]، متى يكون هذا؟ يوم العيد، هذا لا يكون إلا يوم العيد، هو اليوم الذي يقضي الإنسان فيه تَفَثه، يحلف فيه شعره ويذبح فيه هديه، والله جل وعلا جعل الطواف في هذا اليوم، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[الحج:٢٩]، ثم إن هذا فِعْله ﷺ وهو الذي قال: «**خذوا عني مناسككم**»، لا يجوز التقديم لكن يجوز التأخير، يجوز لك إذا خفت من الزحام أن لا تطوف في اليوم الأول، يعني يوم العيد، بل أخِّره إلى اليوم الثاني من أيام التشريق أو الثالث، أو حتى لو أخره الإنسان إلى آخر ذي الحجة فإنه لا حرج فيه إن شاء الله، أما التقديم فإنه لا يجوز.

السؤال: ثبت في الحديث أن أبا لهب خفف الله عنه بسبب عتقه ثويبه حينما بشرته بمجيء النبي ﷺ؟

الجواب: أين هذا الحديث يا رعاك الله، هذا ليس بحديث، إنما هذا أثرٌ أورده الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه وفيه قال: فأُريه بعض أهله، هكذا يروي أحد التابعين، قال: فأُريه بعض أهله، يعني: هذا ليس كلام النبي ﷺ ولا كلام أحد من الصحابة، إنما هو كلام أحد التابعين. هذا أولًا.

ثانيًا قال: (أُريه) يعني في المنام (بعض أهله)، ولا ندري من هذا الذي رأى. هذا ثانيًا.

ثالثًا: هذه مجرد رؤيا منامية، ورؤيا المنام لا تترتب عليها أحكام إلا رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. هذا الأمر الثالث أو الرابع.

قال: (أُريه بشر حيبة) يعني: بشر حال، فقيل له: ماذا فعلت؟ قال: ما رأيت بعدكم خيرًا، غير أني سُقيت بهذه -وأشار إلى نقطة أو نُقرة في إصبعه- بعتقي ثويبة، حينما بشرته بمولد النبي ﷺ.

فأنت ترى -يا رعاك الله- أن هذا أثرٌ عن تابعي، وهو مروي عن شخص مجهول ما ندري من هو الرائي، والأمر الثالث: أنها مجرد رؤيا منامية، فكل هذا لا يمكن أن نعارض به قول الله جل وعلا: ﴿**فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ**﴾[البقرة:٨٦]، بل الكافر ليس له في الآخرة إلا الزيادة، ﴿**فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا**﴾[النبأ:٣٠]، فلا يمكن أن تُعارض النصوص الشرعية بمثل هذا، بارك الله فيكم!

السؤال: هل الانحناء لتقبيل يد الوالدة مُخِل بالتوحيد؟

الجواب: لا، لأنه غير مقصود، إنما هو يريد أن يقبِّل اليد ومن ضرورة ذلك أن ينحني، بدليل أنه قد يقبِّل دون أن ينحني إذا كان مستلقيًا على فراشه كمريض ومدت الأم يدها له ليقبِّلها، المقصود أن هذا الانحناء إذا كان غير مراد وغير منوي وغير مقصود فإنه لا يؤثر إن شاء الله.

النوع الخامس في الأحوال المؤثرة في المتابعة قلت: أن يفعل العبادة بشروطها وواجباتها وأركانها ولكنه يصحبها معصية لله، يصحبها شيءٌ غير مشروع، لا يتعلق بالعبادة نفسها لكنه يصاحبها ويكون مرافقًا لهذا فهذا بحسب التفصيل الذي ذكرته.

السؤال: لماذا قدم المؤلف متابعة النبي ﷺ على الإخلاص؟

الجواب: الله أعلم، ربما هذا الذي سنح في خاطره في ذلك الوقت، فالأمر في هذا يسير.

السؤال: اشرح أنواع الحج باختصار.

الجواب: أنواع الحج ثلاثة أنواع: إفراد وتمتع وقِران.

الإفراد والقِران مثل بعض سواء بسواء، وإنما يفترقان في **أمرين**:

في النية، فهو ينوي حجًا وعمرة في القِران معًا، يطوف فيكون طوافه للحج والعمرة معًا، يسعى فيكون سعيه للعمرة والحج معًا، فلا يفترقان إلا في النية.

وفي الذبح، يعني: يجب على القارن أن يذبح هديًا، وأما العبادة فهي من حيث أفعالها فإنها هي هي.

أما التمتع -وهو أفضل الأنساك على الصحيح- فهو أن يأتي بعمرة كاملة ثم بعد ذلك يحرم بالحج، يأتي بعمرة يطوف ويسعى ويقصر بالتالي يكون قد تحلل من عمرته، ثم يحرم، والسنة أن يكون هذا الإحرام يوم التروية، يعني: يوم الثامن من ذي الحجة، يحرم بالحج من محله الذي هو فيه، المكان الذي يكون جالسًا فيه يحرم فيه بالحج فيقول: لبيك اللهم حجًا ثم يمضي إلى منى فيبدأ بأعمال الحج.

الإفراد هو أن ينوي حجًا فقط، لا يصحب هذه السفرة أداء عمرة، إنما ينوي فقط أن يحج، وبالتالي فإن هذا يكون أقل الأنساك من جهة العمل، أقل الأنساك عملًا هو الإفراد، وإن كان القِران مثله إلا أن فيه زيادة وهي الذبح.

على كل حال، هذه الأنساك الثلاثة كلها على الصحيح مشروعة ويجوز للحاج أن يحج بها، والتمتع أفضل.

والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أنَّ العبد لا يكون متحققًا بعبادة الله تعالى إلا بأصلين:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: إخلاص العبودية.

والناس في هذين الأصلين أربعة أقسام:

أهل الإخلاص والمتابعة: فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم، منعهم وعطاؤهم وحبهم وبغضهم كل ذلك لله تعالى، لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا، عدُّوا الناس كأصحاب القبور، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فإنه لا يعامل أحدًا من الخلق إلا لجهله بالله وجهله بالخلق.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

فقد مضى الكلام عن الأصلين المصححين للعبادة وهما الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

والناس في هذين الأصلين انقسموا إلى أربعة أقسام كما ذكر المؤلف.

أما القسم الأول فهم الموفَّقون السعداء الذين جمعوا بين هذين الأصلين، فكانوا أهل إخلاص وأهل متابعة، هؤلاء هم الذين يتقبل الله عز وجل منهم، فهم المتقون، ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[المائدة:٢٧]، أعمالهم كلها لله وكلها موافقة لسنة رسول الله ﷺ.

قال: (**لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا، عدُّوا الناس كأصحاب القبور**) ما أحسن هذه الكلمة وما أحسن هذه الحال أن يعامل الإنسان الناس في تعبده لله جل وعلا معاملة أصحاب القبور، فهو لا يرجوهم ولا يطلبهم ولا يقصدهم، كل من على الأرض في نظره تراب، وكل الذي فوق التراب تراب، فهو لا يرجوهم ولا يطلبهم ولا يرائيهم ولا يتزين لهم، ولا يقصُد شيئًا من الدنيا بأعمال الخير.

وقد علمت سابقًا أن الذي يُضاد الإخلاص أمران: الرياء وإرادة الدنيا، إرادة الدنيا بالعمل الصالح أمرٌ مضادٌّ للإخلاص كما أنَّ الرياء مضادٌّ للإخلاص.

وأهل هذه الحال لا شك أنَّهم ما وصلوا إليها إلا بمجاهدة، فإنَّ الإخلاص شأنه عظيم وشأنه عزيز، ولا يتأتى إلا بمجاهدة، فما عالج الصالحون شيئًا أشد عليهم من نيتهم، فإنها كثيرة التلون، وثمة دقائق وخفايا، ربما يغفل الإنسان في وقت ما عن قلبه فيدخل عليه الرياء من حيث لا يشعر.

والذين عَظُمَ الله عز وجل في قلوبهم وقدروه حق قدره لا يمكن أن يريدوا غيره جل وعلا بأعمالهم، فهو منتهى أمرهم ومنتهى قصدهم، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[النجم:٤٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عدُّوا الناس كأصحاب القبور، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فإنه لا يعاملُ أحدًا من الخلق إلا لجهله بالله وجهله بالخلق**)، لا يعامل أحدًا من الخلق يعني: لا يعمل له، لا يعمل لأحدٍ من الخلق، يتعبَّد، يتصنَّع، يتزين إلا لجهله بالخلق وجهله بربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك أن هؤلاء الذين يتزين لهم المتزين قلوبهم بيد الله جل وعلا، وبالتالي فإنه لو علم المرائي لم يرائي، هؤلاء الذين يقصُدهم الإنسان بعمله قلوبهم بيد من يعصيه، وهو الذي يقدر جل وعلا على أن يجعل المدح الذي يرومه ويطلبه ذمًا، فلا هو بالذي فاز بمطلوبه وهو مدح الناس، ولا هو بالذي فاز بثواب الله جل وعلا.

فمن عرف الله وعرف الناس فإنه لا يمكن أن يرائيهم، الناس ما الذي يفيدونك به لو رأوك ومدحوك وأثنوا عليك؟ لا يقدمون ولا ينفعون ولا يؤثِّرون، قال النبي ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك**».

إذًا: ما فائدة الرياء؟ فما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من عرف الناس استراح.

استراح من عبوديتهم والتصنع لهم والتكلف لأجلهم، كما أنه استراح من لومهم ومن ذمِّهم ومن معاتبتهم، لأنه يعلم أنه ليس منهم شيء ولا إليهم شيء، الأمر كله لله جل وعلا، فهو الذي يعطي، وهو الذي يمنع، وهو الذي يهَب، وهو الذي يأخذ، إذًا ما الفائدة أن تتعلق القلوب بهؤلاء العباد الذين ليسوا إلا أسبابًا، فالبصير ينفذ من الأسباب إلى المسبِّب، كما مر معنا في الدرس الماضي.

إذًا: هذا حال أهل الإخلاص، حال أهل السعادة، عندهم حرصٌ عظيم على مدافعة نياتهم أن يلج إليها شوبٌ من قصد الخلق، بل إنهم كانوا يحرصون على أن لا يُظن فيهم الخير، إذا كان قد يخطر في بال السامع أن عندهم شيئًا من الخير وهو ليس كذلك فإنهم يدفعون هذا رغبة في الإخلاص ونُفرة من الرياء.

ومن اللطائف في هذا الباب ما جاء في حديث السبعين ألفًا، أعني: في طريق هذا الحديث، والحديث متفق عليه، في مسلم قال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من رأى منكم الكوكب الذي انقض البارحة؟ يكلم أصحابه وتلاميذه، فقال حصين بن عبد الرحمن: أنا، أنا رأيته، ثم خشي أن يُظن أنه كان في صلاة، فقال: أما إني لم أكن في صلاة ولكني لُدغت. ثم سأله: وماذا صنعت؟ فكان روايته للحديث عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الشاهد أنَّه حرص أن يدفع عن نفسه هذا الظن، وبالتالي فيُحمد بما لم يفعل، وهذا دليلٌ على عظيم الإخلاص الذي كان عليه السلف الصالح، فكيف بنا ونحن أحيانًا نحرص على أن نظهر أعمالنا حتى نُمدح وحتى يُثنى علينا، وربما أتينا بقصة أو بحادثة لأجل أن نخبر في أثنائها أنه حصل منا كذا وصدر منا كذا، والله المستعان! فنسأل الله جل وعلا إخلاصًا يُخلِّصنا، لا يخلِّصك إلا الإخلاص، وإلا فوالله إن أعمال المشركين الذين أشركوا مع الله عز وجل في قصدهم وبالٌ عليهم، ما استفادوا منها شيئًا، اجتهدوا وتعبوا والنتيجة أنهم ما حصلوا شيئًا، فإن الله جل وعلا لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه، «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والإخلاص هو العمل الذي لا يتقبل الله من عامل عملًا صوابًا عاريًا منه، وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت، قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢].

قال الشارح وفقه الله:

ليت أنه جعل الآية في سطر مستقل لأنه الآن سيستدل على **الأمرين**:

على الإخلاص، والمتابعة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف:٧]، وأحسن العمل: أخلصه وأصوبه.

فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ.

قال الشارح وفقه الله:

اقتبس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة من أثر الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عنه أنه تلا هذه الآية آية المُلْك ثم قال: أخلصه وأصوبه. يعني: أحسن العمل أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ.

وأخرج الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الزهد عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يدعو الله جل وعلا بهذا الدعاء العظيم: «**اللهم اجعل عملي صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا**»، فدعا الله جل وعلا أن يجمع له في أعماله بين الصواب والإخلاص، المتابعة لرسول الله ﷺ والإخلاص لله جل وعلا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا العمل الصالح المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[الكهف:١١٠]، وهو العمل الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء:١٢٥].

وهو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»، وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلا بعدًا من الله، فإن الله إنما يُعبَد بأمره، لا بالأهواء والآراء.

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذا هو العمل الصالح الذي جاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف:١١٠]، ضابط العمل الصالح هو: الخالي من الرياء المقيَّد بالسنة، هذا هو العمل الصالح. وهو كذلك الذي جاء في قول الله جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[النساء:١٢٥] هذا هو الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء:١٢٥] هذه هي المتابعة، اتبع النبي ﷺ.

قال: (**وهو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله: «كل عملٍ ليس عليه أمرنا فهو رد»**) يعني: مردود لا يقبله الله جل وعلا، كل عمل ليس على وفق سنة النبي ﷺ فلا ينتظر عامله منه ثوابًا.

وما أحسن ما قال يحيى بن يحيى الليثي الذي هو راوي الموطأ عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو من أشهر رواة الموطأ، قال: «**ليس في خلاف السنة رجاء ثواب**». إذا كنت تعمل عملًا على غير هدي النبي ﷺ فلا تنتظر أن تُثاب عليه، فالله جل وعلا إنما يُعبد بما أراد لا بما أردت، ليس الشأن أن تعبد الله بما تريد، إنما الشأن أن تعبد الله بما يريد، هذه حقيقة العبودية، الذي لله، الذي ينفع عنده والذي يُقبل عنده ما كان وِفْق مراده الشرعي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا بعض ما قيل في قول النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**»، ليس مما يُتقرَّب به إليك، من أحدث في دين الله جل وعلا ما ليس منه وتقرب به إلى الله جل وعلا فإنه لا يصل إليه، لا يصل إليه إلا الخير، والخير محصور في حدود ما جاء به النبي ﷺ، وما عداه فليس بخير، فالشر ليس إلى

الله، إنما يكون إليه جل وعلا، يكون عنده مقبولًا نافعًا مثمرًا ما كان مختومًا بختم النبوة، عليه طابَع النبي ﷺ، جاء نم كلام رسول الله ﷺ ومن فعله وتقريره، هذا الذي ينفع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة، وهؤلاء شرار الخلق، وهم المتزينون بأعمال الخير يراؤون بها الناس. وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة، فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرياء والسمعة، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا. وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران:١٨٨].

قال الشَّارح وفَّقه الله:

الله المستعان! الصنف الثاني عكس الصنف الأول، هؤلاء جمعوا بين الشر من طرفيه، فأعمالهم أعمال رياء مخالفة لهدي النبي ﷺ، وأصحاب هذا الصنف هم المراؤون من أهل البدع، هؤلاء هم المراؤون من أهل البدع، جمعوا بين التعبد لله بالمحدَثات ومع ذلك لم يكونوا مخلصين فيها، بل كانوا يريدون غير وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (**وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾[آل عمران:١٨٨]**)

وعبارة ابن القيم في المدارج: وهؤلاء لهم أوفر نصيب من قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾[آل عمران:١٨٨]، وعبارته رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحسن، هؤلاء أتوا بشرك أو بدعة وضلال ومع ذلك فيحبون أن يُحمدوا بأنهم من أهل الإخلاص والعمل الصالح، والأمر فيهم ليس كذلك بكل تأكيد، فلا هم بالمخلصين ولا هم بالمتبعين.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الضرب الثالث: من هو مخلصٌ في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجُهَّال العباد، والمنتسبين إلى الزهد والفقر، وكل من عبد الله على غير مراده.

والشأن ليس في عبادة الله فقط، بل في عبادة الله كما أراد الله.

ومنهم من يمكث في خلوته تاركًا للجمعة، ويرى ذلك قربة، ويرى مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم الفطر قربة، وأمثال ذلك.

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذا الصنف الثالث وهو الصنف الذي أهله يخلصون في أعمالهم يريدون بها وجه الله جل وعلا لكنهم -مع الأسف- لم يُوفَّقوا إلى متابعة النبي ﷺ، وهؤلاء هم العُبَّاد الجُهَّال، عُبَّاد يعبدون لكن بغير بصيرة، بل بجهل، فهؤلاء ما وُفِّقوا إلى الهدى التام، فكونهم يعبدون الله جل وعلا وِفْق أهوائهم وآرائهم وما أُحْدِث لهم أو ما أحدثوا هذا لا ينفعهم عند الله جل وعلا، ليس الشأن أن تعبد الله كما تريد، بل الشأن أن تعبد الله كما يريد.

هذا هو الابتلاء، وهذا هو الامتحان، وهذا الذي يتفاضل فيه الناس، الله جل وعلا لا تنفعه طاعة الطائعين، كما أنه لا تضره معصية العاصين، ﴿**لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**﴾[الحج:٣٧].

إذًا: على الإنسان وقد علم أن الله إنما خلقه لعبادته أن يعبده وحده وِفْق أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذه المتابعة إنما تتحقق بموافقة النبي ﷺ في ستة أمور، وهي التي جُمِعت في قول الناظم:

سببٌ وجنسٌ ثم قَدْرٌ مع صفة ... زمنٌ مكانٌ تم شرط المتابعة

أولًا: موافقة النبي ﷺ في سبب العبادة، فلو أنَّ إنسانًا عبد الله جل وعلا عبادة أحدث لها سببًا، فهو يتعبد لسبب غير مشروع، فيقول مثلًا: جاءت الشريعة بصلاة العيد، والسبب هو دخول شهر شوال أو

رؤية هلال شهر شوال، فمتى ما دخل شهر شوال صلينا العيد، قال: فأنا أصلي -أيضًا- إذا دخل شهر شعبان، فهذا قد خصص عبادة بسببٍ غير مشروع، ما شأن هذه العبادة؟ مقبولة؟ غير مقبولة.

أو شخصٌ خص ليلة من ليالي ربيعٍ الأول مثلًا أو غيرها من الليالي بعبادة، بقيام، أو نهارها بصيام، أو بأن يتدارس فيها شيئًا من الحديث أو السيرة، هذا سبب، ما لم يكن مشروعًا فإن هذه العبادة المبنية على هذا السبب لا تكون مشروعة.

قال: سببٌ وجنس.

إذا كانت الشريعة قد جعلت للعبادة جنسًا أو شيئًا يُتعبَّد به فليس لك أن تغيره، أرأيتم لو أن إنسانًا قال يوم الأضحى: الناس تذبح شيئًا من الأنعام من الإبل أو البقر أو الغنم، أنا سآتي بشيءٍ أغلى من ذلك، أذبح لله أغلى ما أملك، عندي فَرَسٌ غالية جدًا، سأذبحها تقربًا لله جل وعلا في الأضحية. ما رأيكم؟ لا ينفع، لأنه لم يوافق الشرع في جنس العبادة.

سببٌ وجنسٌ ثم قَدْرٌ.

إذا حددت الشريعة قدرًا معينًا أو عددًا معينًا فلم يتقيد الإنسان بهذا الأمر فإن عبادته غير صحيحة.

لو أنه زيادة في حب الطاعة قال: أربع ركعات في العشاء لا تشفي ما في نفسي، سأجعلها خمسًا أو ستًا. عبادة مقبولة؟ قصده الخير، يريد زيادة التعبد لله جل وعلا، هل ينفعه؟ لا ينفعه، ليس الشأن أن تعبد الله كما تريد، إنما الشأن أن تعبد الله كما يريد.

سببٌ وجنسٌ ثم قدرٌ مع صفة.

إذا جاءت الشريعة بصفة معينة في العبادة فليس لك أن تُبَدِّلَ ذلك وتغيره، أرأيت لو قال إنسان: المقصود حصول العبادة لله جل وعلا في الصلاة، وأنا أيسر لي أن أجعل السجود قبل الركوع، هذا أيسر وأحسن فيما أرى. ما رأيكم؟ صلاة مقبولة؟ لو جعل السجود قبل الركوع والنتيجة أنه ركع وسجد، ما رأيكم؟ ألم يسجد؟ ألم يركع؟ قلنا: نعم ولكن ما تقيد بالصفة الشرعية، ليس الشأن أن تعبد الله كما تريد، إنما الشأن أن تعبد الله كما يريد.

لو أن إنسانًا قال: الشريعة جاءت بصيام شهر رمضان، ولكن رمضان يأتينا ونحن في حر شديد، ما رأيكم لو جعلنا الصيام بدل شهر شهرين لكن في الشتاء في غير رمضان، أتُقبل هذه العبادة؟ والله لو صام ستة أشهر غير رمضان ما نفعه ذلك، لابد أن يوافق الشريعة في الزمن المحدد.

أخيرًا: المكان، أرأيتم لو قال قائل: أريد أن أعتكف لكن المساجد ربما ألهت قلبي، أريد أن أتعبد لله عز وجل بالاعتكاف في حجرة في منزلي أو على رأس جبل، أعتكف أتقرب لله بعبادة الاعتكاف في هذا المكان، أو يطوف لله جل وعلا على شجر أو على قبر، أتنفعه هذه العبادة؟ لا تنفعه، لم يتقيد بالشريعة في مكان العبادة.

إذًا: هكذا تكون المتابعة للنبي ﷺ.

وهاهنا مسألة: بعض الناس إذا قلت لهم: يا عباد الله، العبادة لابد أن يكون فيها اتباعٌ للنبي ﷺ، أنت صليت أو حججت أو فعلت وفعلت ولكنك ما أتيت بالعبادة وفق هدي النبي ﷺ، بعض الناس يقول: لكن العبرة بالنية، أنا نيتي طيبة، أنا لا أريد إلا الخير، فما رأيكم؟ هل هذا الأمر صحيح؟ هل حُسْن القصد وحده كافٍ في قبول العبادة؟ الجواب: لا، حُسْن القصد أمرٌ مهم وأصلٌ أصيل ولكنه غير كافٍ، لابد أن يُضم إليه قرينه، لابد أن يُضم إلى النية الصالحة لابد أن يُضم المتابعة لرسول الله ﷺ، وإلا فحسن القصد وحده لا يكفي ولا ينفع.

وهذه شبهة – مع الأسف الشديد – تروج على كثيرٍ من المسلمين مع الأسف الشديد، يتساهلون ويأخذون الأمور على محمل التيسير ويقولون: لا بأس، المهم أننا نريد التعبد لله جل وعلا، ومن هنا نشأت شبهة ما يسمى بالبدعة الحسنة، تقول: هذه بدعة ما جاءت عن النبي ﷺ، يقول: لا بأس، بدعة حسنة. فالبدعة الحسنة لا تنفعك يا عبد الله، إنما ينفعك العمل الحسن وهو المُخلَص الموافق للنبي ﷺ.

في صحيح البخاري قصة عظيمة تبين لنا خطأ هؤلاء الذين يقعون في هذا التوهم، وهي قصة أبي بُردة بن نيار الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما ضحى يوم عيد الأضحى قبل الصلاة، ذبح أضحيته قبل الصلاة، والزمن الشرعي المحدد لهذه العبادة بعد الصلاة، وهذا الصحابي الجليل لم يوافق الشريعة في الزمن، ماذا كان جواب النبي ﷺ؟ «**شاتك شاة لحم**» يعني: العبادة منك لم تحصل، لم تؤدِّ عبادة الأضحية.

أسألكم: أيكون منَّا من يشك في إخلاص هذا الصحابي الجليل؟ ما الذي نظنه في أصحاب النبي ﷺ ومنهم أبو بردة؟ لا شك أننا نظن فيهم أحسن الظن ونحمل أفعالهم على أحسن المحامل، فالظن أنه كان مخلصًا ومع ذلك ما قال له النبي ﷺ: نيتك حسنة فعبادتك صحيحة، إنما قال: «**شاتك شاة لحم**».

إذًا: لا يكفي النية الصالحة، بل لابد أن يُضم إليها المتابعة لرسول الله ﷺ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله تعالى، كطاعات المرائين، وكالرجل يقاتل رياءً وسمعة وحمية وشجاعة وللمغنم، ويحج ليقال، ويقرأ ليقال، ويعلم ويعلِّم ليقال. فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة:٥]، فلم يؤمر الناس إلا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها، والقائم بهما هم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥].

قال الشَّارح وفَّقه الله:

الله المستعان! هذا الصنف الرابع، وهذا مما يُحتاج أن يُتذاكر به بين طلاب العلم والمتنسكين وأهل الخير، الذين عندهم بصيرة وعندهم علمٌ ومعرفة، وعندهم احترازٌ من البدع والمحدثات، لكن البلية كل البلية عندهم هي المتعلقة بالأمر الأول: الإخلاص، وهذا الأمر أمرٌ صعب ويحتاج إلى مجاهدة، ولكن من جاهد نفسه على الإخلاص هان الأمر عليه، حتى إنه يصعُبُ عليه أن يتعبد لغير الله أو أن يقصد غير الله، والعكس صحيح، من عوَّد نفسه مراءاة الناس لم يكن أشق عليه من أن يُخْلِصَ لله جل وعلا، فالباب بابٌ عظيم من أبواب المجاهدة، على الإنسان أن يتنبه لذلك.

والآفة والبلية إنما هي محبة الرفعة في أعين الناس، ولو تأمل المتأمل لوجد أنَّ ذلك لا يجدي على طالبه شيئًا، فما الثمرة وما النتيجة؟ رأوك ومدحوك ثم ماذا؟ لا شيء وراء ذلك، لو تأمل الإنسان مليًا لا شيء وراء ذلك، لا يمكن أن يعطوك شيئًا زائدًا عما قدَّره الله جل وعلا لك، إذًا اطلب الله جل وعلا واقصد الله جل وعلا حتى تنال مبتغاك.

البلية من هاهنا، هذا هو مكمن الخطر، وصدق من قال: هل آفة الناس إلا الناس. مع أنه لو فكَّر الإنسان لوجد أنهم لا يقدمون، ولا يؤخرون ولا ينفعون ولا يضرون.

إذًا: علامة المخلص هو الذي يستوي عنده مادحه وذامُّه، انتبه لهذا! عود نفسك أو نعوِّد أنفسنا على هذا، علامة المخلص أن يستوي عنده مادحه وذامُّه، كلهم بالنسبة إليه سواء، ولا يبالي لا بهذا ولا بهذا، عمل خيرًا فسُمِع به فمدحوه لا يكترث، أو عمل عملًا يعتقد أنه صالحٌ ونافع فذمُّوه وعابوه لا يكترث لأنه لا يعاملهم ولا يرجوهم، إنما هو يعمل لله جل وعلا ويراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فبالتالي لا يبالي بالناس ولا يمثِّلون له شيئًا، وبالتالي هذا المخلص هو في خلوته كجلوته، قالوا: علامة المخلص أن يكون في خلوته كجلوته. يعني: في حال انفراده وكونه خاليًا يعمل الأعمال التي يعملها ولو كان في أعين الناس، لكن البلية هو الذي يكون في جلوته بخلافه في خلوته، الذي يجتهد ويعمل وينشط في الأعمال الصالحة إذا كان حوله الناس، فإذا كان وحده في بيته أصبح كسولًا مهينًا خاملًا لا ينشط للطاعة.

إذًا: هذا عليه أن يتنبه، ثمة إشكالٌ في قلبه يحتاج إلى معالجة، عنده خلل في جانب الإخلاص.

هذا الأمر - يا إخواني - لا يُقال عن ترف، ولا يُقال عن مجرد علم أو ثقافة، هذه مسائل نحن بحاجة ماسة إليها، فإن عليها المعوَّل برحمة الله جل وعلا في الخلاص والنجاة، الله جل وعلا غني، هو أغنى الشركاء عن الشرك، فلا يقبل منك شيئًا إلا إذا كان خالصًا له جل وعلا.

إذًا: هذا باب يحتاج منا أن ندرسه ونتأمله، وأن نفتش فيه، وأن نفتش في أنفسنا، وأن نعمل وأن نعلم أحوالنا، وثمة دقائق كثيرة في هذا الجانب تحتاج من الإنسان أن يتنبه.

ومن دقائق ما يُذكر في هذا وبه يُتنبه إلى ما فوقه ما قال وكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من استفهم وهو يفهم فهو طرفٌ من الرياء. انظر إلى هذه المسألة الدقيقة التي يغفل عنها بعض الناس، من استفهم وهو يفهم فهو طرفٌ من الرياء. يعني: طالب علم يسأل ويستشكل ويورد الاستفسارات وهو يعلم الجواب لكن ليرتفع في عين معلمه، هذا طرف من الرياء.

انظر -أيضًا- إلى مسألة أخرى ما أكثر الغفلة عنها، هذا نافع بن جبير بن مطعم أحد التابعين يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أتى الجنازة ليراه أهلها فلا يأتها. من أتى الجنازة ليراه أهلها، يعني: أهل الميت يرون أنك قد حضرت، تريد أنك تحرص على أن تُرى وأن تُشاهد، يقول: لا يحضرها، الأولى به أن لا يحضرها، لأنه

ما قصد وجه الله عز وجل في هذا العمل وهو اتباع الجنازة، إنما قصد الناس، رؤيتهم ومدحهم وثناءهم، فالأولى به أن يتنبه.

انظر إلى هذه المسألة الدقيقة التي قد نغفل عنها، وقِس على هذا أمورًا كثيرة.

إذًا: هذا الباب باب عظيم وباب مجاهدة، وعلى الإنسان أن يحرص وأن يجِدَّ وأن يجتهد.

قال: (**فلم يؤمر الناس إلا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها والقائم بهما**) يعني: الإخلاص والمتابعة (**هم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**[الفاتحة:٥])، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أهل مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥] لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق، وهم في ذلك أربعة أصناف.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسألة أخرى وهي: مسألة المفاضلة بين العبادات، فإن من رحمة الله جل وعلا أنه ما جعل العبادات صنفًا واحدًا، إنما نوَّع الله جل وعلا فيها وجعلها أمورًا متعددة، وذلك ليجتهد الإنسان أن يتعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من كل باب، وأيضًا لتزول السآمة والملل من نفوس العابدين، فهم يتنقلون في طريق عبوديتهم لله جل وعلا من عبادة إلى عبادة ومن صنف إلى صنف، وقد يُوفَّق بعض الناس إلى أن يجِدُّوا وأن يجتهدوا في صنف أو صنفين أو ثلاثة، وقد يُوفَّق آخرون إلى أن يتعبَّدوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأكثر من ذلك.

المقصود أنَّ الذكي الموفَّق المسدد هو الذي يحرص على أن يجعل همته في أفضل الأعمال، وأفضل الأعمال تظهر من خلال معرفة ثلاثة أمور:

أولًا: من خلال معرفة محبة الله عز وجل للعمل.

ثانيًا: ومن خلال كثرة ثوابه التي جاءت في النصوص.

ثالثًا: ومن خلال الأوامر التي جاءت في الحث على هذا العمل.

فمن خلال النظر في هذه الأمور الثلاثة يمكن أن يُهتدى إلى أفضل الأعمال وأحبها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن تنظر في أحب الأعمال عند الله جل وعلا، وهذا جاء في نصوص كثيرة، وأن تنظر في الأعمال الأكثر ثوابًا، زمن حياتك قصير، فالأولى بك أن تستثمره في الأعمال التي تعود عليك بالثواب الأجزل والأجر الأكثر، وهذا من التوفيق الذي يوفِّق الله عز وجل به من شاء من عباده.

وأيضًا من خلال النظر في الصيغ التي جاءت في الأدلة من حيث الأمر والحث والتأكيد وما إلى ذلك.

إذًا: هذا باب شريفٌ من أبواب العلم ينبغي على طالب العلم أن يحرص عليه، وهو معرفة أفضل الأعمال، وبالتالي فيكون الحرص عليه أكثر.

يذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الناس اختلفوا إلى أربع طرق في معرفة ما أفضل الأعمال، وبالتالي سلكوا هذه الطرق فأصبحوا أربعة أصناف. دعونا نتعرف على هذه الطرق الأربعة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها، قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التعبد، والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثًا ليس له أصل: «أفضل الأعمال أحمزها» أي: أصعبها وأشقها. وهؤلاء هم أرباب المجاهدات والجور على النفوس، قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الراحة، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

قال الشّارح وفّقه الله:

هذا الصنف الأول رأى أنَّ أفضل الأعمال هو الأشق والأشد، وبالتالي فإنهم يطلبون دائمًا العمل الشاق، لاعتقادهم أنَّ المشقة تعني الأجر الأكثر الأوفر.

والذي ينظر في الأدلة يجد أن للمشقة وللشدة في العمل أثرًا في حصول الثواب، هذا قَدْرٌ لا يُنكر.

ألم تر إلى قول النبي ﷺ الذي خرجه الإمام البخاري في صحيحه حينما سئل ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح، ترجو الدنيا وتخشى الفقر**» أو كما قال ﷺ.

إذًا: تلحظ أن هذا العمل كان أفضل عند الله جل وعلا لأن فيه مشقة، ليس الأمر بالسهولة التي تكون لمن يتصدق وهو مريض على فراش الموت، إنَّما هذا صحيح ويرى أن الحياة أمامه ويؤمِّل البقاء في هذه الدنيا، وبالتالي فالصدقة في حقه أصعب، فكانت في حقه أكثر أجرًا.

وقل مثل هذا في قول النبي ﷺ: «**أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم إليها ممشى**» الحديث في الصحيحين. فتجد أنه زاد أجره لمَّا كان الجهد والتعب في تحصيل العبادة أكثر، فليس أجر الذي يأتي إلى صلاة الجماعة من مكان قريب كالذي يأتيها من مكان بعيد.

وقل مثل هذا -أيضًا- فيما خرج الشيخان -أيضًا- من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «**ولكنَّها على قدْر نصبِك**» يعني: على قدر تعبك، يعني: العمرة التي أذن بها بعد الحج لما كانت حائضًا رضي الله عنها. وبالتالي فكلما كان هناك تعب في هذه العبادة فإن لها أجرًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لكن ينبغي عليك أن تتنبه في هذا الباب إلى **أمرين**:

الأول: أن التعب والمشقة التي جاءت في هذه النصوص وفي أمثالها ليست مقصودة لذاتها، إنما هي واقعة في أثناء تحصيل العبادة، فكان لها أثرٌ في تحصيل الأجر، وليست مقصودة لذاتها، وليس في الشريعة قصدُ التعب والمشقة، يعني: ليس هناك تعبُّدٌ تكون فيه العبادة هي المشقة، هي أن يُحَصِّلَ الإنسان شيئًا شديدًا لذاته، هذا غير موجود في الشريعة، بل الله عز وجل يريد بنا اليسر، ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[البقرة:١٨٥].

إذًا: هو أمرٌ حاصل في أثناء العبادة، في طريق العبادة، في سبيل تحصيل العبادة المقصودة، يحصل أثناء ذلك مشقة فيكون لها أثر في حصول الأجر. هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: أنَّ تفضيل العبادة الشاقة إنما هو تفضيلٌ نسبي لا مطلق، بمعنى: أن هذه العبادة الشاقة أفضل من غيرها مما هو من جنسها لا مطلقًا، يعني: عبادة واحدة كالذهاب إلى صلاة الجماعة - مثلًا - لكن قد تُحصَّل بسهولة وقد تُحصَّل بشدة وصعوبة، أيهما أفضل أجرًا وأكثر ثوابًا؟ العبادة في صورتها التي يكون تحصيلها معه مشقة أشد، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي ذكرته لك قبل قليل، كان أعظم أجرًا في الصلاة؛ لأنه أبعد ممشى، مكانه بعيد فيبذل جهدًا أكثر من الذي يسكن بجوار المسجد.

إذًا: هي - أعني: هذه القضية - مسألة تفضيل عبادة على عبادة هي من جنسها وليس مطلقًا، ولذا قعَّد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قاعدة حسنة في هذا ذكرها في مجموع الفتاوى وهي: أنه ليس كل شديدٍ فاضلًا ولا كل يسير مفضولًا. ليس كل شديد، يعني: ليس كل عمل صعب وفيه مشقة فاضلًا، وبالتالي ليس كل شيء يسير مفضولًا.

ويدل على هذا.. يعني: أن العمل اليسير قد يأتي في الشريعة بأجرٍ أكثر من عمل آخر شديد، هذا له نظائر في الشريعة، أرأيت قيام ليلة واحدة هي ليلة القدر، أليست أفضل من قيام ليالٍ أخرى في رمضان؟ نعم. أيهما أشق: قيام ليلة أو قيام ليال؟ قيام ليل، إذًا: هذه عبادة أسهل وكان أجرها أعظم.

قُل مثل هذا في صلاة فريضة واحدة في المسجد الحرام مقابل صلوات في غيره من المساجد، أيهما أسهل وأيسر؟ الصلاة في المسجد الحرام أو الصلاة في المسجد النبوي مع أن المشقة في غير ذلك، التعب والجهد في غير ذلك. وهذا له نظائر في الشريعة شتى، ولذلك ذكر الفقهاء رحمهم الله من فوائد حديث أبي هريرة ﵁ المخرَّج في الصحيحين وهو أن الفقراء أتوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور. يعني: الأغنياء فازوا بكل شيء، أخذوا الأجر. يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال فيتصدقون ولا نتصدق. فقال النبي ﷺ: «**ألا أدلكم على عملٍ تدركون به من قبلكم، ولا يدرككم من بعدكم إلا من عمل مثلما تعملون، قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون دُبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين**».

الشاهد أنَّ الفقهاء رحمهم الله نصوا على أن هذا الحديث دليلٌ على أن العمل اليسير قد يكون ثوابه أكثر من عمل أشق، فهؤلاء الأغنياء لهم جهد في الحج، لهم جهد في بذل المال وغير ذلك ومع ذلك النبي ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى وكلامه حقٌّ ﷺ، أجر هذه العبادة اليسيرة التي لا تأخذ دقائق ولا تكلف شيئًا من المال أعظم مما يفعله بعض الأغنياء في عبادات هي أشق وأشد وفيها بذل وفيها كُلفة.

إذًا: هذه القاعدة قاعدة ينبغي التنبه لها عند النظر في هذا الموضوع، ليس كل شديد فاضلًا ولا كل يسير مفضولًا، ومع ذلك فتنبه إلى أن العبادات إذا كانت من جنس واحد وكان في تحصيل العبادة مشقة أكثر من غيرها من صور هذه العبادة فإن لهذا أجرًا وثوابًا أكثر من غيره، والله جل وعلا أعلم.

قال: (**ورووا حديثًا ليس له أصل**) هذا حديث لا أصل له.

(**«أفضل الأعمال أحمزها»**) يعني: أشدها، أشقها، يقولون: لبنٌ حامزٌ، يعني: إذا كان لاذع، يقولون: رمانة حامزة إذا كانت فيها حموضة.

إذا: (أحمزها) يعني: أشدها وأشقها، ولكنه لا يصح عن رسول الله ﷺ.

قال: (**وهؤلاء هم أرباب المجاهدات والجور على النفوس**) يعني: يظنون أن الأخذ على النفس والإزراء عليها هو الأولى والأفضل دائمًا، وهذا ليس بمسلَّم بإطلاق، إنما الأنفع للنفس أن تكون موافقة

لعبودية الله جل وعلا في كل وقت، فمتى كان الوقت وقت عبادة فيها مشقة كالجهاد، كالحج، كالصيام؛ فإن هذا هو الأولى بالإنسان، ومتى ما كان الوقت وقت عبودية فيها يُسر وسهولة كالذكر - مثلًا - بعد الصلاة كما جاء في هذا الحديث أو نحو ذلك فإن هذا هو الأنفع للعبد، والله أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها: التجرد والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث لما هو منها. ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله تعالى، والاستغراق في محبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أفضل العبادات: دوام ذكره بالقلب واللسان.

ثم هؤلاء قسمان:

فالعارفون: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم.

والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيته، فإذا جاء ما يفرِّقه عن الله لم يُلتفت إليه، ويقولون:

يطالب بالأوراد من هو غافلٌ فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ثم هؤلاء -أيضًا- قسمان:

منهم: من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم: من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

والحق: أن الجمعية حظ القلب، وإجابة داعي الله حق الرب، فمن آثر حق نفسه على حق ربه فليس من العبادة في شيء.

❀❀◈❀❀

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا صنفٌ ثان رأوا أن أفضل العبادة التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان واطراح الاهتمام بها.

(الزهد) كلمة عظيمة وشريفة، وجاء فيها أدلة عن النبي ﷺ، وقد تشتبه بكلمة أخرى قريبة منها في المعنى وهي (الورع) ولكن بينهما فارقٌ دقيق، إذا اجتمعا فبينهما فارقٌ دقيق، الزهد: هو اجتناب ما لا ينفع، وأما الورع فاجتناب ما قد يضر.

ومن أحسن من عرَّف الزهد وذكر أقسامه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما نقل هذا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدارج، وذكر أن كلامه هو من أحسن الكلام في ذِكْر درجات الزهد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول: الزهد في الحرام، وهذا زهدُ العوام.

الثاني: الزهد في فضول المباحات، وهذا زهد الخواص. هذه درجة أرفع.

قال: والدرجة الثالثة: الزهد في كل ما يُشغل عن الله، وهذا زهدُ العارفين. هذه درجةٌ أرفع وأرفع.

وهذا الكلام لا شك أنه كلامٌ نافع وكلام عالم ذي فهم ثاقب، فإن الزهد إن تأملته وجدته راجعًا إلى هذه الدرجات، والناس فيها متفاوتون.

الزهد فيما حرم الله جل وعلا: اجتنابه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا ما يقع من كثير من الناس الذين وفقهم الله عز وجل لالتزام طاعة الله جل وعلا، لكن أرفع من ذلك أن يترك الإنسان فضول المباحات، وما فضول المباحات؟ فضول المباحات هي: كل مباح لا يُستعان به على بلوغ الدار الآخرة، أيُّ مباح لا ينفعك في بلوغ الدار الآخرة - يعني: الوصول إلى الجنة- فإنه فضلة وتركه أحسن مع كونه مباحًا.

أما إذا كان المباح ينفع في الوصول إلى الجنة فإنه نافع.

والله أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها: التجرد والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث لما هو منها. ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذه غاية، فشمَّروا إليه وعملوا عليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله تعالى، والاستغراق في محبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أفضل العبادات: دوام ذكره بالقلب واللسان.

ثم هؤلاء قسمان:

فالعارفون: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم.

والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيته، فإذا جاء ما يفرِّقه عن الله لم يُلتفت إليه، ويقولون:

يُطالَب بالأوراد من هو غافلٌ فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ثم هؤلاء - أيضًا - قسمان:

منهم: من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم: من يقوم بها ويترك السنن والنوافل وتعلم العلم النافع لجمعيته.

والحق: أن الجمعية حظُّ القلب، وإجابة داعي الله حق الرب، فمن آثر حق نفسه على حق ربه فليس من العبادة في شيء.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

فكان الحديث قد توقف بنا في درس البارحة عند الكلام عن الصنف الثاني من أهل العلم الذين فضَّلوا الزهد في الدنيا والتجافي عنها على غيره من الأعمال، ووقفنا عند كلمة حسنة للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن فيها أن الزهد على **ثلاثة أوجه:**

الوجه الأول: الزهد في الحرام، قال: وهذا زُهْد العوام.

وقد يستعمل أهل العلم كلمة الزهد في اجتناب المحرم، وإن كان الأكثر على أن الزهد يتعلق بغير ذلك، يعني: بالصنفين أو بالوجهين الآخَرين، لكن هذا الزهد لا شك أنه أمرٌ واجب سُمِّي زهدًا أو سُمِّي اجتنابًا للحرام.

المقصود أنَّ هذا القَدْر قدْرٌ لابد منه وواجبٌ على جميع الناس، ولكن مراد الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا القَدْر هو الذي وقف عنده العوام وما زادوا عليه.

والوجه الثاني: هو الزهد في فضول المباحات، وعرفنا ضابط فضول المباحات وهو: كلُّ مباحٍ لا ينفع في الدار الآخرة، يعني: لا يوصل إلى الآخرة ولا يكون سببًا في تحصيلها فإنه من فضول المباحات، وفضول المباحات تركها أولى.

وأما الوجه الثالث قال: فهو الزهد في كل ما يشغل عن الله، وهذا زهد العارفين. الزهد الثاني وصفه بأنه زهد الخواص، وأما الزهد الثالث فهو زهد العارفين، يعني: أن يتشاغل الإنسان عن كل شيء إلا عن ربه جل وعلا، وبالتالي فكل ما يصد عن الوصول إليه سبحانه فلا شك أنَّ الزهد فيه مطلوب، وهذا شأن أهل التقوى والصلاح.

قيل لبعضهم: ما الزهد؟ قال: أن ينتقل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء. يعني: أن لا يكون القلب معلقًا بشيء من الأشياء، بل أن يكون القلب معلَّقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأهل هذه المرتبة هم أهل درجة تحقيق التوحيد المستحب الذين مضى الحديث فيهم، «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»، فهذا كان بالله وكان كل عمله في الله، مستعين بالله، أفعاله كلها راجعة إلى مرضاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا هو الزهد الذي ينفع صاحبه، هذه هي الدرجة العليا التي ينبغي أن يشمِّر إليها المشمِّرون.

مسألة الزهد في الدنيا مسألة فيها كلامٌ طويل ومباحث متفرعة عند أهل العلم، وبين من يحثُّ وبين من يكون دون ذلك، والتحقيق في ذلك: أن الزهد في الدنيا -بمعنى: اجتناب بهجتها وزينتها وأموالها

والتخلي عن ذلك- هذا من حيث هو ليس مطلوبًا لذاته، وليس ثمة حثٌّ عليه من حيث هو، إنما الزهد في هذه الفضول مطلوبٌ شرعًا لأجل غيره لا لذاته.

بمعنى: أنَّ هذه الدنيا بمفاتنها وزينتها ربما تكون حجر عثرة أمام العبد في طريق عبوديته لله جل وعلا، فالتخفف من ذلك والتجافي عنه لا شك أنه مطلوب شرعًا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المستحب إلا به فهو مستحب.

إذًا: الدنيا من حيث هي لا تُذم، إنما تُذم من حيث كونها تصد عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبالتالي متى ما كانت الدنيا تصد عن الله جل وعلا كان المطلوب شرعًا تركها، ومتى ما كانت الدنيا تقرِّب إلى الله جل وعلا كان المطلوب شرعًا القرب منها.

إذًا: هي وسيلة، إن كانت وسيلة إلى غير الله كان المشروع في حق المسلم أن يتجافى عنها، وإلا فإذا كانت تقرِّبه إلى الله جل وعلا فإنه يُطلب منه ويُشرع منه أن يكون قريبًا منها.

إذا كان تحصيل المال، إذا كان اكتساب التجارات سببًا يقرب إلى الله جل وعلا فيُنفق في سبيل الله ويُغاث الملهوف ويُجاهَد في سبيل الله جل وعلا حينئذٍ تكون هذه الدنيا مطلوبة، لكن المطلوب -أيضًا- أن تكون في اليد لا أن تكون في القلب، وهذا هو محل الابتلاء والامتحان.

الدنيا -كما ذكرت- ليس مطلوبًا التخلي عنها من حيث هي، بل هذا غير ممكن أصلًا أن يتخلى الإنسان عنها من كل وجه، لكن المطلوب أن تُسخَّر في سبيل الله جل وعلا، وهذا لا يكون إلا إذا كانت في اليد لا في القلب، وما أحسن المثل الذي ضربه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمال قال: المال بمنزلة الخلاء، بمنزلة دورة المياه، لا أحد يستغني عنه، ومع ذلك لا يتعلق القلب به. لا أحد قلبه معلَّق بالخلاء مع كونه لا يستغني عنه، هو محتاجٌ إليه، حتى إذا احتاج أن يصلحه وأن ينشغل به بعض الشيء فهو كما هو محتاجٌ إلى أن يصلح الخلاء، لأنه محتاجٌ إليه ولابد أن يكون صالحًا.

فالمقصود إذًا أن يكون المال، أن تكون هذه الدنيا بهذه المثابة في يد الإنسان يطلبها لأجل حاجته إليها ولأجل أنها وسيلة لتحقيق العبودية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

أما الوقوف فقط عند حد تركها، وأن يكون القصد الاجتناب ثم لا شيء بعد ذلك فهذا ليس مطلوبًا شرعًا، ولم يكن هكذا حال النبي ﷺ ولا كان هذا حال أصحاب النبي ﷺ، أصحاب النبي ﷺ منهم من كان غنيًا بل منهم من كان غنيًا جدًا كعثمان رضي الله عنه، ومنهم من كان فقيرًا كأبي هريرة رضي الله عنه، وهذا وذاك كلاهما كانت الدنيا من حيث قربها أو بعدها ليس عندهم شيئًا مقصودًا، إنما المقصود القُرب من الله تبارك وتعالى.

هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه حال المسلم.

هؤلاء الذين قالوا: إن الزهد في الدنيا هو أفضل الأعمال، ذكر المؤلف أنهم انقسموا إلى قسمين: منهم من ظن أن الزهد في الدنيا غاية، ومنهم من ظن أن الزهد في الدنيا وسيلة.

أما الذين جعلوا الزهد في الدنيا غاية فلا شك أنهم مخطئون، الغاية نيل رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وليس ترك المباحات والزهد في الدنيا.

أما الذين رأوا أنه وسيلة لغيره فهؤلاء – أيضًا – منقسمون: منهم من رأى أن المقصود عكوف القلب على الله جل وعلا، والمقصود الاستغراق في محبته والإنابة إليه، ولكنهم إذا جاء أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنهم يبادرون إليه ولا يقفون عند هذا الحد.

يعني: أنَّ الذين آثروا الزهد والعزلة وترك الخلطة لأجل أن تحصل لهم الجمعية، هذا اللفظ الذي استعمله ابن القيم رحمه الله وتابعه عليه المؤلف المراد به: عكوف القلب على الرب جل علا والخلوة بذكره، هذا هو مقصودهم بكلمة الجمعية أو جمعيتهم على الله جل وعلا: عكوف القلب على الله عز وجل والخلوة بذكره.

وهؤلاء منهم من رأى أن يخلو بربه جل وعلا ويأنس بذكره وبدعائه وبتسبيحه وبالتأمل في صفاته، في آياته الكونية والشرعية، لكن إذا عارض هذا أمر الله جل وعلا، كأن يأتي الأمر بالصلاة، أو يأتي الأمر بواجب الجهاد، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو اتباع الجنائز أو نحو ذلك بادروا إليه وأقبلوا عليه، ورأوا أن هذا لا ينبغي أن يُقدَّم عليه هذا الأُنس وهذه الخلوة.

قال: (**فالعارفون: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم**).

أما الصنف الثاني فهم المنحرفون، هم الذين قالوا: المقصود من القلب جمعيته، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يُلتفت إليه. ولا شك أن هذا انحراف وهذا استيلاءٌ من الشيطان عليهم، المقصود هو إجابة داعي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، سواء كان هذا في الخلوة أو كان هذا في الاختلاط بالناس، أكان هذا حال الجمعية أو كان حال حصول اللقاء بعباد الله، المقصود أن الإنسان يدور مع أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حيث كان.

ولذا سأل بعضهم أحد العلماء عن كونه يكون في جمعيته فيأتي نداء الصلاة، يأتيه الأمر بإجابة داعي ربه جل وعلا، أيجيب أم لا؟ فقال: أجب ولو كنت تحت العرش. لو كنت في أقرب مكان إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تحت عرشه في ذاك الملكوت العظيم ثم جاءك النداء بالصلاة بإجابة داعي الله جل وعلا واجبٌ عليك أن تجيب.

وهذا فُرقانٌ بين أهل الإيمان والتقوى وأهل الهوى والبدعة، أهل الإيمان والتقوى غايتهم أن يصلوا إلى رضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أما هؤلاء وإن تزينوا فغايتهم تحقيق أهواءٍ في أنفسهم، وهذا ما بيَّنه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والحق أن الجمعية حظ القلب وإجابة داعي الله حق الرب، فمن آثر حق نفسه على حق ربه فليس من العبادة في شيء**).

هذه هي الخلاصة في هذه المسألة، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعَدٍّ، فرأوه أفضل من النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالجاه والمال والنفع أفضل، لقوله ﷺ: «الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

قال الشَّارح وفقه الله:

هذا صنفٌ ثالث من أصناف أهل العلم الذين اختلفوا في الأفضل من الأعمال.

قال هؤلاء: الأفضل من الأعمال الصالحة ما كان متعديًا لا ما كان قاصرًا. المتعدي: هو الذي يصل نفعه إلى الغير، والقاصر: الذي يقتصر نفسه على الفاعل فحسب.

فالذِّكر مثلًا، تلاوة القرآن، الصيام، الصلاة: عبادات قاصرة، أما الجهاد والأمر بالمعروف والرباط وإغاثة الملهوف ونحو ذلك فهذه عباداتٌ متعدية، قالوا: المتعدي أفضل من القاصر.

وهذه قاعدة صحيحة في الجملة، الأصل أن المتعدي أفضل من القاصر، وذلك لأن الأجر المترتب على المتعدي لا ينتهي بانتهاء العمل، بل إنه يستمر ويكون هذا العمل سببًا لتحصيل ثوابٍ ولربما كان هذا العامل تحت التراب، ولذا تجد في النصوص الشرعية إشارات تدلُّك على هذا.

في صحيح مسلم قال ﷺ: «**رباط يومٍ في سبيل الله خيرٌ من صيام شهر وقيامه**»، الصيام عملٌ قاصر، والرباط في سبيل الله على ثغور المسلمين هذا عملٌ متعدٍّ، مصلحته مصلحة عامة، فكانت ليلة أو كان يوم واحد في هذا العمل المتعدي خيرًا من صيام وقيام شهرٍ كامل.

كذلك تجد النبي ﷺ يقول كما عند الترمذي وأبي داود وغيرهما: «**ألا أدلكم بما هو أفضل من درجة الصلاة والصيام؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين الحالقة**».

فالصلاة والصيام درجة من الطاعة عظيمة ولكنها قاصرة، أما إصلاح ذات البين فإنها درجة متعدية، وبالتالي فهي أفضل بمنطوق حديث رسول الله ﷺ.

لكن تنبه هنا إلى أنَّ هذه القاعدة مقيَّدة **بضابطين**:

الأمر الأول: أن تفضيل المتعدي على القاصر عند اتحاد الرتبة، يعني: تساويا في الرتبة، هذا مستحب وهذا مستحب، فتقديم المتعدي على القاصر أفضل.

أما مع تفاضل الرتبة من حيث الأهمية في الشريعة فلا شك أن الواجب مقدَّمٌ على المندوب ولو كان قاصرًا، وبالتالي فمتى ما تعارض تحصيل واجب قاصر مع مندوب متعدٍّ ما الذي يُقدَّم؟ الواجب ولو كان قاصرًا.

فإذا جاء مثلًا وقت صلاة الفريضة فتعارض هذا مع الصدقة النافلة مثلًا، أو مع عيادة مريض، فما الذي ينبغي أن يُقدَّم؟ الصلاة الواجبة دون شك.

إذًا: هذا قيدٌ لابد من مراعاته في هذه القضية.

الأمر الثاني: ينبغي أن يُراعى -أيضًا- ضابط مهم عند أهل العلم وهو تقديم ما يُخشى فواته على ما لا يُخشى فواته، وبالتالي متى ما تعارض عندنا عملٌ صالحٌ قاصر لكن يُخشى فواته مع عملٍ صالحٍ متعدٍّ لا يُخشى فواته، فما المقدَّم؟ ما يُخشى فواته.

مثال ذلك: الأذكار بعد الصلاة عملٌ صالحٌ قاصر ولكنه مؤقت، له وقت معين، متى؟ بعد الصلاة، وهناك عملٌ صالحٌ متعدٍّ ولكن وقته متسع، يمكن أن يؤدى بعد ذلك، فما الذي ينبغي عليك أن تفعله؟ أن تقدِّم المؤقَّت على الموسَّع، أو ما يُخشى فواته على ما لا يُخشى فواته.

وعلى هذا يمكن أن يتنزل الحديث الذي ذكرناه وهو حديث أهل الدثور، لما شكا الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور -يعني: الأموال- بالدرجات والأجور، يصومون كما نصوم، ويصلون كما نصلي، ولهم فضول أموالٍ يتصدقون بها ولا نتصدق. فقال النبي ﷺ: «**أفلا أدلكم على عملٍ تسبقون به من بعدكم وتدركون به من قبلكم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين**»، تلاحظ أن هذه عبادة قاصرة قُدِّمت على عبادة متعدية نظرًا لأنها مؤقتة، لأنها مقصورة على وقتٍ معين ولا يُخشى فوات تلك الأمور.

وبالتالي فالذي يُقدِّم ما يُخشى فواته يكون قد حصَّل العملين، بعكس الذي قدَّم الذي لا يُخشى فواته فإن ذاك يذهب وقته.

على كل حال، في باب المفاضلة بين الأعمال الصالحة تنبه إلى أن كلام أهل العلم إنما يتعلق بحال المزاحمة، أما مع عدم المزاحمة فإن قواعد التفاضل بين الأعمال غير واردة.

بمعنى: يتحدث أهل العلم على أن هذا أفضل من هذا في حال ازدحام الوقت: إما هذا وإما هذا، فما الذي ينبغي أن يُقدَّم؟ هذا هو الباب الذي ينبغي أن يكون عند العابد فقهٌ فيه، فيقدِّم الفاضل على المفضول.

أما مع اتساع الوقت، وإمكان تحصيل كلا الأمرين، فإن الأمر حينئذٍ لا يُحتاج فيه إلى البحث في هذه المسائل، لأننا نقول: افعل العمل القاصر، وافعل العمل المتعدي، والحمد لله، الأمر في ذلك واسعٌ والحمد لله، إنما تحصل الحاجة إلى هذه القواعد والضوابط عند أهل العلم في حال المزاحمة، في حال توقف الإنسان أمام عملين فأيُّهما يُقدَّم ولا يمكنه الجمع بينهما، والله جل وعلا أعلم.

يدل على هذه القواعد - وقد ذكر المؤلف جملة من الأدلة على ذلك – وهو حديث أنس ﵁ عن النبي ﷺ: «**الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**» لكن هذا الحديث ضعيفٌ بل ضعيف جدًا، لكن ثبت معناه في أحاديث أخرى عن عددٍ من أصحاب النبي ﷺ مخرَّجة في عددٍ من كتب الحديث كالطبراني وغيره، وكلها تدل على أنَّ خير الناس أنفعهم للناس.

فهذه الأحاديث بضمها إلى بعض يدل ذلك على أن لها أصلًا، وبعض أهل العلم حسن تلك الأحاديث، فخير الناس أنفعهم للناس، وشواهد الشريعة كلها تدل على هذا المعنى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قالوا: وعمل العابد قاصرٌ على نفسه، وعملُ النَّفَّاع متعدٍّ إلى الغير، فأين أحدهما من الآخر؟، ولهذا كان «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». وقد قال ﷺ لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم»، وقال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا»، وقال: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الخير»، وقال: «إن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها».

قالوا: وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي تسبب فيه.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

وهذا مما ينبغي أن يحث المسلم على أن يحرص على الأعمال المتعدية؛ لأن حسنات صاحب العمل المتعدي قد تكون في ازدياد ولو كان تحت التراب، أرأيت إلى العالم الذي ترك علمًا يُنتفع به، تركه في تلاميذه، تركه في مصنفاته، تركه في دروسه المسموعة ثم مات ولم تزل الأجيال ولم يزل الناس يستفيدون من هذا العلم ما شاء الله أن يستفيدوا، فإن هذا كله مدوَّنٌ في حسنات هذا العالم إن كان أخلص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك انظروا نحن نقرأ الآن في كتاب عالمٍ توفي قبل نحو ستمائة عام، ولم نزل نستفيد ولم نزل نأخذ وننهل من كلام هذا العالم وأمثاله من أهل العلم.

إذًا: أين حسنات العالم الصالح من حسنات غيره؟ أين حسنات الملك العادل من حسنات غيره؟ أين حسنات المجاهد الصادق من حسنات غيره؟ أين حسنات المحسن الباذل من حسنات غيره؟ فحسنات هؤلاء حسناتٌ كثيرة وحسناتٌ وفيرة وأجرها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظيم.

فهذه الحسنات المتعدية الأصل فيها أنها أعظم وثوابها ثوابٌ أجزل، بعكس العبادة القاصرة التي ينتهي ثوابها أو ينقطع ثوابها بانقطاع العمل.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق، وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يُبعثوا بالخلوات والانقطاع، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين همُّوا بالانقطاع والتعبُّد وتَرْك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء أن التفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعية على الله بدون ذلك، قالوا: ومن ذلك العلم والتعليم، ونحو هذه الأمور الفاضلة.

قال الشارح وفقه الله:

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما بُعِثوا بالرسالة وأمرهم الله عز وجل أن ينذروا وأن يأمروا وأن يعلِّموا ما أتوا بالانقطاع والخلوة والجمعية والعكوف، إنما برزوا للناس فدعوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهكذا ينبغي أن يكون حال أتباعهم، ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨]، فهذه سبيل أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولذا كان العلماء ورثة الأنبياء، وهذا كله لا يتوافق مع ما مضى عليه أصحاب هذا الرأي، ولذا أنكر النبي ﷺ على أولئك الذين رجَّح رأيهم أن ينقطعوا، كالذي قال: لا أتزوج النساء. ينقطع ويخلو بربه جل وعلا ولا يتزوج، فالنبي ﷺ نهاه عن ذلك، النبي ﷺ أخبر أن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم، وتبقى في مسألة الخلطة تنبيهات سيأتي الحديث عليها في كلام المؤلف القادم إن شاء الله.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصنف الرابع: قالوا: أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب سبحانه، وإشغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هؤلاء الذين فازوا بالقول الصواب أن الصواب في أفضل الأعمال هو إشغال كل وقتٍ بما هو الأفضل فيه، بما هو مشروعٌ فيه، فكل وقت من الأوقات وحال من الأحوال خصَّه الله جل وعلا بعبادة معينة، إشغال النفس في هذا الوقت وفي هذه الحال بهذه العبادة المعيَّنة أفضل من إشغالها بغيرها، وبالتالي فلا يُطلق أن عملًا معينًا هو الأفضل على الإطلاق من هذه الأعمال التي يختلف أهل العلم في التفضيل بينها، بل هذا العمل في وقته أفضل من غيره، والنظر هنا نظرٌ إلى التعيين لا نظرٌ إلى جنس العمل الصالح، فالمفضول في وقته أفضل من الفاضل في غير وقته، هذا الذي يريد أن يصل إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المفضول في وقته أفضل من الفاضل في غير وقته.

قد ينظر أهل العلم في مسائل من حيث النظر إلى جنس العبادات، فبعضها من حيث النظر العام أفضل من بعض، لكن بحثنا هنا بحثٌ عملي، ماذا عند العمل عند التطبيق، أيُّ ذلك أقدَّم؟ هذا نظَرٌ آخر، هذا اجتهادٌ آخر، فربما كان في النظر العام العمل مفضول لكنه في وقته أفضل من غيره.

مثال ذلك: تلاوة القرآن جنسها أفضل من جنس التسبيح والتهليل وبقية الأذكار، في الجملة قراءة القرآن أفضل من التسبيح، ولكن في أدبار الصلوات ما الأفضل؟ هل الأفضل أنني إذا سلمت أفتح المصحف وأقرأ لأن تلاوة القرآن جنسها أفضل من جنس بقية الأذكار؟ أو الأفضل أن أنشغل بالأذكار الآن؟ هذا هو المطلوب، لم؟ لأنه مفضولٌ في وقته، والمفضول في وقته أفضل من الفاضل في غير وقته.

فهذه هي الخلاصة المهمة التي ينبغي أن نصل إليها، البحث في التفضيل بين أجناس العبادات شيء، والبحث في العمل والتطبيق شيءٌ آخر.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل من ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

قال الشارح وفقه الله:

ولذلك صلاة الخوف فيها من التسهيل في أعمال الصلاة ما ليس واردًا في أوقات الأمن، وذلك لضرورة الحال، ولأن الوقت وقت جهاد، فالجهاد في وقته لا شك أنه أفضل من غيره من هذه العبادات الأخرى، كصيام تطوع، كصلاة نافلة، كقيام ليل، كتلاوة قرآن، إلى غير ذلك.

لكن تنبه أن كلام أهل العلم عن الجهاد الشرعي، عن الجهاد الشريف، عن الجهاد العظيم، لا هذا الجهاد الذي ربما بعض الناس اليوم يرفع شعاره وهو بعيدٌ -مع الأسف الشديد- عن الجهاد الذي جاء به الإسلام، الإسلام جاء بجهادٍ واضح المعالم، جاء بجهادٍ ذي مروءة، جهاد شريف نظيف، ليس بجهاد الخيانة.

متى كان قتل النفوس المعصومة جهادًا في سبيل الله؟

متى كان سَلُّ السيف على أمة محمدٍ ﷺ جهادًا في سبيل الله؟

متى كان تفجير الأنفس وقتل المصلين في بيوت الله وتلطيخ المصاحف بالدماء جهادًا في سبيل الله؟

هذا ليس جهادًا في سبيل الله، هذا جهادٌ في سبيل الشيطان، الإسلام أسمى من ذلك وأرفع من ذلك، وكم شوَّه هذا الجهاد المزعوم سمعة الإسلام وصد عن سبيل الله، وهذا شيءٌ معروف بل وملموس لمس اليد، ليس هذا هو الجهاد في سبيل الله.

انظر هذه الصورة المشرقة لرحمة الإسلام ولعدل الإسلام وللمروءة التي يدعو إليها الإسلام.

في صحيح البخاري في قصة البعث الذين بعثهم النبي ﷺ وكانوا عشرة أنفس فكَمِنَ لهم المشركون قرب مكة، فصعدوا إلى جبل أو مرتفع، ثم رمى بعضَهم هؤلاء المشركون فقتلوهم ونزل ثلاثة منهم إلى

هؤلاء المشركين واستأسروا لهم، ثم قتلوا واحدًا منهم في الطريق فبقي اثنان ومنهم خبيب بن عدي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المهم أنهم أخذوه هو وابن الدثِنَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باعوهما في مكة، فكان نصيب خبيب لبني الحارث بن عامر وكان قد قتل أباهم في يوم بدر، فوضعوه في بيت من بيوتهم وسلسلوه بالحديد، ثم لما أجمعوا على قتله طلب مُوسى أو حديدة يستحد بها، يتنظف ويتجهز لملاقاة ربه.

فكان أن دَبَّ صغير، صبي صغير دبَّ إليه فأخذه وأجلسه على فخذه، أصبح الطفل الآن على فخذه والموسى في يده، فدخلت الأم أم هذا الصبي فرأته ففزعت. صبي صغير عنده والموسى بيده وبعد قليل سيُقتل، ما الظن؟ وقع في نفسها أنه سيقتله. فلما رأى الفزع في وجهها قال: أتظنين أني أقتله؟ لا أفعل ذلك إن شاء الله.

انظر إلى مروءة الإسلام وإلى رحمة الإسلام وإلى عدل الإسلام، هذا ابنٌ لهؤلاء المشركين، لهؤلاء الظالمين ولكن لا ذنب له، فلماذا يُقتل؟ قال: لا أفعل إن شاء الله. هذه هي أخلاق الإسلام، إسلامٌ عادل لا يُظلم فيه أحد ولا يُجار فيه أحد.

فأين هذا الجهاد الذي يفعله بعض الناس اليوم فيقتون بالظِّنَّة، ويقتلون بغلبة الظن، ويقتلون بما يظنونه مصلحة، وربما دخلوا على أهل بيت فقتلوهم جميعًا خشية أن يخرج أحدٌ منهم إذا كبُر فيثأر منهم. إلى غير ذلك مما يُسمع عن حال هؤلاء.

إذًا: إذا تكلم أهل العلم عن الجهاد فالمقصود الجهاد الشرعي الذي استجمع شروطه، الذي يتوافق ومقاصد الشريعة وأخلاقها.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في وقت حضور الضيف: القيام بحقه والاشتغال به.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

لا شك، فإن القيام على الضيف من الإيمان، والنبي ﷺ أمر بذلك وحث عليه في أحاديث كثيرة، فإذا نزل الضيف بالمسلم كان القيام بحقه أولى من الانشغال بغير ذلك من العبادات الأخرى التي هي فاضلةٌ في وقتها، لكن في هذا الوقت الانشغال بالضيف وإكرامه أولى من غيره.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدعاء.

والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

لا شك، فإن هذا هو الوقت المناسب لهذه العبادة أن يردد الإنسان مع المؤذن ويقول الأمر المشروع في حقه، وكم نغفل - يا إخواني - عن هذه القضية العظيمة، يترك الإنسان ما بيده وينشغل بإجابة المؤذن وبالتالي يحصل على هذه الأجور العظيمة التي جاءت عن النبي ﷺ، وهذه الأجور الحق أنها تأخذ اللُّبَّ والله، مع أنها كلمات يسيرة لكن فضلها عظيم جدًا، ومع ذلك فالغفلة عن هذا الأمر عظيمة.

في صحيح مسلم قال النبي ﷺ: «**إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فقال العبد: الله أكبر الله أكبر**...» إلى آخر الحديث قال النبي ﷺ: «**دخل الجنة**»، إذا قال فقط هذه الكلمات ردد وراءه وهو يقول مثلما يقول كانت النتيجة: دخل الجنة.

أيضًا قال النبي ﷺ كما عند البخاري وغيره: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته**»، ما النتيجة؟ قال النبي ﷺ: «**حلت له شفاعتي يوم القيامة**».

أيُّ فضلٍ هذا بسبب كلمات يسيرة، ربما نضيعها ونحن نتفكه بالحديث أو ربما تكلمنا بما لا ينبغي في هذا الوقت.

انظر -أيضًا- إلى ما أخرج الإمام مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال: «**من قال حين يؤذن المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، رضيت بالله ربًا وبمحمدٍ رسولًا وبالإسلام دينًا غُفِر له**

ذنبه»، كلمات يسيرة نتيجتها فضلٌ عظيم: غفر الله له ذنبه. ومن هذا الذي هو غنيٌ عن مغفرة ذنوبه من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؟

إذًا: هذا لا شك أنه أحسن ما تفعل في هذه اللحظات.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى المسجد وإن بَعُد.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

لا شك، الصلاة أفضل الأعمال البدنية، وتاركها تاركٌ للإسلام، «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة**» كما قال النبي ﷺ، «**فمن تركها فقد كفر**»، والصلاة في جماعة واجبة.

وفي صحيح مسلم جاء أعمى إلى النبي ﷺ يستأذنه في أن لا يصلي في المسجد، فقال ﷺ: «**أتسمع النداء؟**» قال: نعم. قال: «**فأجب**»، فدل هذا على أن صلاة الجماعة أمرٌ واجب.

إذًا: أفضل الأعمال إذا حَلَّ وقت الصلاة أن يبادر الإنسان إليها في جماعة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن.

قال الشارح وفقه الله:

لا شك، فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، إذا كان أخوك في حالٍ شديدة وبحاجة إلى من يقف معه فإن المبادرة إلى إسعافه لا شك أن ذلك في هذا الوقت أفضل من الانشغال بغيره مما هو دونه في الفضل.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في السفر: مساعدة المحتاج، وإعانة الرفقة، وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب، والهمة على تدبره، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعية قلب من جاءه كتابٌ من السلطان على ذلك.

قال الشّارح وفّقه الله:

لا شك أن هذا هو المقصود من تلاوة القرآن قصدًا أوليًا، ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾[ص:٢٩]، فهذا هو الحكمة من تلاوة كتاب الله جل وعلا أن يصل الإنسان إلى التدبر.

وما أحسن هذه الكلمة! قال: (**والهمة على تدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية القلب**) من جمع الهمة والتفكير والحرص على فهم الكلام (**مِمن جاءه كتابٌ من السلطان**)، أرأيت لو جاءك كتابٌ رسالة من الملك، من رئيس الدولة يطلب فيها منك أشياء، كيف تنظر إليها؟ تأخذها بأطراف أصابعك وتقرؤها وأنت غافل عنها ولا تبالي بها، أم تأخذها باهتمام وحرص وتحاول أن تستجمع فكرك حتى تفهم ماذا يريد هذا الملك فتأتي به على وجهه؟ فكيف بكلام ملك الملوك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي أنزله وأراد منك أن تتدبره ثم أن تعمل بما فيه؟ ينبغي أن يكون اهتمامنا بتلاوة القرآن أعظم من هذه الصورة التي ذكرها المؤلف.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

لا شك، في حال الوقوف بعرفة أفضل ما تفعل هو أن تجتهد في الدعاء والذكر، النبي ﷺ فيما بين الظهر إلى المغرب، يعني قرابة كم ساعة؟ خمس ست ساعات؟ كل ذلك الوقت كان رافعًا يده ﷺ يدعو ويذكر، من يطيق هذا؟ كل هذا الوقت النبي ﷺ كان مستغرقًا فيه بالدعاء والذكر، لأن هذا هو أفضل ما يكون وأحسن ما يكون في هذه اللحظات. وهكذا ينبغي أن يكون المسلم إذا وفقه الله جل وعلا إلى الوصول إلى تلك العرصات العظيمة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، وهو أفضل من الجهاد غير المتعيِّن.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

كما في الصحيح وغيره من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه العشر**». قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بماله ونفسه فلم يرجع من ذلك بشيء**»، فدل هذا على أن العمل الصالح في العشر أفضل من غيره.

ويتأكد العمل الصالح ويزداد أجره -أيضًا- في حال غفلة الناس عنه، وما أكثر الغفلة عن هذه الأوقات العظيمة التي رُبَّما يوفقنا الله عز وجل لبلوغها ونسأل الله ذلك بعد وقت يسير، بعد مرور أيام ربما يَمُدُّ الله عز وجل في أعمارنا ونصل إليها، هذه أوقات عظيمة كثيرٌ من الناس أو أكثرهم في غفلة عنها، والعبادة في أوقات الغفلات لا شك أنها أفضل من غيرها.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في العشر الأواخر من رمضان: لزوم المساجد، والخلوة فيها، مع الاعتكاف والإعراض عن مخالطة الناس، والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

قال الشّارح وفّقه الله:

العشر الأواخر من رمضان محلٌّ للطاعة والاجتهاد وللذكر والقيام، فالاشتغال بذلك الأصل أنه أنفع من غيره وأفضل من غيره ما لم يُزاحم ذلك عملٌ يخشى فواته.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

في حال مرض أخيك المسلم المشروع في حقك أن تبادر إلى عيادته، وطائفة من أهل العلم ترى ذلك من فروض الكفايات، لو ترك المسلمون جميعًا عيادة هذا المريض مع علمهم به أثم هؤلاء العالمون بحاله جميعًا، فالشأن في عيادة المريض شأن عظيم، وهو حق أحقَّه الله عز وجل على المسلم لأخيه.

وفي الصحيح قال ﷺ: «**حق المسلم على المسلم ست.. ومنها: إذا مرض فَعُدْه، وإذا مات فاتبعه**»، ففي حال المرض –مرض المسلم- فإن أفضل ما يُفعل في هذه الحال أن يُعاد.

كذلك إذا مات أخوك المسلم فاتباع جنازته والقيام على تكفينه لا شك أن هذا أفضل ما ينبغي عليك أن تفعله في هذا الوقت.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذى الناس لك: أداءُ واجب الصبر مع خلطتك لهم، والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم، وخلطتهم في الخير أفضلُ من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر خيرٌ من خلطتهم فيه، فإن عَلِم أنه إذا خالطهم أزاله وقلّله فخلطتهم خير من اعتزالهم.

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذا كلامٌ من أحسن الكلام وأخصره في مسألة تفضيل العزلة على الخلطة أو العكس، فخُلطة الناس في الخير خيرٌ من اعتزالهم في الخير، واعتزالهم في الشر خيرٌ من خلطتهم في الشر، إلا في حالٍ واحدة وهي أنه إذا خالطهم في الشر خفَّفه أو أزاله بالكلية فإن خلطته لهم في هذا أولى بشرط أن لا يعود الشر عليه، أما إذا كان يعلم أنه يعود عليه شيءٌ من الشر فالسلامة لا يعدلها شيء، أما إذا كان يعلم من نفسه أنه لا يتأثر ولا يحصل له ضعف أمام هذا الشر فلا شك أن الأولى أن يحضر فيزيل المنكر أو يخففه.

إذًا: خالط الناس إذا كانت الخلطة في خير ولا تعتزل، واعتزل الناس إذا كانوا في شر ولا تخالط، هذا هو الأصل في ذلك، وعلى هذا كان حال أهل الإيمان الكامل، النبي ﷺ خالط الناس وما اعتزل، وهكذا أصحابه رضي الله عنهم خالطوا وما اعتزلوا وصبروا على الأذى، وهذا لا شك أنه أفضل، الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ ممن لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم.

الخلفاء الأربعة الراشدون خالطوا الناس وحصل لهم أذى، حتى إن ثلاثة منهم قُتِلوا في سبيل الله، فدل هذا على أن الخُلطة بالناس والصبر على الأذى خيرٌ من ترك ذلك، إلا من علم من نفسه الضعف وخشية التأثر فإن الأولى في حقه أن يعتزل، من علم أنه إذا خالط الناس لا يصبر على هذا الشر فيتأثر به، أو لا يصبر على هذا الأذى فيحصل منه اعتراضٌ على قدر الله عز وجل أو معارضةٌ لقضائه جل وعلا فإن الأولى في حقه أن يعتزل.

والناس في هذا درجات، وقد جعل الله لكل شيء قدْرًا، ويتأكد الأمر في حق من آتاه الله عز وجل علمًا وحكمة، فيخالط الناس ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ينصح، يعظ، يذكِّر، يقلل الشر، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان، وهذا الذي ينبغي أن يكون الحكماء الذين يريدون نيل الدرجات العلى يخالطون ويصبرون، طلاب العلم، الدعاة إلى الله جل وعلا عكوفهم في بيوتهم وانعزالهم في مكتباتهم وترك الناس تتخبط في المعاصي والشرور، وربما انحدروا إلى الكفر بالله عز وجل والإلحاد وهم يشاهدون ولا يحرك ذلك فيهم ساكنًا، لا شك أن هذا ضعف وخور، بل هذا من قلة الإيمان.

ينبغي على المسلم إذا رأى محارم الله عز وجل أن تُنتهك ورأى أهل الشر قد اجتهدوا ونشطوا ينبغي أن يكون عنده غيرةٌ على محارم الله، ينبغي أن يكون عنده حرصٌ على الخير، يحب أن دين الله عز وجل يفشو في الناس.

فنشكو إلى الله جل وعلا في هذا الزمان جَلَد الفاجر وضعف الثقة، نشكو إلى الله جلد الفاجر وضعف الثقة، أهل الشر يتعاونون ويتكالبون وينشطون ويشمرون عن ساعد الجِد في مقابل أن بعض أهل الخير يكسلون وتضعف همتهم عن النشاط في مجابهة هذا الشر، فالله المستعان!

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق.

قال الشارح وفقه الله:

من هم؟ من الذي يتحدث عنهم؟ أهل الصنف الرابع، ومن هم؟ الذين يشغلون كل وقت بما هو مخصوص فيه من الطاعة، الله جل وعلا جعل في كل وقت حال عبادة مخصوصة، فالانشغال بها لا شك أن هذا هو الأولى والأفضل.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف التي قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلق به من العبادة وفارقه؛ يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته، فهو يعبد الله على وجهٍ واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرضٌ في تعبُّدٍ بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضات الله تعالى.

قال الشَّارح وفّقه الله:

الله أكبر! يدور مع الأمر حيث دار، وينزل متى حطت ركائبه، ليس له غرض لشيء في نفسه أو شهوة في نفسه يتبعها ويحب شيئًا معينًا فتجد أنه يحرص عليه، في مقابل أنه يترك ما سوى ذلك، ليس هذا حال أهل التعبد المطلق، هؤلاء ليس لهم غرض إلا أن يصلوا إلى مرضاة الله جل وعلا، فإذا قيل لهم اذهبوا ذات اليمين ذهبوا، وإذا قيل اذهبوا ذات الشمال ذهبوا، وإذا قيل تقدموا أو ارجعوا فعلوا ما جاء الأمر به، هذا حال كُمَّل أهل الإيمان.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضات الله تعالى: إن رأيت العلماء رأيته معهم، وكذلك في الذاكرين، والمتصدقين، وأرباب الجمعية، وعكوف القلب على الله، فهذا هو الغذاء الجامع للسائر إلى الله في كل طريق، والوافد عليه مع كل فريق.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

لذا احرص على أن تصل إلى الله جل وعلا وجنته من كل طريق، احرص على أن يكون لك سهمٌ في كل بابٍ من أبواب الخير، هكذا ينبغي أن يكون الذكي المؤمن الحريص الذي يريد نيل رضوان الله جل وعلا، لا ينبغي أن تفتر همته من نوعٍ من أنواع الخير، لا من تلاوة، لا من قيام، لا من صيام، لا من أمرٍ بالمعروف ونهي عن منكر، لا من طلبٍ للعلم، لا من دعوةٍ إلى الله جل وعلا، لا من صدقة وإن قلَّت، احرص على أن يكون لك ولوج في كل نافذة توصل إلى مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأستحضر هنا حديث..

قال الشّارح وفّقه الله:

يبدو أن الفعل فعل أمر: واستحضر هنا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واستحضر هنا حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقول النبي ﷺ بحضوره: «هل منكم أحد أطعم اليوم مسكينًا؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «هل منكم أحد أصبح اليوم صائمًا؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «هل منكم أحد عاد اليوم مريضًا؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «هل منكم أحد تبع اليوم جنازة؟». قال أبو بكر: أنا ... الحديث.

قال الشارح وفقه الله:

صام وأطعم وعاد وتبع جنازة، كانت النتيجة أن قال النبي ﷺ: «**ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخل الجنة**»، همَّة عالية كان عليها الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لا يترك بابًا من أبواب الخير إلا جد واجتهد في الوصول إليه، ففاز بهذا الفضل، وفضل الله عز وجل واسع.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا الحديث روي من طريق عبد الغني بن أبي عقيل، قال: حدثنا يغنم بن سالم، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في جماعة من أصحابه فقال: «من صام اليوم؟». فقال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنا. قال: «من تصدق اليوم؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «من عاد اليوم مريضًا؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن شهد اليوم جنازة؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «وجبت لك». يعني: الجنة.

ويغنم بن سالم وإن تُكلِّم فيه لكن تابعه سلمة بن وردان.

قال الشارح وفقه الله:

على كل حال، لسنا بحاجة إلى هذا، الحديث في مسلم، يعني الرواية السابقة التي مرت معنا في مسلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وله أصلٌ صحيح من حديث مالك، عن محمد بن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله، هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة نودي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد نودي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان»، فقال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، ما على من يُدعى من هذه الأبواب ضرورة، هل يُدعى أحدٌ من هذه الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

هكذا رواه عن مالك موصولًا مسندًا: يحيى بن يحيى، ومعن بن عيسى، وعبد الله بن المبارك. ورواه يحيى بن بكير، وعبد الله بن يوسف، عن مالك عن ابن شهاب، عن حميد مرسلًا. وليس هو عند القعنبي مرسلًا ولا مسندًا.

قال الشّارح وفّقه الله:

على كل حال، هذا الحديث غريب يعني هو في الصحيحين، فليس من عادة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يخوض في هذه التفريعات في الأسانيد.

على كل حال، هذا الحديث يدل على أن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كانت همته همة عالية، ولذا فإنه يُدعى يوم القيامة..

هذا الحديث الذي معنا اشتمل على درجتين: درجة أهل الهمة العالية الذين وصلوا إلى الأفضل، أو أنهم نوّعوا في الطاعات وحرصوا على أن يكون لهم نصيب من كل عمل صالح، وهذا ما تاقت إليه نفس أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فأخبره النبي ﷺ أنه من أهل ذلك، فيُدعى يوم القيامة من أبواب الجنة جميعًا.

ودرجة دون ذلك أهلها على خير ولا بأس عليهم، وليس على من دُعِي أو من يُدعى من هذه الأبواب من ضرورة، يعني: لا نقص فيهم ولا إشكال عليهم، والله جل وعلا -كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، مِن الناس مَن فُتِح له في باب فلزمه وبورك له فيه، فالحمد لله هو

على خير، والكلام السابق ليس قدحًا في حال أهل هذه الرتبة، إنما كان حثًا على ما هو أفضل، لكن من أتى بالواجبات ولم يفرِّط في شيءٍ منها ثم إن نفسه حُبِّب إليها بابٌ من أبواب الخير النافلة فانشغل بذلك عن غيره فهو على خيرٍ إن شاء الله، وهذا ما يكون يوم القيامة حين يُدعى أهل الصلاة من باب الصلاة، وأهل الصيام من باب الريان، وأهل الصدقة من باب الصدقة، وهكذا.

وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى قوله ﷺ: «من أنفق زوجين» هذا فيه تنبيهٌ حسن.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى قوله: «من أنفق زوجين» يعني: شيئين من نوع واحد، نحو درهمين، أو دينارين، أو فرسين، أو قميصين، وكذلك من صلى ركعتين، أو مشى في سبيل الله تعالى خطوتين، أو صام يومين، ونحو ذلك، وإنما أراد -والله أعلم- أقل التكرار، وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البر، لأن الاثنين أقل الجمع.

قال الشارح وفقه الله:

كأن هذا هو المقصود -والله أعلم- الحث على المداومة، و«أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل».

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهذا كالغيث أين وقع نفع، صحب الله بلا خلق، وصحب الخلق بلا نفس، إذا كان مع الله عزل الخلائق مع البين وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه!

قال الشارح وفقه الله:

نسأل الله أن يجعلنا من أهل هذه الرتبة العظيمة.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن الناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة، وهم في تلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحِكَم والتعليل، الذين يردُّون الأمر إلى محض المشيئة، وصِرْف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سببًا لسعادة في معاشٍ ولا معاد، ولا سببًا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

قال الشّارح وفّقه الله:

فإنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن تكلم عن التفاضل بين الأعمال الصالحة عطف على هذا مسألة مهمة وهي: مسألةُ الحكمة والمنفعة في العبادة، وقد مر معنا غير مرة أنَّ الله جل وعلا خلق الخلق لحكمة، هذه الحكمة هي الحق الذي علَّق الله عز وجل خلْق كل شيء به، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾[النجم:٣١] هذه غايةٌ مرادةٌ بالعباد.

وأما الغاية المرادة من العباد فهي عبادتهم لله عز وجل وحده لا شريك له، ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦]، وهاتان الغايتان الغاية المرادة بالعباد والغاية المرادة من العباد هي الحق الذي خلق الله الخلق لأجله، ﴿**وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾[الجاثية:٢٢].

إذًا: هذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي دلت عليه دلائل الكتاب والسنة، لله عز وجل في هذا الخلق حكمة يُحبها ويريدها شرعًا ولأجلها خلق، وهي هذا الحق الذي يتضمن الغايتين: الغاية المرادة من العباد، والغاية المرادة بالعباد.

وهذه الحكمة تترتب عليها منفعة، هذه المنفعة تعود إلى العباد، والله جل وعلا لا ينتفع بطاعة الطائعين كما أنَّه لا تضره معصية العاصين، إنما هذه المنفعة وهذه الثمرة وهذه الفائدة تعود على العابدين، فإنَّ عبادة الله جل وعلا هي في نفسها غاية السعادة وغاية الصلاح وغاية النجاح للعباد.

فالعباد لا يصلحون ولا يزكون ولا يسعدون إلا بعبادة ربهم وخالقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فعاد نفع هذه العبادة إليهم لا إلى الله جل وعلا، ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾[فاطر:١٨].

إذًا: فائدة العبادة تعود إلى العباد لا إلى المعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي صلاحهم وزكاتهم، فالعباد يَزْكُون ويسعدون ويصلحون بالتألُّه للخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالسعادة مرتبطة بهذا التألُّه ارتباطًا وثيقًا، ولا يمكن أن يكون ثمة سعادة حقيقية في الدنيا والآخرة إلا بحصول هذه العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا هو الحق في هذه المسألة العظيمة التي افترق الناس فيها إلى أقوال، ذكر المؤلف منها أربعة أقوال:

قولٌ ذهب إليه نفاة الحكمة، ورأسهم الجهمية ومن تبعهم من الأشاعرة.

وقولٌ ذهب إليه القدرية من المعتزلة ومن لفَّ لفَّهم.

وقولٌ ذهبت إليه الفلاسفة ومن تبعهم من الصوفية.

ومذهب أهل السنة والجماعة الذي درج عليه السلف الصالح.

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسوق لنا في هذا الموضع هذه المذاهب الأربعة التي افترق إليها الناس في هذه المسألة العظيمة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصِرْف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق: لم يخلق لغاية ولا لعلة هي المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه، وليس في المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها، وليس في النار سببٌ للإحراق، ولا في الماء قوة الإغراق ولا التبريد. وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حسنه، ولا بالمنهي عنه صفة تقتضي قبحه.

ولهذا الأصل لوازم فاسدة، وفروع كثيرة.

قال الشّارح وفّقه الله:

هذا هو المذهب الأول في هذه المسألة، وهو مذهب الجهمية والأشاعرة، **ويتلخص في أمرين:**

الأمر الأول: أنَّ الله جل وعلا أمر بالعبادة لأنه هكذا شاء، وليس ثمة حكمة تعود إليه يحبها ويريدها شرعًا، إنما شاء أن يُعبد فأمر بالعبادة وليس شيءٌ وراء ذلك، وهذا -كما أسلفت- منافٍ للمذهب الحق الذي دلت عليه أدلةٌ كثيرة في الكتاب والسنة من أن الله جل وعلا خلق الخلق لحكمة يحبها ويريدها شرعًا جل وعلا.

الأمر الثاني: أنَّه لا مناسبة بين الطاعة والإثابة، ليس هناك معنىً يليق بالطاعة لأجله كانت الإثابة، إنما القضية أمارة محضة وعلامة محضة، بمعنى: ليس الثواب مُسبَّبًا عن الطاعة، ليست الطاعة سببًا للثواب، إنما القضية قضية اقتران، حصل الثواب عند الطاعة لا بالطاعة، فليس إثابة الله عز وجل للطائعين شيئًا ترتب على كونهم أطاعوا، إنَّما المسألة مسألة أمارة وعلامة، فيُعلم أن الله أثاب عند الطاعة، وبالتالي فلا يعدو الأمر أن يكون علامات وأمارات، ولو انقلب الأمر لكان هذا ممكنًا وجائزًا ولا فرق.

بمعنى: لو شاء الله جل وعلا لجعل الثواب عند المعصية، ولجعل الذي يقترن بالمعصية هو الإثابة والنعيم والجنة، فلا فرق بين هذا وهذا سوى أن الله شاء الأول ولم يشأ الثاني.

إذًا: الطاعات ليست أسبابًا لحصول الثواب، إنما هي أماراتٌ وعلامات فحسب.

والذي جرَّهم إلى هذا القول قولهم بثلاثة أصول، واعلم أنه لا يوجد قولٌ من أقوال أهل البدع إلا وله خلفيات وأصولٌ عقدية، وطالب العلم الذي يريد أن يتحقق بباب الاعتقاد ويفقهه كما ينبغي عليه أن يبحث عن الأصول والمرجعيات التي نشأت عنها الأقوال، وبهذا يضبط مسائل الاعتقاد ويحسن مناقشة الأقوال المخالفة.

هؤلاء رجعوا في هذا المذهب وارتكزوا في هذا المذهب على ثلاثة أصول:

الأصل الأول: نفيهم التعليل والحكمة في أفعال الله عز وجل، فعند القوم الله جل وعلا لا يفعل لحكمة ولا يخلق لحكمة ولا يأمر وينهى لحكمة ولا يُقَدِّرُ لحكمة، إنما هي مشيئةٌ محضة لا غير.

ولا شك أن هذا مذهبٌ باطل، وعشرات بل مئات بل آلاف الأدلة من الكتاب والسنة ولا يقال هذا على سبيل المبالغة، بل هذا هو الحق الذي لا شك فيه، كل ذلك يدل على أنَّ الله جل وعلا له حكمة بالغة، فلأجل هذه الحكمة يخلق، ولأجل هذه الحكمة يأمر، ولأجل هذه الحكمة يفعل جل وعلا.

فقولهم بنفي الحكمة والتعليل في أفعال الله عز وجل أثمر أنْ قالوا: إن الله جل وعلا إنما أمر بالطاعات وأمر بعبادته لمشيئة وليس هناك شيء وراء ذلك، ليس هناك حكمة تُطلب من وراء هذه العبادات.

وبالتالي فإنه لا أثر للحسنات في حصول الطاعات، وكل الأفعال بالنسبة إلى الله عز وجل سواء، فليس ثمة شيء يليق بحكمته ويليق بنعوت جلاله، وثمة أشياء لا تليق بذلك، وجوزوا على الله جل وعلا أن يُنَعِّم من عصاه، وأن يعذِّب من أطاعه، وأن يخلِّد في النار أحب الخلق إليه، وأن يخلد في الجنة ألدَّ أعدائه، ولا فرق بين هذا وبين كونه ينعِّم أولياءه ويعذب أعداءه إلا أنه شاء هذا ولم يشأ هذا، القضية مشيئة محضة.

ولا شك أنَّ في هذا نسبة الله عز وجل إلى ما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الثاني الذي إليه رجع قول هؤلاء: نفي تأثير الأسباب، فليس عند هؤلاء للأسباب تأثير، ليس للأسباب تأثير عند هؤلاء، فكون الشيء مرتبط بسبب يكون بوجوده وينعدم بعدمه هذا ليس شيئًا مقررًا عند هؤلاء، إنَّما القضية قضية علامات وأمارات عندها يحصل الشيء وليس به يحصل الشيء.

فالإحراق – مثلًا- يحصل عند وجود النار لا بوجود النار، والقطع يحصل عند مرور السكين وليس بمرور السكين.

وزعم القوم أنَّ إثبات تأثير الأسباب يعني مشاركة الله جل وعلا في التأثير في هذا الكون.

ولا شك أنَّ هذا أمرٌ باطل مخالفٌ لقواطع الشرع ولقواطع العقل أيضًا، فربط الأشياء بأسبابها قضية ثابتة في الشرع من أكثر من عشرة آلاف دليل كما قرر هذا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شفاء العليل.

كما أن هذا مخالفٌ للعقل، ولذا قال أهل العلم: تكلم قومٌ في نفي الأسباب فأضحكوا أهل العقول على عقولهم، حينما زعموا أن لا تأثير للأشياء وليس هناك شيءٌ مسبَّبٌ عن سبب، وإنما القضية قضية اقتران، قضية اجتماع، قضية أمارة، قضية علامة لا غير، لا شك أنَّ هذا باطلٌ مخالفٌ للعقل، بل الله جل وعلا لحكمته ربط الأشياء بأسبابها، فبسبب النار حصل الاحتراق، بسبب السكين حصل القطع، بسبب الأكل حصل الشّبع، بسبب الماء حصل الرِّي، وهكذا.

وإنما ينبغي التنبه إلى ما يكشف شبهة القوم في زعمهم أن هذا التأثير يقتضي حصول الشرك، فالحق -وهو الذي عليه أهل السنة- أنه لا يوجد سببٌ إلا ولابد أن يصحبه أسباب أخرى، يعني: لا يوجد سببٌ وحيد ينتج عنه حصول شيء، بل لابد أن تجتمع أسباب وأن تتعاون أسباب.

ولابد -ثانيًا- من حصول شروط لتأثير السبب في المسبَّب، ولابد -ثالثًا- من زوال المانع، فمع وجود المانع فإنه لا يحصل للسبب تأثير، وكل هذا -وهو الأمر الرابع- مرتبطٌ بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي لو شاء لأبطل أثر السبب ولجعله غير مؤثر، ولذا انظر مثلًا النار، النار وحدها ليست سببًا للاحتراق، بل لابد من سببٍ معاون، لابد من وجود شيءٍ في الهواء كالأكسجين مثلًا، ولابد من شرط

وهو أن يكون هذا الذي يحصل له الاحتراق لابد أن يكون قابلًا للاحتراق، فأما إذا لم يكن قابلًا للاحتراق فإنه لا يحصل الاحتراق.

الأمر الثالث: أنه لابد من زوال الموانع، فإذا وُجِد مانعٌ من حصول الاحتراق فإنه لا يحصل الاحتراق، ولذا إذا وُجِد الماء في هذا الشيء فإنه لا يحصل احتراق، وكل هذا مرتبط بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأجل هذا إذا شاء سبحانه أن لا يحصل أثرٌ لهذا السبب فإنه لا يحصل، ولأجل هذا لما أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار لم يحصل احتراق، لأن الله جل وعلا أبطل هاهنا تأثير السبب في المسبَّب، فكانت النار له بردًا وسلامًا.

إذًا: أهل السنة والجماعة حينما أثبتوا تأثير الأسباب أثبتوها على هذا النحو، ولو قال قائل: إن السبب وحده يستقل بحصول المؤثر، يستقل استقلال عن مشيئة الله عز وجل فإنَّ هذا لا شك أنه شركٌ بالله جل وعلا، ومعاذ الله أن يكون هذا قول أهل السنة والجماعة.

الخلاصة: أنه لما لم يكن عند القوم القول بتأثير الأسباب في مسبباتها نتج عن هذا أن قالوا: إن الأعمال الصالحة ليست سببًا لحصول الثواب، إنما هي مشيئة محضة، شاء الله أن ينعِّم المؤمن ولم يشأ أن ينعِّم الكافر، هذه القضية فحسب، وليس أنَّ العمل الصالح سببٌ لحصول الثواب من الله جل وعلا.

ولا شك أنَّ هذا باطلٌ مخالف لصرائح الكتاب والسنة، فالله جل وعلا لما أثاب أهل الجنة قال: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الأحقاف:١٤]، فالباء هاهنا تدل على أنَّ العمل الصالح كان سبب حصول الثواب.

الأمر الثالث: أنَّ هؤلاء جبرية يقولون بالجبر، والجبر: نفي القدرة والمشيئة للعبد، فليس للعبد مشيئة ولا له قدرة، ليس له قدرة وبالتالي فإنَّه مجبور، ليس بفاعلٍ بل هو مفعولٌ به كما سبق بيان هذا سابقًا.

وعلمنا أن الجبرية على درجتين: درجة غالية هم الجهمية، ودرجة متوسطة وهم الأشاعرة لقولهم بالكسب، فهم يقولون بالكسب الذي صَعُبَ فهمه حتى على كثير منهم، ولكن يُقرَّب معناه بأن يقال: إنه

وجود قدرة غير مؤثرة في حصول المقدور، فإذا حصل تأثير في حصول فعل فالقدرة مقارنة هنا وليست مؤثرة، فالعبد له قدرة ولكن لا تأثير لها في حصول المقدور، وهذا يدل على أن هذه القدرة وجودها كعدمها، فما الفائدة من وجود قدرة لا تؤثر في شيء.

وبالتالي فإن القوم لما كانوا جبرية ولما وقر في نفوسهم أن العبد لم يصدر منه فعلٌ اختياري نتج عن هذا أن قالوا: إن طاعاتهم ليس لها تأثيرٌ في حصول الثواب، إنما القضية مشيئة محضة.

إذًا: هذه الأصول الثلاثة نتج عنها قول هؤلاء الذين قالوا: إن الإثابة هي محض مشيئة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ دون تأثير للطاعات، كما أن الله جل وعلا أمر بالطاعة لمحض مشيئته لا لحكمة تعود إليه جل وعلا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حسنه، ولا بالمنهي عنه صفة تقتضي قبحه.

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة.

قال الشّارح وفّقه الله:

نعم، لأجل هذا نتجت أمور كثيرة انتقدوها، فهم جوَّزوا على الله عز وجل. يجوز عندهم عقلًا أن يثيب الله عز وجل في أعلى عليين فرعون وأبا لهب وأبا جهل، وليس هذا قبيحًا وليس هذا شيئًا مما يُنزَّه الله جل وعلا عنه، كما أنه يجوز عندهم عقلًا أن يُعذِّب الله عز وجل أحب خلقه إليه وأن يخلده في النار أبد الآبدين.

أما أهل السنة فيقولون: هذا الأمر مقدورٌ لله جل وعلا، فالله عز وجل قادرٌ على كل شيء، ومن هذا ما ذكروا، لكنه لا يمكن أن يكون؛ لأنَّ صفات الله جل وعلا تقتضي تنزيهه عن ذلك، فهذا ظلم، والله جل وعلا منزَّهٌ عن الظلم، «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا**».

القوم لأجل هذا الإشكال حرَّفوا معنى الظلم، الظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه، هذا الذي تعرفه العرب وهذا الذي يعرفه العقلاء، أما هم فالظلم عندهم هو التصرف في ملك الغير، هكذا أوَّلوا الظلم، وبعضهم أوَّله بأنه الممتنع لذاته، والممتنع لذاته ليس بشيء، وبالتالي فإنه خارجٌ عندهم عن قدرة الله تبارك وتعالى، أو أن يكون الظلم هو التصرف في مُلْك غيره، وكل شيء هو ملك الله تبارك وتعالى، وبالتالي فمهما فعل فإن هذا لا يُعد ظلمًا.

وهذا لا شك أنه باطل كما أسلفت، بل الظلم مقدورٌ لله تبارك وتعالى ولكنَّه حرمه على نفسه وتنزه عنه، ونعوت جلاله تقتضي عدمه، أن لا يكون منه ظلمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبالتالي فإن هذا القول يقتضي منهم عدم تعظيم الله عز وجل حق تعظيمه، وعدم إقداره حق قدره تبارك وتعالى، ولذا كم يقع في نفوسهم من ظن السوء بالله جل وعلا، في قرارة أنفسهم تموج الخواطر الرديئة في حق الله جل وعلا، وأنَّ حقيقة الحال أنه وقع عليهم ظلم من ربهم الذي خلقهم، ولم يعطهم مشيئة ولا قدرة، وإنما هو الذي فعل بهم ثم بعد ذلك يجازيهم وليس منهم شيء، فوقع في نفوسهم ما وقع من هذه الظنون الرديئة في حق ربهم وخالقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإن كانوا لا يلفظون بهذا، لكن ربما خرجت من فلتات ألسنتهم ما يدل على هذا الذي اعتقدوه، وهو لازمٌ لهم ولا شك.

أيضًا من لوازم قولهم: أنهم يزعمون استواء الأشياء في الحسن والقبح عقلًا، وإنما يُعرف الحسن والقُبح من جهة الشرع فحسب، وبالتالي فلا فرق بين الصدق والكذب من حيث هما، إنما الفرق أن الله أمر بالصدق وحرم الكذب، ولو انعكست القضية لجاز ذلك ولا فرق، فلو أمر الله عز وجل بالكذب ونهى عن الصدق لكان الأمر سائغًا.

ولو أن الله شرع السفاح وحرم النكاح لكان الأمر سائغًا عندهم، فليس في الأشياء حُسْنٌ وقُبْح تعرف هذه الأشياء به، ولا شك أن هذا في ذاته -أيضًا- باطل ومخالف لقواطع الشرع والعقل، بل العقل قد يحصل منه إدراكٌ لحسن الأشياء وقبحها، ودل على هذا من كتاب الله قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف:٢٨].

ومعنى الآية: قل إن الله لا يأمر بما تعلمون أنه فاحشة، وليس كما قالوا: قل إن الله لا يأمر بما ينهى عنه؛ لأن الفاحشة عندهم ليست إلا ما نهى عنه، وبالتالي فتكون الآية: قل إن الله لا يأمر بما ينهى عنه. وهذا لا فائدة من الإخبار به، إنَّما المقصود هو أن يعلم العباد أن الله يتنزه عن أن يأمر بشيءٍ قبيح مما يعلمون قبحه وهو أنهم يطوفون بالبيت عراة، قل إن الله لا يأمر بما كان هذا شأنه وبما كانت هذه حاله، فدل هذا على أنَّ العقل يستقل أو قد يستقل بمعرفة حسن الأشياء وقبحها، وإن كان الثواب والعقاب لا يكون بإيجاب من العقل أو بسبب معرفة وإدراك العقل، إنما ذلك موقوفٌ على الشرع فحسب، فالشرع

هو يوجب وهو الذي يحرم وهو الذي يكون من خلاله التكليف، أمَّا العقل فإنه يدرك فقط حسن الأشياء وقبحها في أمور كثيرة.

ونتج عن هذا -أيضًا- أنهم -كما يذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لا يجدون حلاوة العبادة ولذتها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها، ولهذا يُسمون الصلاة والصيام والزكاة والحج والتوحيد والإخلاص ونحو ذلك تكاليف، أي: كُلِّفُوا بها، ولو سمى مدعي محبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا لم يُعد محبًا له.

وأول من صدرت عنه هذه المقالة: الجعد بن درهم.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذه -أيضًا- من ثمرات هذا المذهب الذي ذهب إليه هؤلاء وهو أنهم فقدوا لذة الطاعة والعبادة ولم يكن منهم ثمرة لهذه الطاعة في التزكية وفي استشعار أنها سببٌ يُقَرِّب إلى الله جل وعلا، وبالتالي فإن الاجتهاد في هذه الطاعات يقرِّب أكثر إلى رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجنته، فالقضية ليست إلا أمارات وعلامات، ليست القضية إلا مشيئة محضة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبالتالي وقع عندهم ما وقع من هذا الضعف في الشوق إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وفي النشاط في طاعة الله جل وعلا.

ويقول المؤلف: (**ولهذا يُسمون الصلاة والصيام والزكاة -إلى آخره- تكاليف، أي: كُلِّفُوا بها**)، وكأن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أنه ليس من السائغ أن تُسمى العبادات تكاليف؛ لأن التكاليف إلزام ما فيه كُلْفة، يعني: مشقة، والذي يظهر -والله أعلم- أن هذا المذكور فيه نظر، وأن تسمية العبادات بالتكاليف لا بأس به، ففي صحيح مسلم لما نزل قول الله جل وعلا: ﴿**وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ**﴾[البقرة:٢٨٤] جاء أصحاب النبي ﷺ إليه وقالوا: كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصدقة والصيام، ولما نزل قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ**﴾[البقرة:٢٨٤] فهذا ما لا نطيق. فقال لهم النبي ﷺ: «**أتريدون أن تكونوا كما كان بنو إسرائيل: سمعنا عصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**»، فلما سمعوها ذلَّت بها ألسنتهم وقالوها، فأنزل الله جل وعلا بعد ذلك التخفيف فقال سبحانه: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[البقرة:٢٨٦] إلى آخر السياق.

الشاهد أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا: (كُلِّفنا) وأقرهم النبي ﷺ على ذلك.

والأصل في التكليف أنه من الكُلْفة، والكُلْفة في أصل اللغة: اللزوم، كون الشيء لازمًا للشيء، ولذا يقولون: فلانٌ كَلِفٌ بفلانة، يعني: لازم حبُّها قلبَه، هذا هو الأصل، فالأصل في التكليف أنه ملازمة، أن العبد ملزَم ومأمور ومطوَّقٌ بهذا العمل، عليه وجوبًا أن يقوم به، فهذا وجه تسمية ذلك تكليفًا. هذا أولًا.

وثانيًا: لا يُنكر أن في الأعمال الصالحة ما فيه مشقة، وهذا من الابتلاء والامتحان الذي جعله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في بعض الطاعات، فهل يُنكر أن في الجهاد شدة ومشقة، وأن في الحج شدة ومشقة؟ لا يمكن أن يُنكر هذا، وهذا النبي ﷺ يقول لعائشة رضي الله عنها لما أرشدها إلى الاعتمار قال: «**ولكنها على قدر نصبِك**» يعني: تعبِك. فدل هذا على أن من الأعمال الصالحة ما فيه مشقة، ولكنها مشقة هي قُرَّة عين المؤمنين، فأهل الإيمان يلتذُّون ويغتبطون بإتعاب أنفسهم في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ونيل مرضاته، فمثل هذا لا إشكال في إثباته في الطاعات، ولا يُسلَّم أن المَلِك إذا كان محبوبًا من رعيته فلا يُقال ما يؤمر به إنه تكليف، بل يقال إنه تكليف ويقال إنه إلزام، وإذا كانوا يحبونهم فإنهم يقومون بما ألزمهم وبما كلَّفهم وبما طوَّقهم، يقومون به وهم سعداء ومقبلون عليه.

فهذا الذي ذكره -والله أعلم- فيه نظر، فلا حرج من تسمية العبادات بالتكليف، أو يقال: الحكم التكليفي مثلًا، كل هذا لا حرج فيه إن شاء الله.

قال: (**وأول من صدرت عنه هذه المقالة: الجعد بن درهم**)، هذا الرجل أساس البلاء ومن أعظم الناس شرًا على هذه الأمة، رجل متقدم في الزمان، توفى -في بعض ما قالوا- في سنة أربع وعشرين ومائة للهجرة، يعني في زمن متقدم، في زمن التابعين، وهو أساس البلاء والشر في جوانب كثيرة مما دخل على المسلمين في باب الاعتقاد، سواء تعلَّق بباب توحيد المعرفة والإثبات أو في القدر أو في الإيمان أو في غير ذلك.

وهو الذي تلقى عنه الجهمُ بن صفوان الترمذي الذي كان شرًا وبلاءً على هذه الأمة، بل إني أعتقد أنه ما مر على تاريخ هذه الأمة إلى اليوم من أثَّر فيها من أهل البدع كما أثَّر هذا الرجل وهو الجهم بن صفوان الذي هو تلميذٌ لهذا الجعد، فالجعد هو أساس البلاء، والجهم هو الداعي إلى هذا البلاء في

الأمة، ليس هناك شخص أكثر شرًا وبدعًا وظلمات بثها في هذه الأمة كما فعل هذا الرجل الذي هو الجهم بن صفوان، وهو قريبٌ في وفاته من الجعد، قيل في سنة ثمان وعشرين ومائة، وقيل غير ذلك.

الشاهد أنَّ هذا المذهب لم يكن معروفًا عند أصحاب النبي ﷺ ولا عند التابعين ولا عند أتباع التابعين، ولا عند الأئمة المشاهير المتبوعين الذين لهم لسان صدقٍ في هذه الأمة، إنما انتحل هذا المذهب من انتحله من أهل البدع، ووافقهم عليه من قَلَّ نظره وضعفت بصيرته في معرفة الحق الذي كان عليه السلف الصالح، والله المستعان!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصنف الثاني: القدرية النفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة والتعليل لا يقوم بالرب ولا يرجع إليه، بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته، فعندهم: أن العبادات شُرِعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره. قالوا: ولهذا يجعلها سبحانه عوضا، كقوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل:٩٠]، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل:٣٢]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

وفي الصحيح: «إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها». قالوا: وقد سمَّاها جزاءً وأجرًا وثوابًا لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي: يرجع إليه.

قالوا: ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلُّق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا هو القول الثاني أو المذهب الثاني، وهو مذهب القدرية النُّفاة الذين هم المعتزلة ومن سار على دربهم، وقولهم مقابلٌ للمذهب السابق.

يتلخص مذهبهم في أمرين:

الأمر أولًا: أنَّهم يثبتون حكمةً للعبادة والتكليف لكنها لا تعود إلى الله جل وعلا، ليست حكمة مرادة ومحبوبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إنما هي حكمة تعود إلى العباد وتحقيق مصالحهم.

الأمر الثاني: أنهم يعتقدون أن الإثابة واجبة على الله جل وعلا وليست تفضلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إنما القضية معاوضة والقضية مثامنة، فالله جل وعلا أمر بالطاعة فعمل العبد وأطاع، فوجب على الله عز وجل أن يؤدي إليه الثواب كما يجب على المُؤَجِّر أن يؤدي الأجرة إلى الأجير، فليس ثمة تفضُّلٌ ولا مِنَّة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عبده.

ولذلك تجد الزمخشري المعتزلي في تفسيره -مثلًا- يأتي إلى نحو قول الله جل وعلا: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة:١٧]. يقول: لا بالتفضل كما تقول المبطلة، لا أن الله عز وجل يتفضل، لا، هذا حق واجب على الله عز وجل، وليس هناك مِنَّة ولا فضل من الله على العبد لا في اكتساب الحسنة أصلًا ولا في الإثابة عليها، هكذا زعم هؤلاء القوم.

وقولهم هذا يرتكز إلى أصلين عقديين عندهم:

الأول: أن القوم قائلون بالتحسين والتقبيح العقلي، فالعقل عندهم يستقل بمعرفة حسن الأشياء وقبحها، ويترتب على هذا الإيجاب والتحريم، فيكفي في ثبوت التكليف عندهم حصول العلم والإدراك، وهو حاصلٌ لكل عاقل عندهم.

ويترتب على هذا -أيضًا- أنهم أوجبوا على الله أشياء وحرموا على الله أشياء بموجب تحسينهم الذي زعموا، قاسوا الله جل وعلا على المخلوق، فكما يحصل من المخلوق أشياء ويجب عليه أشياء ويمتنع عليه أشياء كذلك يجب ويحسن ويمتنع على الله تبارك وتعالى، وهذا لا شك أنه من أعظم الظلم، وضعٌ للشيء في غير موضعه، كيف يُقاس ربنا العظيم الذي ليس كمثله شيء والذي لم يكن له كفوًا أحد والذي لا نعلم له سميًا، كيف يُقاس في المخلوق فيوجَب عليه ما يوجَب على المخلوق، ويمنع مما يُمنع منه المخلوق، وهكذا.. لا شك أن هذا من أعظم الضلال ومن أعظم الظلم.

الأمر الثاني: الذي رجعوا إليه في قولهم السالف في العبادة والإثابة: أن القوم قدرية، قائلون بأن العباد خالقون لأفعالهم، عند هؤلاء العبد هو الذي خلق فعل نفسه، فقُدرته مستقلة ومشيئته مستقلة -يعني عن الله جل وعلا- وبالتالي هو الذي أحدث فعل نفسه، وليس لله جل وعلا في مشيئته وقدرته وخلقه تأثيرٌ في هذا الفعل الذي صدر من العبد، وبالتالي فإذا كان ذلك كذلك فأيُّ تعلق لتفضُّلٍ من الله جل وعلا أو مِنَّة من الله جل وعلا في إثابة العبد على فعله، هو فعل فعلًا مستقلًا خلقه بنفسه، وبالتالي فيستحق الثواب على هذا الفعل الذي صدر منه.

ولا شك أنَّ هذا باطلٌ كما أسلفنا غير مرة، بل العبد يفعل بمشيئته وقدرته التابعة لمشيئة الله عز وجل وقدرته، فالله عز وجل هو الذي أعطى بقدرته قدرة العبد، وهو الذي جعل العبد شائيًا للأشياء، وهو الذي خلق كل شيء: العبدَ وصفاته وأفعاله، وهذا قائمٌ على أدلة كثيرة جدًا.

أوليس قد قام الدليل بأن أفعـ ـال العباد خليقة الرحمن

من ألف وجهٍ أو قريب الألف يحصيها الذي يعنى بهذا الشان

المقصود أنَّ هذين الأصلين العقديين عندهم أثمر أن قالوا بأن الله جل وعلا يثيب العباد وجوبًا لا تفضلًا، ولهذه العبادات حكمة ولكنها لا ترجع إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما ترجع إلى تحقيق مصالح العباد لا غير.

وأنت إذا تأملت في مذهب هؤلاء القدرية وقابلته بمذهب نفاة القدر القائلين بالجبر الذين هم الجبرية -أعني: الغلاة في إثبات القدر- وجدت أن هؤلاء أخذوا شيئًا من الحق وتركوا شيئًا، فحينما يستدل الجبرية على أنَّ الإثابة فضلٌ من الله جل وعلا بالأدلة المثبتة على هذا أصابوا، لكنهم حينما ينفون تأثير حسنات العباد في حصول الثواب من جهة التسبب أخطؤوا.

في مقابل هذا إذا استدل هؤلاء القدرية بأن الثواب ناتجٌ عن الحسنات ومسبَّبٌ عن الحسنات أصابوا، لكنهم حينما يقولون: إن الله جل وعلا يجب عليه وجوبًا من العباد أن يثيبهم، أو أن الثواب ليس راجعًا إلى فضل الله عز وجل أخطؤوا، وبالتالي فكل دليل صحيح يستدل به الجبرية على القدرية، وكل دليل صحيح يستدل به القدرية على الجبرية، فما صح من أدلة هؤلاء هو ردٌّ قوي على قول هؤلاء والعكس صحيح أيضًا.

ويبقى أن قول أهل السنة والجماعة هو القول الصواب الذي جمع الحق المحض، والذي سلَّمه الله عز وجل من خطأ هذين الفريقين، وهذا ما يشير إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام الآتي.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهاتان الطائفتان متقابلتان:

فالجبرية: لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء البتة، وجوَّزت أن يعذِّب الله من أفنى عمره في الطاعة، وينعِّم من أفنى عمره في مخالفته، وكلاهما سواءٌ بالنسبة إليه، والكل راجعٌ إلى محض المشيئة.

والقدرية: أوجبت عليه سبحانه رعاية المصالح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن، فجعلوا تفضله سبحانه على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، وأن إعطاء ما يعطيه أجرة على عمله، أحب إلى العبد من أن يعطيه فضلًا منه بلا عمل. ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البتة.

والطائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم، وهو: أن الأعمال أسبابٌ موصلة إلى الثواب، والأعمال الصالحات من توفيق الله تعالى وفضله، وليست قدرًا لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكرًا على أحد الأجزاء القليلة من نعمه سبحانه، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم.

قال الشّارح وفّقه الله:

لا شك أنَّ هذا هو المذهب الحق الذي مضى عليه أهل السنة والجماعة، **ويتلخص في أمرين:**

الأمر الأول: أنَّ الإثابة محضُ فضل الله عز وجل قطعية الثبوت.

الأمر الثاني: أنَّ الحسنات سبب حصول الإثابة، سبب حصول النعيم.

وبهذين تفهم خطأ كل فريقٍ من الفريقين السابقين.

أولًا: أنَّ الثواب محض فضل الله جل وعلا قطعي الثبوت، ويدل عليه ثلاثة أنواع من الأدلة:

أولًا: أن الله جل وعلا كتب على نفسه إثابة الطائعين، وأحق على نفسه جزاء المحسنين، ليس هذا الكتب وليس هذا الإحقاق من العبد على الله، كلا، فالله أعز من ذلك والعبد أحقر من ذلك، إنما هذا شيءٌ كتبه هو جل وعلا على نفسه وأحقه هو على نفسه، كما قال جل وعلا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤]، قال ﷺ: «**أتدري ما حق العباد على الله؟ أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**». فهذا شيءٌ كتبه على نفسه وأحقَّه على نفسه جل وعلا.

الأمر الثاني: أن الله جل وعلا وعد بإثابة المطيعين وبجزاء المحسنين في آيات كثيرة في كتاب الله جل وعلا وكذا في سنة النبي ﷺ، والله لا يخلف الميعاد، فتحقُّقُ موعوده أمرٌ قطعي؛ لأن هذا هو اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الثالث: أن الله جل وعلا أخبر عن نفسه أنه لا يظلم، ومن الظلم عدم إيفاء المحسنين ثوابهم، لأنه أوجبه على نفسه، فعدم حصول الثواب وضعٌ للشيء في غير موضعه، والله جل وعلا يقول: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾**[طه:١١٢]، فدل هذا على أن عدم الثواب ظلم يتنزه الله تبارك وتعالى عنه.

إذًا: هذه ثلاثة أدلة تدل على أن الإثابة محض فضل من الله جل وعلا، فهو الذي يمُنُّ بالعمل الصالح أولًا، **﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾**[النور:٢١]، **﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾**[الحجرات:٧]، فدل هذا على أن التوفيق للأعمال الصالحة فضلٌ من الله جل وعلا، هذا أولًا، وثانيًا: أثاب تفضلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾**[الأحزاب:٤٧].

إذًا: القضية قضية تفضُّل وليست القضية قضية مثامنة وقضية معاوضة.

الأمر الثاني: أنَّ الحسنات هي سبب حصول هذا الثواب، **﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[الأحقاف:١٤]، **﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[السجدة:١٩]، فتجد في أدلة كثيرة الله جل وعلا يربط بين الحسنة وبين حصول الثواب، ولا يمكن بحال أن تُكذَّب أو تُؤوَّل هذه النصوص الصريحة.

إذًا: هذان الأمران يجمعان الحق في هذه المسألة، فليست الحسنات عوضًا ومثامنة لأعمال العباد، بل لا يمكن لعاقلٍ أن يكون قائلًا بهذا القول، سبحان الله العظيم! كيف يكون الثواب وكيف تكون الجنة ثوابًا على أعمال العباد والله عز وجل هو الذي وفَّق العبد، وهو الذي أعطاه القدرة، وهو الذي رزقه

المشيئة، وهو الذي خلق فعله ثم يكون واجبًا عليه وجوبًا لا مِنَّة أن يثيب؟! كيف يكون ذلك وحسنات العباد مهما اجتهد فيها الإنسان فالتقصير لازمٌ فيها.

كيف يكون ذلك وحسنات العباد مقابلة بسيئات أضعافها بدرجات كثيرة؟ كيف يكون ذلك وحسنات العباد جميعًا لا تفي بعشر معشار شكر نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ وقد ثبت في الشرع والعقل أنَّ شكر المنعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واجبٌ على العباد، وشُكر الله على النعم إنما يكون بطاعته، قال ﷺ: «**يُصبح على كل سلامى من الناس صدقة**»، (سلامى) ما معناها؟ مفاصل، ثلاثمائة وستون مفصلًا في العبد، عليه مقابل كل مفصل حتى يؤدي نعمة كل مفصل أن يؤدي صدقة.

إذًا: الطاعات هي شُكْر هذه النعم، إذا كانت ثلاثمائة وستون نعمة فقط في المفصل فكيف بغيرها؟ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تأمل في نعمة النَّفَس فقط، ولله على العبد في كل يوم وليلة أربعة وعشرون ألف نعمة، تتنفس أربع وعشرين ألف مرة خلال اليوم والليلة، إذًا عليك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تؤدي هذا الشكر له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰوربما كان الأمر أكثر من هذا بكثير، فكيف بنعمة الصحة والنظر وهذا الأمن وهذه الخيرات والماء والطعام.. إلى آخره، ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا**﴾[إبراهيم:٣٤].

فمن تأمل هذا علم أن قول النبي ﷺ حق، وأنه لو عذَّب أهل السماوات والأرض ما كان ظالمًا لهم، لكن رحمته جل وعلا أوسع لهم من أعمالهم، القضية لو كانت مساومة ومثامنة فإن نعمة واحدة كل أعمال العباد ولو عُمِّروا مئات السنوات لا يمكن أن توفِّي حق وشكر نعمة واحدة لله جل وعلا.

إذًا: هؤلاء المعتزلة أخطؤوا خطًا عظيمًا حينما قالوا هذا القول، كما أن أولئك الذين نفوا أن يكون للحسنات تأثيرًا في حصول الثواب قد عارضوا أدلة كثيرة لا يمكن أن يجحدها الإنسان في الكتاب والسنة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف:٧٢] مع قوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنة بالأعمال، ولا تنافي بينهما، لأن توارد النفي والإثبات ليس على محل واحد.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

التنافي، التعارض، التناقض إنما يحصل إذا توارد النفي والإثبات على محلٍّ واحد، لكن هنا ليس ثمة تعارض بين قول الله جل وعلا: ﴿**أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[الزخرف:٧٢] وبين قوله ﷺ: «**لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله**»، فالمنفي شيء والمثبَت شيءٌ آخر، إنما لو كان المنفي والمثبَت شيءٌ واحد فهذا من التنافي الذي هو ممتنع.

يعني لو قلت: وسامٌ شاعر ووسام ليس بشاعر، كلامي متناقض وإلا لا؟ متناقض، لأنني أثبت ونفيت في محلٍ واحد، لكن لو قلت: وسامٌ شاعر وليس طبيبًا، هل أنا الآن متناقض؟ لا، لم؟ لأن الإثبات تعلق بشيء ولأن النفي تعلق بشيءٍ آخر.

كذلك هنا الذي أثبته الله عز وجل هو أنَّ الأعمال الصالحة سببٌ في دخول الجنة، وليس أنها عوضٌ وثمنٌ لدخول الجنة، وبين الأمرين فرق، قال جل وعلا: ﴿**أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[الزخرف:٧٢] يعني: هي مجرد سبب، والسبب لا يستقل بحصول المسبَّب كما قد علمنا سابقًا.

أما قوله ﷺ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» هذا ينفي أن تكون الأعمال ثمنًا لدخول الجنة، هذا لا يمكن أن يكون كما أسلفنا حتى النبي ﷺ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**».

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالمنفي باء الثمنية واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

أين هذا النفي؟ «**لن يدخل أحدكم منكم الجنة بعمله**».

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ردًا على القدرية المجوسية التي زعمت أن الفضل بالثواب ابتداءً متضمن لتكدير المِنَّة.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يقولون: لو كانت القضية قضية تفضُّل لكانت هذه مِنَّة الله على العبد، والمِنَّة تكدر المعروف.

سبحان الله! أيُّ جرأة هذه؟ مِنَّة الله تكدر المعروف؟ هذا لا يقوله عاقل.

أقول: يا إخواني، إن قول هؤلاء: إن المِنَّة تكدِّر النعمة، لا شك أنه ناتجٌ عن قياسهم أفعال الله عز وجل على أفعال الخلق، فالإنسان إذا كان له مقابل يساويه فامتنَّ عليه بفعلٍ أسداه إليه حصل نقصٌ على هذا الممنون عليه.

أما في المخلوق نفسه لو كانت المِنَّة من شخصٍ أرفع فإنه لا نقص على الممنون عليه، أرأيت مِنَّة الأب على ابنه، أو مِنَّة السيد على عبده، فكيف بِمنَّة الله العظيم الذي هو الإله المعبود المحبوب العظيم الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ بل أعظم السعادة والاغتباط في مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عبده، ألم تسمع إلى قول الله جل وعلا: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ**﴾[الحجرات:١٧]، فمِنَّة الله عز وجل على عباده ليس فيها نقيصة على العبد، بل فيها سعادة واغتباطٌ من العباد لربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببية.

قال الشارح وفقه الله:

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأحقاف:١٤]، ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف:٧٢].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ردًا على القدرية الجبرية الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسبابٌ لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة.

والسنة النبوية هي: أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها.

وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعًا من الحق فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا، فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

قال الشارح وفّقه الله:

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها، وخروج قواها من قوى النفس السَّبُعِية والبهيمية، فلو عُطِّلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم، فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول، فتصير قابلة لانتقاش صور المعارف فيها.

وهذا يقوله طائفتان:

إحداهما: مَن يقرب إلى الإسلام والشرائع، من الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم الفاعل المختار.

ꕤꕤ◈ꕤꕤ

قال الشّارح وفّقه الله:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما مضى أن الناس مفترقون في حقيقة العبادة وحكمتها إلى أربعة أصناف، وذكر هاهنا الصنف الثالث، وأصحاب هذا الصنف هم الفلاسفة.

الفلاسفة العبادات عندهم هي من قبيل الأخلاق، ولاحظ أننا نتحدث عن الفلاسفة المؤلِّهة، وقد مضى الكلام عن الفلاسفة وأقسامهم، والحديث هاهنا يتعلق بالفلاسفة المؤلِّهة.

هؤلاء العبادات عندهم هي من قبيل الأخلاق، بمعنى أنها ليست مقصودة لذاتها، إنما هي مقصودة لغيرها، أي: أن الغاية منها تهذيب الأخلاق ووصولها إلى مرحلة الاستعداد لنيل العلم الذي يفيض عليها من العقل الفعَّال أو من النفوس الناطقة على ما يقررون.

وحقيقة الحال عندهم على وجه التفصيل أنَّ الواجب على الإنسان أن يصل إلى الكمال الإنساني، والإنسان له قوتان: قوة عملية، وقوة علمية.

أما قوته العملية فتتلخص في أمرين، كل قوته العملية تتلخص في **أمرين**:

في الشهوة.

والغضب.

وكمال الشهوة: أن يصل إلى العفة، وكمال الغضب أن يصل إلى الشجاعة، ويجب عليه أن يتوسط فيهما بين طرفي الإفراط والتفريط، وهذا هو العدل، فصارت الكمالات الإنسانية تعود إلى العفة والشجاعة والعدل.

فإذا وصل إلى هذه الأمور الثلاثة بلغ الكمال العلمي، فالقوة العلمية عندهم هي قوة النظر والتفكر وكمالها بالعلم، فإذا جمع الأمور الثلاثة -وهي العفة والشجاعة والعدل- نال العلم، أصبح مستعدًا للوصول إلى العلم، هذه الأمور الأربعة هي الكمال الإنساني، ولا يكون الإنسان كاملًا إلا بها، والغاية المقصودة: الوصول إلى الأمر الرابع وهو العلم، لكن ما هو هذا العلم؟

العلم عندهم هو العلم بالوجود المطلق، فإن الصانع أو إن الفاعل أو إن الرب عندهم هو وجودٌ مطلق لا وجود له في الحقيقة، وجودٌ مطلق ما هو إلا وجودٌ في الأذهان، فهو وجودٌ مطلق بشرط الإطلاق عندهم.

أو - هذا قول بعضهم- هو العلم بكل الواجبات بنفسها من الرب أو العقل الأول أو العقول التي بعده إلى العقل العاشر وهو العقل الفعَّال، أو النفوس الناطقة التي فاضت عن العقل الفعَّال، العلم يدور على هذه الأمور فحسب، ومن قرب منهم إلى الإسلام عبَّر عن هذا بأنه العلم بواجب الوجود، وواجب الوجود عندهم ليس إلا وجودًا مُطْلَقًا في الذهن هو عالٍ عن كل صفة، أما الله العظيم، الله القيوم القائم بنفسه والمقيم لغيره، الغني بنفسه والذي يفتقر إليه كل ما سواه، الخالق، الفاعل، العالي على خلقه، المستوي على عرشه، الذي يتكلم، والذي يحب عباده ويحبه عباده، والذي يفعل بمشيئته وقدرته النافذة، فهذا الرب ما عرفوه ولا أرادوا العلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والحقُ أنَّ الذي ذكروه ليس من الكمال الإنساني في شيء، هو كمالٌ نسبي لكنه ليس مقصودًا لذاته، فالكمال الذي نشدوه لا يعدو أن يكون كمالًا للأبدان، ولا يترتب عليه سعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة، إنما الكمال الحق الذي يترتب عليه سعادة المرء في الدنيا والآخرة هو في كماله في القوة العلمية والقوة

العملية، وغاية ذلك أن يعرف ربه وإلهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثم أن يعبده، فيبذل له غاية الحب مع غاية الخضوع بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

هذا هو الكمال الحق، وهذا هو الغاية التي يجب أن يسعى إليها الإنسان، وبها ينال غاية وحكمة العبادة، فيسعد في الدنيا ويسعد في الآخرة.

على كل حال، هذا الذي ذكروه تخرصات وهذيانات عقلية ما استضاؤوا فيها بالعلم الذي جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن ربهم جل وعلا، إنما هي عقولهم المريضة التي أعرضت عن وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فأتت بهذه التخرصات التي لا تعود على أهلها لا بزكاة نفس ولا بسعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال: (**وهذا يقوله طائفتان:**

إحداهما: مَن يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة)، وهذا الذي يُطلق عليه عند أهل العلم بالفلاسفة المُؤَلِّهة، ليس المقصود أنهم موحدون أو يعبدون الله عز وجل حقًا، إنما المقصود أنهم يؤمنون بوجود موجدٍ أول لهذا الكون، لكنه عندهم لا يتصف بشيء ولم يفعل شيئًا، إنما هو بسيط وعاقل ومعقول وتفيض عنه الأشياء دون أن يصدر منه فعل، فعَنْه فاض العقل الأول وهو قديم قِدَمه، مثله، وبالتالي فهم يعتقدون أن هذا الكون قديم قِدَم الموجد الأول.

ثم إن هذا الوجود لا يترتب بعده شيء عند بعضهم، ومن أثبت منهم معادًا أثبت معادًا روحانيًا لا جسمانيًا، فثمة معاد ينعم به من كان مؤمنًا بهذا الوجود المطلق، لكنه نعيمٌ روحاني فقط، للأرواح لا للأجسام.

ولا شك أنَّ هذا من أبطل الباطل ومن أفرى الفرى، ومن أكفر الكفر، بل المعاد الذي أخبر الله عز وجل به وبلَّغ الخبر عنه أنبياء الله ورسله هو معادٌ للأرواح والأجساد معًا، وأنه نعيمٌ حقيقي تناله النفوس وتناله الأجساد، وكذلك العقاب والعذاب.

ولأجل هذا فهؤلاء الفلاسفة ليسوا من الدين الحق في شيء، بل هم كفارٌ بالله جل وعلا.

بثلاثـــة كفـــر الفلاســـفة العـــدا إذ أنكروهـــا وهـــي حـــقٌّ مثبَتـــة

علـــمٌ بجزئـــيٍ حـــدوث عـــوالم حشـــرٌ لأجســـادٍ وكانـــت ميتـــة

الله جل وعلا لا يعلم عندهم إلا علمًا كليًا، يعلـم الأشياء علمًـا كليًا لا أنـه يعلـم الأشياء على وجه التفصيل، وعندهم أن هذا العالم أصله قديم، ليس أنه محدَث أحدثه الله وخلقه بعد أن لم يكن، وعندهم أن لا حشر للأجساد ولا نعيم ولا عذاب ينالها، إنما ذلك متعلِّقٌ بالأرواح فقط.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والطائفة الثانية: من تفلسف من صوفية الإسلام وتقرَّب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس للمعارف العقلية ومخالفة العوائد.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

مجرد رياضات نفسية وعقلية هدفها أن تفيض عليها أنواع العلوم، أو أن تنال النفوس الكشوف، وهذا كله إرثٌ من إرث هؤلاء الفلاسفة، يرتاض الإنسان فقط نفسه ويذهب أخلاقه حتى تفيض العلوم عليه فيضًا، ليس هناك شيءٌ وراء ذلك.

أو أن تُكشف له فيُحدَّث عن ربه مباشرة، وبذلك يستغني عن الأنبياء ويستغني عما جاء به النبي ﷺ وما جاء به الأنبياء قبله بالنسبة لأممهم، ولا شك أن هذا كله ليس من الإسلام في شيء، بل هي حقيقة الفلسفة والحكمة المطلوبة عندهم كما يزعمون عند هؤلاء الذين يُسمون الحكماء، وليس هذا من الإسلام في شيء وإن لبس أو ألبس هذا بعضهم لباس الإسلام.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا بهذا المعنى، فإذا حصل لها ذلك بقى متحيرًا في حفظ أوراده أو الاشتغال بالوارد منها.

ومنهم: من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها، وهما صنفان -أيضًا-:

أحدهما: من يقول بوجوبها حفظًا للقانون، وضبطًا للناموس.

والآخرون: يوجبونها حفظًا للوارد، وخوفا من تدرج النفس بمفارقتها إلى حالتها الأولى من البهيمية.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يقول: (**من هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا بهذا المعنى، فإذا حصل لها ذلك بقى متحيراً في حفظ أوراده**) الذي قصد الوصول إليه عنها، في الأصل -يعني: في المدارج-: بقي مخيَّرًا في حفظه أو ردِّه أو الاشتغال بالوارد عنها.

على كل حال، الأمر في ذلك سهل.

والمقصود بذلك: أنَّ المطلوب منك أن تعبد، فتهذب أخلاقك حتى تصل إلى هذا الشيء الذي تريد نيله وهو أن تفيض عليك العلوم أو أن يحصل لك الكشف، وبالتالي تصل إلى مرحلة اليقين، وبعد ذلك هل تستمر في العبادة أو ترتفع عنك التكاليف لأنك قد وصلت إلى الغاية؟ هم هاهنا متحيرون، فمنهم من يقول: يكفي ولا حاجة بعد ذلك إلى أن تعبد الله؛ لأن العبادة لم يُرَد بها إلا الوصول إلى هذه المرحلة، ويزعمون أن هذا تفسير قول الله جل وعلا: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩]، وبالتالي إذا وصلت إلى اليقين وصلت إلى الغاية، فلا حاجة إلى العبادة.

ولا شك أنَّ هذا تحريفٌ عظيم لكتاب الله جل وعلا، والقول به كفرٌ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل اليقين بإجماع المفسرين هاهنا هو الموت.

إذًا: لا غاية يقف عندها الإنسان في عبادة الله جل وعلا إلا أن يفارق هذه الحياة، إلا أن يصل إلى حد مفارقة روحه جسده.

وبالتالي لا غنى للعبد عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن زعم أو ظن أو اعتقد أنه يسعه أن لا يعبد الله جل وعلا ولا يتبع النبي ﷺ وأنَّ التكاليف قد رُفِعت عنه فلا شك أنه من جنس فرعون وأبي لهب وأبي جهل، وليس من الإسلام في شيء.

وبعضهم يقول: بل على الإنسان أن يستمر في العبادة وإن كان قد حصَّل الغاية منها، إما حفظًا للقانون وضبطًا للناموس، الناموس هو بمعنى القانون، وفي الأصل عند ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وضبطًا للنفوس، والمعنى قريب.

المقصود أنه ينبغي أن يطرد القاعدة، بما أنه كانت القاعدة أن يعبد فعليه أن يستمر على ذلك وإن كان نتيجة ذلك تحصيل حاصل، فأنت وصلت إلى الغاية ومع ذلك استمِر عليها فهو أضبط.

أو استمر على ذلك خشيةً من أن يحصل لك تراجع، قال: (**خوفًا من تدرُّج النفس بمفارقتها**) يعني: مفارقة العبادة (**إلى حالتها الأولى من البهيمية**)، وعلى كل حال هذا كله هذيانات بعيدة عن نور الوحي الذي أنزله الله على عبده ورسوله نبينا محمد ﷺ، فلم يزل نبينا ﷺ عابدًا لله متألهًا له إلى أن التحق بالرفيق الأعلى ﷺ، وهكذا أصحابه من بعده الذين هم أكمل الناس إيمانًا، والذين لا كان ولا يكون بعدهم مثلهم، ومع ذلك ما أحد منهم فاه بهذا الباطل الذي تفوَّه به هؤلاء، بل كلهم يعتقدون أنهم عبيدٌ خاضعون ملزَمون بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والغاية التي يرومون الوصول لها: الوصول إلى أن يحبهم الله جل وعلا وأن يرضى عنهم وأن يثيبهم على ذلك بجنته ونعيمه. هذا الذي عليه أهل الإسلام، وما سواه فأقوالٌ خارجة عن هذا الدين العظيم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهذه نهاية أقدامهم في حكمة العبادة وما شُرِعت لأجله.

ولا تكاد تجد في كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاث، أو مجموعها.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

الله المستعان! نعم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصنف الرابع: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر، والقدر والسبب، فعندهم أن سر العبادة وغايتها مبني على معرفة حقيقة الإلهية، ومعنى كونه سبحانه إلهًا، وأن العبادة مُوجَب الإلهية وأثرها ومقتضاها، وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والإعطاء بالجود.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا هو القول الحق الذي عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم، وهو الذي عليه المسلمون قاطبة، وهو أن غاية العبد أن يعبد الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ، فهذا الذي لأجله خلق الله الخلق، فالله جل جلاله هو الإله الذي يجب أن تألهه النفس، فالارتباط بين كونه إلهًا وكونه معبودًا من العبد هذا ارتباطٌ وثيق، ارتباطٌ متحتم، ارتباط متحقق، فلابد أن يكون العبد عبدًا لله عز وجل متألهًا له سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقد علمنا فيما مضى أن الإنسان عبدٌ ولابد، لا ينفك من العبودية بحال، فإما أن يكون عبدًا لله أو يكون عبدًا لغيره، أما أن لا يكون عبدًا البتة فهذا أمرٌ مستحيل، لأنه مخالفٌ للجِبلَّة التي خُلِق عليها، فهو مخلوقٌ فقير، فقيرٌ بالذات، الفقر وصْفٌ ملازم له، هو مفتقرٌ إلى ربٍّ يعتمد عليه ويعتقد فيه النفع والضر، ومفتقرٌ إلى إله يتأله له ويسكن إليه ويطمئن به ويحبه ويخافه ويرجوه، هو محتاجٌ إلى هذا ومفتقرٌ إليه فقرًا اضطراريًا لا اختياريًا، فإما أن يُوفَّق إلى الحق والصواب فيكون عبدًا لله جل وعلا، أو أن يُضل -عياذًا بالله- فيكون عبدًا لغيره ثم بعد ذلك يموج في بحار الضلال، قد يكون عبدًا لجن، وقد يكون عبدًا لإنس، وقد يكون عبدًا لمَلك، قد يكون عبدًا لحجر، قد يكون عبدًا لشجر، قد يكون عبدًا لثوبه، قال النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة**»، إلى هذا الدَّرك قد يصل الإنسان -والعياذ بالله-.

وأنت ترى اليوم أمام عينك في الصور أو ربما ترى ذلك مباشرة من يعبد بقرة، من يعتقد في هذه البقرة أنها ربُّه وأنها إلهه، انظر إلى هذا المستوى السافل من التفكير والعقل الذي وصل إليه هؤلاء يدلُّك على أن قضية العبودية قضية لازمة للنفس البشرية ولابد.

إذًا: أهل الإسلام يعتقدون أن الغاية من وجود الخلق: عبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا وصل الإنسان إليها وصل إلى الزكاة، ووصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وارتباطها كارتباط مُتَعَلَّق الصفات بالصفات**) وهذا ارتباطٌ وثيق، ليس هو ارتباطًا ضعيفًا، بل هو ارتباط وثيق، (**كارتباط الأصوات بالسمع**) فالسمع يرتبط به الصوت، والصوت متعلقٌ بالسمع، فكل صفةٍ متعلقة بأثرها، كذلك الإلهية التي هي وصْفه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتعلق بها أثرها وهو عبادة المخلوقات لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فعندهم: من قام بمعرفتها على النحو الذي فسرناها به لغة وشرعًا ومصدرًا وموردًا استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها به، وعلم أنَّها هي الغاية التي خُلِقت لها العباد، ولها أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، وخُلِقت الجنة والنار. وقد صرح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فالعبادة هي التي وجدت لأجلها الخلائق كلها، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة:٣٦] أي: مهملًا. قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. وهما تفسيران صحيحان، فإن الثواب والعقاب مترتبٌ على الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها.

قال الشَّارح وفّقه الله:

سبق معنا الكلام في هذا الموضوع وتكرر في هذه الرسالة في غير موضع: أن الخلق خُلِقوا لغاية هي الحق الذي لأجله خلق الله كل شيء، وهذه الغاية ترجع إلى غايةٍ مرادة من العباد وغاية مرادة بهم، الغاية المُرادة من العباد: عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، والغاية المرادة بهم: الثواب والعقاب، وهذا هو الذي يتحصل للناظر في كلام أهل العلم في هذا الموضوع.

ولذلك انظر ما قال المفسرون أو ما نقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا -أعني: في قول الله جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة:٣٦]- قيل: لا يؤمر ولا يُنهى. وقيل: لا يُثاب ولا يعاقب. وكلاهما حق، وكلاهما يجمعان الغاية من الخلق، فالأمر والنهي نتيجته طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه هي الغاية المُرادة من العباد. والثواب والعقاب جزاء هذه العبادة، وهذه هي الغاية المرادة بالعباد.

قال: (وهما تفسيران صحيحان، فإن الثواب والعقاب مترتبٌ على الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها).

العبادة كلها مطلوبة بالأمر والنهي، وعليه؛ فالعبادة تنقسم إلى قسمين: فعلٍ للمأمور واجتنابٍ للمنهي، كل العبادة **تتلخص في هذين الأمرين:**

فعلٌ للمأمور، سواء أكان الأمر أمرًا جازمًا وهو الواجب، فالواجبات حقيقة العبادات، هي العبادات.

أو أن يكون الأمر غير جازم، وهذه هي المستحبات، فالمستحبات هي -أيضًا- من العبادات.

إذًا: عادت العبادات إلى أنها فِعْلٌ للواجبات والمستحبات، أو -وهو القسم الثاني- الكفُّ عن المنهيات، سواء كان هذا النهي جازمًا وذلك هو المحرمات، أو كان النهي غير جازم وذلك هو المكروهات، فعادت العبادة إلى الجمع بين **الأمرين**: إلى فعلٍ للواجب والمستحب، وإلى كفٍّ عن المحرم والمكروه.

الكفُّ حتى يكون عبادة لابد أن يكون احتسابًا، والاحتساب يجمع **أمرين**:

قصدٌ ونيةٌ، وإخلاص، إذا تكلم العلماء قالوا: إن ترك المنهي أو اجتناب المنهي أو الكف عن المنهي عبادة فإن مرادهم بذلك أن يكون هذا الكفُّ احتسابًا، ومعنى كونه احتسابًا: لابد أن يكون عن قصد ونية، أما إذا ترك الإنسان المنهيَّ ذهولًا عن الشيء فهذا ليس في حقه عبادة يُثاب عليها، بل لابد أن يكون منه قصد وإرادة ونية وعزم، إلى غير ذلك.

الأمر الثاني: لابد أن يكون هذا الترك لله، أما لو ترك لأجل الناس أو خوفًا على صحته -مثلًا- فإن هذا ليس من العبادة وليس مثابًا على ذلك.

الخلاصة: أن العبادة تتلخص في أنها فِعْلٌ وترك، فِعْلٌ للواجبات والمستحبات، وهو ما عبَّرنا عنه بالمأمور أمرًا جازمًا والمأمور أمرًا غير جازم.

والقسم الثاني: الترك، والمراد: ترك المحرمات والمكروهات بشرط أن يكون ذلك احتسابًا.

قال: (**وحقيقة العبادة امتثالهما**) هذا الذي لخَّصه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا الذي شرحته لك، حقيقة العبادة امتثالهما، امتثال الأمر والنهي، على التفصيل الذي ذكرته لك.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحقيقة العبادة: امتثالهما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾[آل عمران:١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الحجر:٨٥]، ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الجاثية:٢٢].

قال الشَّارح وفَّقه الله:

إذًا: هذا الذي ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآيات الثلاث يعود إلى ما قدَّم به قبل قليل وهو أن الخلق إنما كان لحكمة ولغاية ولعلة يريدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إرادة شرعية ويحبها جل وعلا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأخبر الله تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا أمره ونهيه الغاية المُرادة من العباد.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وثوابه وعقابه.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذه الغاية المُرادة بالعباد.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا كانت السماوات والأرض إنما خُلِقت لهذا وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة، أو إن ذلك لمجرد استئجار العُمَّال حتى لا يتكدر عليهم الثواب بالمِنَّة.

قال الشارح وفّقه الله:

كما هو قول القدرية الذي سبق بيانه.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضًا لمخالفة العوائد؟!.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

كما يقوله الفلاسفة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي؛ علم أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده تعالى بالمحبة، فلا يُحب معه سواه، وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته، لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحبه.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

إذًا: أصل العبادة ومنشؤها ولُبُّها وأعظم درجاتها: محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل هذا القَدْر ليس كافيًا، بل لابد أن تكون هذه المحبة خالصة له جل وعلا لا يشركه فيها غيره، وأن يكون هو سبحانه ونبيه ﷺ أحب إليه مما سواهما، وبالتالي فإنَّ كل محبة سوى هذه المحبة فإنها لابد أن تكون منضبطة بقانون الشرع، فعادت المحبة السائغة والتي هي لا تدخل في الممنوع إلى محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا أولًا.

وثانيًا: المحبة في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كمحبة النبي ﷺ ومحبة الصالحين، والمحبة –وهذا الثالث– بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعني: المحبة التي أجازها وأباحها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كمحبة الطعام، محبة الشراب، محبة الأولاد، محبة الزوجة، إلى غير ذلك.

إذًا أعود فأقول: المحبة تنقسم إلى قسمين:

محبة جائزة أو مشروعة.

ومحبة ممنوعة.

المحبة المشروعة **ثلاث درجات:**

أعظمها محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه المحبة هي المقصودة لذاتها، وليس شيءٌ يُحَبُّ لذاته إلا لله جل وعلا، لا يجوز أن يكون ثمة محبوبٌ لذاته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكل شيء فهو راجعٌ إلى هذه المحبة.

الأمر الثاني: المحبة في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه هي المحبة التي أمر بها جل وعلا، وهي مقصودةٌ لغيرها، ترجع هذه المحبة إلى محبة الله جل وعلا، فكل ما أمر الله عز وجل بمحبته فغايته ترجع إلى محبته هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذ لم تُحَب هذه المحبوبات إلا فيه ولأجله جل وعلا.

الأمر الثالث: محبةٌ أذن بها الله جل وعلا، أباحها الله جل وعلا، رخص فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لحكمته ولرحمته بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه المحاب التي أباحها جل وعلا محبة الطعام والشراب والأصدقاء والولد ونحو ذلك.

إذًا: هذه هي المحبة المشروعة أو المحبة الجائزة، وأما النوع الثاني فالمحبة الممنوعة، والمحبة الممنوعة هي كل ما سوى هذه الأنواع الثلاثة، وهذه يتفاوت الحكم فيها بين أن تكون شركًا أو أن تكون معصية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر والنهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل سبحانه اتباع رسوله ﷺ علمًا عليها وشاهدًا لها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران:٣١]، فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم الله تعالى وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع.

❧❧◊☙☙

قال الشَّارح وفَّقه الله:

يذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا كانت المحبة هي حقيقة العبودية فإن علامة ذلك ودليله وبرهانه اتباع أمر الله ورسوله ﷺ، هاهنا تتبين المحبة، وهذا ما يعرفه العقلاء جميعًا من المسلمين ومن غيرهم، فالمحبة لها لازمٌ ألا وهو الطاعة، الطاعة للمحبوب، متى كان الإنسان صادقًا في المحبة فلابد أن يكون مطيعًا للمحبوب، وبالتالي فمتى ما انتفت هذه الطاعة تحققنا خُلوَّ النفس من المحبة ولابد.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه … هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته … إن المحب لمن يحب مطيع

أيُّ محبةٍ كانت سواء كانت جائزة أو كانت ممنوعة برهانها ودليلها ولازمها: الطاعة للمحبوب. وانظر إلى أحوال المحبين والعُشَّاق وغيرهم فيما تقرؤه في التاريخ أو تقرؤه في الوقائع المعاصرة تجد أن المحبة إن كانت صادقة فلابد أن تتبعها طاعة.

قالت وقد سألت عن حال عاشقها … بالله صِفْه ولا تنقص ولا تزد
فقلت لو كان رهن الموت من ظمأ … وقلتِ قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت فإن الحب شيمته … يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

انظر إلى هذه المحبة التي وصلت إلى هذه الدرجة.

فقلت لو كان رهن الموت من ظمأ وقلتِ قف عن ورود الماء لم يرد

لا تشرب، المحبوب يقول لمحبه: لا تشرب، ما الذي يفعله؟ لا يَرِد، لا يشرب الماء طاعة لمحبوبه، فهذا الذي يعرفه العقلاء جميعًا أن المحبة لها لازم وهو الطاعة، فمتى ما انتفت الطاعة دل هذا على عدم المحبة أو ضعفها، إذا انتفت الطاعة للمحبوب فهذا دليلٌ إما على عدم هذه المحبة بالكلية أو على ضعفها.

وشاهد هذا من كتاب الله قوله جل وعلا: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾[آل عمران:٣١] يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (**فجعل اتباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبتهم لله تعالى وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع**) يريد رَحِمَهُ اللهُ أن محبتهم لله جل وعلا شرط اتباعهم لرسوله ﷺ ، محبة العباد لله شرط اتباعهم لرسوله ﷺ، فإنهم ما أطاعوا رسول الله ﷺ إلا لأنهم عابدون مُحبُّون لله جل وعلا وإلا لم أطاعوه؟

إذًا: صارت محبتهم لله جل وعلا شرطًا في اتباع النبي ﷺ، وهذا الذي دل عليه الشطر الأول من الآية: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾[آل عمران:٣١]، الشطر الثاني يدل على أن اتباعهم لرسول الله ﷺ شرط محبته هو سبحانه لهم، اتباع النبي ﷺ شرط محبة الله عز وجل لهم، وهذه هي الغاية، ليس الشأن أن تُحِب إنما الشأن أن تُحَب، الغاية التي يسعى الإنسان في الوصول إليها أن ينال محبة الله جل وعلا له، شرط هذا ما هو؟ اتباع النبي ﷺ، ومعلومٌ عند أهل العلم أن انتفاء الشرط يلزم منه انتفاء المشروط، فالشرط يلزم من عدمه العدم.

وأوضح من هذا أن يقال: إنَّ اتباع النبي ﷺ دليل محبتهم لله وشرط محبة الله لهم، هذا أوضح مما ذُكِر في هذه الجملة أن يقال: إنَّ اتباع النبي ﷺ دليل محبتهم لله وشرط محبة الله جل وعلا لهم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول ﷺ، ولا يكفي ذلك حتى يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذا لا شك أنه من الواجبات بل من أوجب الواجبات، أن تبلغ المحبة لله جل وعلا ثم لرسوله ﷺ أعلى ما يكون من الدرجات، أن تكون محبة الله ورسوله ﷺ في قلبك أعظم من كل المحابِّ على الإطلاق، وإذا وصل إلى هذه المرتبة فإنه ينال ثمرة عظيمة ألا وهي أن يذوق حلاوة الإيمان، ولا يمكن أن يذوق حلاوة الإيمان إلا بتحقق هذا الأمر، قال ﷺ كما في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ثلاث من وُجِد فيه وجد حلاوة الإيمان**» وفي رواية في الصحيح: «**وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار**».

المقصود أنَّ وصول الإنسان إلى هذه المرتبة وهي أن يكون الله جل وعلا في قلبه أحب من كل شيء، ثم أن يكون النبي ﷺ أحب إلى قلبه من كل شيء إلا من الله جل وعلا لا شك أن هذا أمرٌ واجب، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى الإيمان الواجب إلا به.

ولذا أخبر النبي ﷺ -كما في الصحيحين- أنه لا يؤمن أحدنا.. قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»، الوالد أحب ما يكون إلى الإنسان، والولد أحب ما يكون إلى الإنسان، ومع ذلك يجب أن يكون النبي ﷺ أحب إليه منهما ومن كل محبوب على الإطلاق خلا ربنا جل وعلا، فالله جل وعلا هو الذي له المحبة العظمى ثم نبيه ﷺ، من لم يصل إلى هذه الدرجة فإنه لم يأتِ بالمحبة الواجبة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهو الإشراك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤].

قال الشَّارح وفَّقه الله:

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكل من قدم قول غير الله على قول الله، أو حكم به، أو حاكم إليه؛ فليس ممن أحبه.

قال الشّارح وفّقه الله:

هذه الثمرة وهذا البرهان، وهذه هي الطاعة التي ذُكِرت قبل قليل، إن كنت صادقًا في حب رسول الله ﷺ فمن لوازم ذلك أن تقدم قول الله عز وجل ورسوله ﷺ على كل قول، على كل مذهب، على كل رأي، على كل قانون، على كل قول شيخ وإمام، هذه حقيقة المحبة الصادقة أن يكون كلام الله وكلام رسوله ﷺ في قلبك أعظم من كل كلام، وحكم الله ورسوله ﷺ في نفسك أشرف من كل حكم.

أما الذي إذا قيل له هذا كلام الله، هذا حديث رسول الله ﷺ فيقول: ولكن المذهب عندنا يقول بخلاف ذلك، فلا أستطيع أن أترك المذهب. يقال: يا عبد الله، هذا الفعل الذي تفعله في صلاتك، في حجك يخالف حديث رسول الله ﷺ، فيقول: المعذرة، هذا الحديث لا آخذ به لأنه خلاف مذهبنا، حتى قال قائل هؤلاء: كل حديث بخلاف مذهبنا فإما ضعيف أو مؤول أو منسوخ.

سبحان الله العظيم! أصبح المحكَم قول غير الله ورسوله ﷺ، والمتشابه قول الله ورسوله ﷺ، وبالتالي فيجب علينا أن نرد المتشابه إلى المحكم، أن نفهم الكتاب والسنة وِفْق تأويلنا لهما بما يوافق المذهب لا أن يكون المقدَّم والأعظم والذي يجب أن تُطَّرح عنده كل الأقوال والمذاهب هو كلام الله ورسوله ﷺ.

عجيبٌ حال بعض الناس يا أيها الإخوان، والأمر في هذا المقام عظيم، والوعيد في هذا شديد، ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ**﴾[النور:٥١] ماذا؟ أن يقولوا المذهب والشيخ والإمام والعُرْف والقانون والنظام؟ لا. إذا وصلهم حكم الله ورسوله ﷺ أخذوه وبكل تقدير وحفاوة ووضعوه على الرأس والعين، ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾[النور:٥١]، هذه المحبة الصادقة، وما سواها فصاحبها على خطر عظيم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لكن قد يشتبه الأمر على من يقدِّم قول أحدٍ أو حكمه أو طاعته على قوله، ظنًا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول ﷺ فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك، فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

إذا كانت عنده شبهة فإنه قد يُعذر في هذا الأمر، وإن كان هذا الأصل نفسه الذي يعتذر به ليس صحيحًا، بمعنى: بعض هؤلاء الغلاة في غير أقوال الله ورسوله ﷺ -كالذين يغلون في المذاهب أو يتعصبون للمشايخ أو غير ذلك عندهم شبهة- يقول: أنا لا أرد كلام الله ورسوله ﷺ ولكن أزعم أن هذا الإمام وهذا الشيخ أعلم بالسنة، لابد أن يكون اطلع على هذا الحديث، فعنده علة تمنعه من اتباعه، إما اطلع على علة تضعفه، أو أن ثمة ناسخٌ له، أو إلى غير ذلك، فأنا بالتالي قلَّدتُ هذا الإمام لأنه أعلم بالسنة وأعلم بهذا الحديث الذي تزعم أنني خالفته.

هذا التأصيل غير صحيح، أنت لم تُكلَّف -أولًا- إلا بما بلغك علمه ولم تُكلَّف بما غاب عنك علمه.

ثانيًا: من قال لك إن أحدًا من الناس أحاط بسنة النبي ﷺ من أولها إلى آخرها؟ هذا التأصيل غير صحيح، ليس أحدٌ من الناس محيطًا بسنة النبي ﷺ، حتى أبو بكر وحتى عمر وحتى كبار الصحابة رضي الله عنهم فضلًا عمن دونهم من التابعين، فضلًا عمن دون من أتباع التابعين، فضلًا عن الأئمة الأربعة، فضلًا عمن بعدهم من أهل العلم، ليس أحدٌ محيطًا بسنة النبي ﷺ.

ولذا تأمل في قصة الطاعون لما أقبل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع الصحابة إلى الشام واحتاروا في هذه المسألة، يدخلون وفي البلد طاعون أو يرجعون، استشار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -أعني: عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- المهاجرين والأنصار وأهل بدر وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ والكل كان يتكلم باجتهاده، حتى جاء عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

فأخبره بسنة سمعها من النبي ﷺ، فوقف عمر رضي الله عنه عندها، لا يدخلون إذا كانوا في غير البلد التي فيها الطاعون، ولا يخرج منها إن أصاب هذه البلد وهم فيها.

الشاهد أن هذا يدلك على أن جملة أصحاب النبي ﷺ أو أكثرهم ما كانوا قد اطلعوا على هذا الحديث عن النبي ﷺ، فكيف بمن بعدهم من الأئمة؟

إذًا يا عبد الله، إياك ثم إياك إذا بلغتك الآية أو بلغك الحديث عن رسول الله ﷺ إياك أن تقدِّم عليه قول غيرهما، أو أن تتردد مجرد تردد، هذا يجعلك على شفا هلكة، ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[النساء:٦٥]، والله لا يحصل الإيمان الواجب إلا بهذا القَدْر، أنك تعظِّم كلام الله ورسوله ﷺ وتذعن وتخضع للحق الذي جاء في الكتاب والسنة وتقدم ذلك على كل قولٍ وكل مذهب وكل رأيٍ على وجه الأرض.

هذه حقيقة الإيمان، هذه هي حقيقة المحبة لله ورسوله ﷺ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول ﷺ ، وعرف أن غير من اتبعه أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور، كمسألة معينة، ولم يلتفت إلى قول الرسول ﷺ ، ولا إلى قول من هو أولى به؛ فهذا يخاف عليه.

قال الشارح وفقه الله:

والله إنه ليُخاف عليه، يُخاف عليه من أن يكون قد وقع في شرك أصغر، بل يُخاف عليه أن يكون قد وقع في شركٍ أكبر، إن كان إعراضه عن كلام الله ورسوله ﷺ إعراضًا تامًا فوالله يُخشى عليه أنه وقع في الشرك الأكبر.

أهل العلم منارات، علامات يُستعان بهم على الوصول إلى الحق الذي هو كلام الله ورسوله ﷺ، لا يتجاوز شأن أهل العلم ذلك، هم مثل النجوم، أنت تحتاج إلى النجوم حتى تعرف القبلة، تستعين بهم لا لأنهم مقصودون لذاتهم، إنما هم مجرد وسائل توصلك إلى مقصودك وهو أن تستدل على القبلة.

إذا وصلت إلى الكعبة وعاينتها بعينك هل تحتاج إلى النجوم؟ لا تحتاج إلى النجوم، هكذا من بلغته الآية والحديث عن رسول الله ﷺ واضحًا أمامه، هل يحتاج بعد ذلك أن يقول: والله مذهبنا وإمامنا وقولنا، أو قانوننا أو نظامنا؟ لا يجوز له بحال والله العظيم، لا يجوز له بحال، فهذا ممن يُخاف عليه، فانتبه يا عبد الله، قد تكون المسألة.. يقول بعض الناس: هذه مسألة في الفقه، يعني لماذا تضخمون المسألة؟ والله لو كانت في الأخلاق، لو كانت في المعاملات، لو كانت أسهل مسألة في نظرك لكن فيها حديث عن رسول الله ﷺ أو فيها آية ثم بعد ذلك تتوقف أو تترك وتعرض فأنت والله على شفا هلكة، فانظر لنفسك.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكل ما يتعلل به من عدم العلم، أو عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه في الدين، أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر، أو بأنَّ ذلك المتقدم كان أعلم مني بمراده ﷺ، فهذه كلها تعللات لا تفيد.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

صدق، والله ما تنفعك عند الله، لا تنفعك عند الله، وحقيقة الحال أنك متبعٌ لهواك، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[القصص:٥٠].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا مع الإقرار بجواز الخطأ على غير المعصوم، إلا أن يُنازِع في هذه القاعدة فتسقط مكالمته، وهذا هو داخلٌ تحت الوعيد.

قال الشَّارح وفّقه الله:

هذا كله إذا كان يقدِّم قول غير الله ورسوله ﷺ على قولهما، أما إذا كان يقدم ذلك وهو يزعم أن الإمام ليس بمعصوم، أن الشيخ يجوز عليه الخطأ، أما لو زعم أنه معصوم أو أنه لا يخطئ فهذه طامة كبرى، هذا داخلٌ تحت الوعيد.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن استحل مع ذلك ثَلْب من خالفه، وقرْض عرضه ودينه بلسانه، أو انتقل من هذا إلى عقوبته، أو السعي في أذاه، فهو من الظلمة المعتدين، ونواب المفسدين.

قال الشَّارح وفَّقه الله:

هذه ظلمات بعضها فوق بعض، إن أضاف إلى ما سبق -أيضًا- أنه يحارب أهل الحق، ويعادي أهل السنة، والاتباع ويسعى في أذاهم، ويفري في أعراضهم، فهذه مصيبة عظيمة تجعله من الظلمة المعتدين، عياذًا بالله!

بعض الناس -والعياذ بالله- من هؤلاء المتعصبة للمذاهب والآراء وغير ذلك، أو للعوائد، العادات التي نشأوا عليها، إذا رأوا طلاب العلم وأتباع السنة يبينون الحق ويعلمون الناس التوحيد والسنة عادوهم وبارزوهم بكل مصيبة، حتى إنهم ربما أبغضوهم أشد من بغض اليهود والنصارى، وعادوهم أشد من هذا العداء، وهؤلاء جاهلون ظالمون لأنفسهم قبل أن يكونوا ظالمين لغيرهم، عافاني الله وإياكم من حالهم!

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أنَّ للعبادة أربع قواعد: وهي التحقق بما يحب الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع.

فأصحاب العبادة حقًا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله تعالى عن نفسه وأخبر رسوله ﷺ عن ربه من أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته ولقائه، وما أشبه ذلك.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعاء إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره تعالى، وتبليغ أمره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة، والخوف، والرجاء، والإخلاص، والصبر على أوامره ونواهيه، وأقداره، والرضا به، وله، وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه، والطمأنينة به، ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله تعالى من مستحب أعمال الجوارح.

وأما أعمال الجوارح: فكالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، أو مساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

قال الشّارح وفّقه الله:

هذه هي الخاتمة لهذه الرسالة النافعة، بيَّن فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العبادة ترجع إلى أربعة أقسام، وهذه الأقسام يذكرها أهل العلم في مبحث الإيمان، فالإيمان إنما هو هذه الأجزاء الأربعة، والعبادة هي هذه الأجزاء الأربعة، والحسنات والطاعات هي هذه الأجزاء الأربعة، فكل هذه المصطلحات تعود إلى معنىً واحد.

المقصود أنَّ الإيمان والعبادة أربعة أجزاء، منها اثنان في الباطن واثنان في الظاهر.

قول القلب وعمل القلب، وقول اللسان وعمل الجوارح، هذه الأمور الأربعة هي التي يرجع إليها الإيمان وترجع إليها العبادة، وهي التي تواتر عن السلف رحمهم الله تفسير الإيمان بها حينما يقولون: (الإيمان قول وعمل) مرادهم: قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح.

قول القلب يعني اعتقاده، ما يشمل التصديق والالتزام، يعني: الإقرار والاعتقاد والإيجاب على النفس ونحو ذلك من المعاني.

وأول ذلك وأوجبه: الإيمانُ والاعتقاد بأركان الإيمان الستة، ثم تصديق النبي ﷺ في كل ما أخبر به، كل كلمة تكلم بها النبي ﷺ يجب عليك أن تصدق بها، ومن كذَّب النبي ﷺ في كلمة بل في حرف فهو كافر بالله بإجماع المسلمين.

أما الأمر الثاني: فهو قول اللسان، قال: (**الإخبار بذلك**) يعني: النطق بالشهادتين، فهذا أرفع أقوال اللسان، ولا ينفع الإنسانَ اعتقادٌ ليس فيه نطقٌ، لو قال: أنا أؤمن بقلبي لكن هاتان الشهادتان لا أنطق بهما، لا يكون مؤمنًا بالإجماع، بل لابد أن يتفوه، لابد أن يتلفظ، لابد أن يتكلم بـ(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ).

ثم بعد ذلك جميع الطاعات التي تكون باللسان، كالدعاء إلى الله، كالأذان، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كالذكر، وغير ذلك من العبادات التي تكون باللسان.

أما عمل القلب فالأعمال الصالحة التي تقوم بالباطن، كمحبة الله والخوف منه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه، وكتوقير النبي ﷺ ومحبته وتعزيره، وكمحبة المؤمنين في الله جل وعلا، وغير ذلك من هذه العبادات والأعمال الصالحة التي محلها الباطن لا الظاهر.

ولا شك أنَّ هذه العبادات الباطنة لها أصلٌ واجب ثم لها بعد ذلك فروعٌ مستحبة.

وفي الجملة: الأعمال الصالحة الباطنة أفضل من الأعمال الظاهرة، هذا تفضيلٌ في الجملة، يعني جملة الأعمال الصالحة الباطنة أفضل من جملة الأعمال الصالحة الظاهرة.

أما أعمال الجوارح فهذه العبادات التي تقوم بالبدن تظهر أمام العيان كالصلاة والزكاة والحج والجهاد وأمثال ذلك، هذه أعمالٌ يقوم بها الإنسان ببدنه، فرجع الإيمان ورجعت الطاعة جميعًا إلى هذه الأجزاء وإلى هذه الأقسام الأربعة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فقول العبد في صلواته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥] التزام أحكام هذه الأربعة وإقرار بها.

قال الشارح وفقه الله:

الالتزام -كما قد علمنا وأظن أننا شرحنا هذا سابقًا- ليس هو الفعل، الفعل قد يكون واجبًا وقد يكون مستحبًا، أما الالتزام فإن هذا قَدْرٌ لابد منه في جميع ما جاء في أوامر الله عز وجل ونواهيه، والمقصود بذلك: اعتقاد الإلزام من الله جل وعلا، الإيجاب على النفس، هذا هو معنى الالتزام وهذا هو معنى الإقرار، هذا قَدْرٌ لابد منه، ويتنافى هذا مع من زعم أنه قد رُفِع عنه التكليف وأنه غير ملزَم بأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ. فهذا ليس بمسلم ولو فعل، لو قال: أنا لست ملزمًا بالحج ومع ذلك سأحج تبرعًا، ما حكمه؟ لا شك أنه كافرٌ بالله جل وعلا ولو حج، قال: سأحج هكذا تنزلا مني وتبرع، وإلا لست مطالبًا ولست مخاطبًا ولست ملزَمًا أن أحج، فنقول: هذا القَدْر إن صدر من الإنسان فإنه كفرٌ بالله جل وعلا، بخلاف من قال: أنا أعتقد أنه يجب عليَّ أن أحج وأنا مكلَّفٌ بالحج وملزَمٌ به، لكن تجارتي ولكن الشيطان ولكن الهوى يمنعني، فنقول: هذا مسلمٌ عاص، فافترق الحكم هاهنا لانتفاء الالتزام والإقرار.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥] طلب الإعانة عليها والتوفيق لها. وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦] متضمنٌ للأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله تعالى.

قال الشارح وفقه الله:

السعادة كلها مجموعة في هذه الكلمات الثلاث: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[الفاتحة:٥-٦]، أن تعبد الله وحده، وأن تستعين به وحده، وأن يكون هذا في الطريق الحق والصراط المستقيم وهو الذي جاء به نبينا محمدٌ ﷺ، وما سوى ذلك فهو ضلال.

فلواحدٍ كن واحدًا في واحدٍ أعني طريق الحق والإيمان

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾[الفاتحة:٥] تدفع الرياء، ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[الفاتحة:٥] تدفع الكبرياء، والشر كله راجعٌ إلى هذين، إلى الشرك وإلى التكبر على الله وعلى أوامره وأوامر رسوله ﷺ، فحاجة العباد إلى هاتين الكلمتين والعمل بهما أعظم الحاجات على الإطلاق.

فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم من أهلهما.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والله الموفق بمنه وكرمه، والحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده، وآله وصحبه ووارثيه وحزبه.

تم الكتاب بعون الملك الوهاب.

قال الشارح وفّقه الله:

نحمد الله عز وجل على ما يسَّر من المدارسة في هذه الرسالة العظيمة التي ينبغي عليك أن تعيد النظر فيها كرة بعد أخرى لعظيم العلم الذي احتوته والحاجة الماسة إلى ما دُوِّن فيها.

نسأل الله أن يعلمنا وإياكم ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا.